المقتطف من عيون التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الحصن المنصوري

حققه وخرج أحاديثه

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

المجلد الرابع

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت





سورة الفرقان

مكية وهي سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ «تبارك» كلمة تعظيم، لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعملُ الماضي فحسب، والبركة: النماءُ والزيادةُ، حسية كانت أو معنوية، وتأتي بمعنى التمجيد والتعظيم، والفرقان مصدر فَرَق بين الشيئين، سُمي به القرآنُ لفرقه بين الحقِّ والباطل، أي تعالى وتعاظم وتكاثر خير الله، الذي نزّل القرآن العظيم، الفارق بين الحق والباطل ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ لِيَكُونَ ﴾ محمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ من الثقلين يتناول جميع المكلفين إلى يوم القيامة ﴿ نَذِيرًا ﴾ أي منذراً بالقرآن للإنس والجن، ومخوّفاً لهم من عذاب الله، والإنذارُ: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبارٌ فيه سرور.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي المالك لجميع ما في السموات والأرض ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهودُ، والنصارى، والمشركون حيث جعلوا الملائكة بنات الله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ أي في ملك السموات والأرض، وإفراده بالذكر، للتصريح ببطلان زعم القائلين بتعدد الآلهة ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أحدث كل موجود، إحداثاً جارياً على سنن التقدير، حسبما اقتضته إرادته ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي هيأه لما أراد به ﴿ تَقْدِيرًا ﴾ بديعاً لا يُقادر قدره، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبر في أمور المعاش، واستنباط الصنائع المتنوعة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ الإضمار من غير ذكرهم، للثقة بمعرفتهم بدلالة ما قبله من نفي الشريك أي اتخذ المشركون لأنفسهم آلهة متجاوزين الله الذي ذكر بعض شؤونه الجليلة ﴿ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء أصلاً ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ كسائر المخلوقات وعبدتهم، ينحتونهم ويصورونهم ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ بيان لما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم، فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع الضر، وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدرون دفع الضر، ولا جلب النفع لأنفسهم، فكيف يملكون شيئاً منها لغيرهم؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أي لا يقدرون على إماتة أحد ولا إحياء أحد، والإلَه يجب أن يكون قادراً على ذلك، وفيه إيذان بغاية جهلهم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم، أي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ أي على اختلاقه ﴿ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ يعنون اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبّر عنها بتعليمهم ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا ﴾ والتنوين للتفخيم، أي جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً، حيث جعلوا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترىً من قبل البشر، وهو من جهة نظمه الرائق، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته، من جهة اشتماله على الحِكَم الخفية، والأحكام المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ﴿ وَزُورًا ﴾ أي كذباً كبيراً لا يبلغ غايتها حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بريء منه.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين ﴿ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ أي طلب أن تكتب له ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي تُقرأ عليه ليحفظها من أفواه من يُمليها عليه، لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي دائماً صباحاً ومساء، انظر إلى هذه الرتبة من الجرأة قاتلهم الله أنى يؤفكون.

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي قل رداً عليهم، وتحقيقاً للحق، إنه أنزله من يعلم السرَّ، فلو كذب عليه لانتقم منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ﴾[1] فهذا القرآن الكريم المعجز في بيانه، أنزله الذي لا يغيب عن علمه شيء، وأودع فيه فنون الحِكَم والأسرار، على وجهٍ بديع، لا تحوم حوله الشبهات، وقد جعلتموه إفكاً مفترىً من قبيل الأساطير، واستوجبتم أن يصبَّ عليكم الله سوط العذاب، لكنه تعالى رحيم بالعباد، ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي مستمر على المغفرة والرحمة، فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون في حقه ﷺ.

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ﴾؟ شروع في حكاية جناياتهم المتعلقة بخصوصية الرسول ﷺ، و«ما» استفهامية، بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، وفي هذا تصغيرٌ لشأنه ﷺ، وتسميتُهم «رسولاً» بطريق الاستهزاء ﴿ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي أيُّ شيء حصل لهذا الذي يدَّعي الرسالة، حال كونه يأكل الطعام كما نأكل؟ ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾؟ لابتغاء الأرزاق كما نفعله، يعنون أنه إن صحَّ ما يدعيه، فما باله لم يخالف حالُه حالَنا؟ وهل هو إلا لعَمَهِهم، وركاكة عقولهم، وقصور أنظارهم؟ فإن تمييز الرسل عمن عداهم، ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور روحانية، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي على صورته وهيئته ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ تنزُّلٌ منهم من اقتراح أن

---

(١) سورة الحاقة، آية: ٤٤ ـ ٤٥.

يكون مَلَكاً، مستغنياً عن الأكل والشرب، إلى اقتراح أن يكون معه مَلَكٌ يصدِّقه، ويكون عوناً له في الإنذار.

﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ تنزُّلٌ آخر إلى اقتراح أن يُلقى إليه من السماء كنز، يستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلاً إلى صدقه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ تنزل ثالث إلى اقتراح أيسر منه، وأقرب من الوقوع، وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هم القائلون الأولون، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تسجيلاً عليهم بالظلم أي قالوا للمؤمنين ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قد سُحر فغلب على عقله.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤوا على التفوه بها، أي انظر يا محمد كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل السخيفة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا تلك الصفات البعيدة من الوقوع ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾ عن طريق الهدى والحق، حيث لم يأتوا بشيء يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتمييز ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي فلا يجدون طريقاً موصلاً إلى الحق، بعد أن ضلوا عنه.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ ﴾ أي تكاثر وتزايد خير الله الذي ﴿ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدنيا عاجلاً شيئاً ﴿ خَيْرًا ﴾ لك ﴿ مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي لو شاء لأعطاك حدائق وبساتين تسير فيها الأنهار، لا جنة واحدة كما قالوا ﴿ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ أي قصوراً وبيوتاً مشيَّدة، وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب، لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإن بعض الأنبياء قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً، ولكنْ أخَّره للرسول ﷺ إلى الآخرة، لأنه خير وأبقى.

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ ﴾ إضراب عن توبيخهم، بحكاية جناياتهم السابقة، أي بل كذَّبوا بالقيامة وبالحساب والجزاء، ولذلك أقدموا على السخرية والاستهزاء ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أي أعتدنا لهم ناراً عظيمة، شديدة الاشتعال، بسبب تكذيبهم بها.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أي إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد، ونسبة الرؤية إليها، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها، لهيجان غضبها عليهم، عند رؤيتها إياهم حقيقةً أو تمثيلاً، وقوله تعالى: ﴿ مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها، بصوت المغتاظ وزفيره، وهو صوت يُسمع من جوفه، هذا ويمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة، فترى وتتغيظ، وتزفر.

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ صفة لمكاناً مفيد لزيادة شدة عذابها، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء، حيث ضمَّ إلى العذاب الشديد الضيِّق، فإن الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، وهو السر في وصف الجنة بأنَّ عرضها السموات والأرض ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حال، أي إذا ألقوا مكاناً ضيقاً، حال كونهم مقرَّنين قد رُبطت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ﴾ في المكان الهائل ﴿ثُبُورًا﴾ أي يتمنون هلاكاً، وينادونه يا ثبوراه، تعالَ فهذا أوانك.

﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ على تقدير القول، أي يُقال لهم: لا تقتصروا على ثبورٍ واحد ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة، بل ادعوا مرَّات ومرَّات، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد، يستوجب تكرير الدعاء في كل وقت وحين.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تقريعاً لهم وتحسيراً على ما فاتهم ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي قل لهم؛ أذلك الذي ذُكر من السعير، الذي أُعِدَّ لمن كذَّب بالساعة، خيرٌ؟ [(١)] ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي وعدها الله للمتقين لربهم في الدنيا، وإضافة الجنة إلى الخلد، للتمييز عن جنات الدنيا ﴿كَانَتْ﴾ تلك

---

(١) ليس في العذاب والسعير شيء من الخير، وإنما ورد هذا بأسلوب السخرية والتهكم، وفي مثل هذا الموطن يحسن التقريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً، فتمرَّد وطغى، واستكبر عن قضاء الحاجة، فيضربه سيده ضرباً شديداً، ويقول له على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟ فهذا سخرية واستهزاء بأولئك الأشقياء!!.

الجنة ﴿لَّهُمْ﴾ أي جزاءً لهم في وعد الله وحكمه، لأن ما وعد الله تعالى، فهو كائن لا محالة، فحكى تحقيقه ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم حسبما مر من الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلون إليه.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ أي ما يشاؤونه من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ وفيه تنبيه على أن كلّ المرادات، لا تحصل إلا في الجنة ﴿ خَٰلِدِينَ ﴾ دائمين أبداً، فإن قلت: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة، كأن يشتهي الولد ونحوه، قلت: إن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر، عن أهل الجنة، ولعل كل فريق يقتنع بما أتيح له من الدرجات، ولا تمتد أعناقهم إلى فوق ذلك ﴿ كَانَ ﴾ الوعد المذكور ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي موعوداً حقيقياً بأن يسأل لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي اذكر لهم بعد التقريع يوم يحشرهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يجمعهم ومعبوديهم والأصنام التي عبدت من دون الله ﴿ فَيَقُولُ﴾ الله عزَّ وجلَّ للمعبودين تقريعاً للعبدة ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن دعوتموهم إلى عبادتكم؟ كما في قوله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾؟ ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي ضلوا بأنفسهم، لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد النصيح، وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه، ليبكِّت عبدتهم ويوبِّخهم على الإشراك.

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تعجباً مما قيل لهم، لأنهم إما ملائكة، وإما أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء، أي تنزيهاً عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ ﴾ أي ما صح وما استقام لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ نعبدهم، فما يحق لنا ولا لأحد من الخلق، أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك، فأنت ربنا وأنت سندنا ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أي ما أضللناهم، ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم، ليعرفوا حقها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات ﴿ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي غفلوا عن ذكرك، وعن تذكر آلائك، والتدبر في آياتك ﴿ وَكَانُواْ ﴾ باختيارهم للأعمال السيئة ﴿ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ أي هالكين، مصدر وصف به القوم، كأنهم أصبحوا نفس الهلاك.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم ﴾ أي فقال الله تعالى توبيخاً لهم: فقد كذّبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي ما تملكون ﴿ صَرْفًا ﴾ دفعاً للعذاب عنكم، أي لا بالذات، ولا بالواسطة ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ أي فرداً من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم، وفيه ضربٌ من التهكم، حيث كانوا يزعمون أن المعبودين يدفعون عنهم العذاب، وينصرونهم ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا المكابرة والعناد، واستمروا على ما هم عليه من الفساد ﴿ نُذِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ وهو عذاب النار.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ۝٢٠﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ جواب عن قولهم ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ والمعنى: ما أرسلنا أحداً قبلك من المرسلين، إلا آكلين وماشين، فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾ أي بعض كفار الأمم ﴿لِبَعۡضٖ﴾ أي بعض الرسل ﴿فِتۡنَةً﴾ أي ابتلاءً ومحنة، كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة، من الأمم الكافرة، فتنة لرسولها المبعوث إليها، وإنما لم يصرح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، أما تعميم الخطاب لجميع المكلفين فيأباه قوله تعالى: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾؟ فإنه غاية للجعل المذكور، وليس ابتلاء كل أحد مغيًا بالصبر، فالمراد بهم الرسل[1]، فيحصل به تسليته ﷺ، فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا، على ابتلاء المرسلين بأممهم، لنعلم صبركم ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ وعد كريم، للرسول ﷺ بالأجر الجزيل، لصبره الجميل، مع مزيد تشريفٍ له.

---

(١) ما ذهب إليه المؤلف أن الفتنة خاصة بالرسل، وليست لجميع المكلفين، قول مرجوح، والأظهر ـ والله أعلم ـ أن الآية عامة لجميع الناس، وفي مقدمتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والمعنى: جعلنا بعضكم أيها الناس ابتلاءً ومحنة لبعض، ابتلى الله الغنيَّ بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح الجسم بالسقيم، والضعيف بالقوي، وهكذا ليختبر صبر الناس، ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾؟ فالابتلاء عام لجميع الخلق، قال الحسن البصري: «يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان» ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا ترجعون﴾ وقوله سبحانه: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ﴾ شروعٌ في حكاية بعض آخر، من أقاويلهم الباطلة، وبيان بطلانها، ووضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أن مثل هذا القول لا يصدر عمن يعتقد المصير إلى الله عزَّ وجل ﴿ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي الرجوع إليه تعالى بالبعث أي وقال الذين لا يتوقعون الرجوع أصلاً إلينا، والرجاء بمعنى الخوف أي لا يخافون البعث ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي هلاَّ أُنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد ﷺ ﴿ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ ﴾ أي نشاهد الله جلَّ وعلا فيخبرنا بأن محمداً رسوله، وكلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم، في المكابرة والعتوِّ ﴿ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ أي في شأنها، حتى اجترؤوا على التفوه، بمثل هذه العظيمة ﴿وَعَتَوۡ﴾ أي تجاوزوا الحدَّ والظلم ﴿ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ أي بالغاً أقصى غايته، حيث أمَّلوا نيل مرتبة المفاوضة الإلٓهية، من غير توسُّطِ الرسول أو المَلَك، كما قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾؟ ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات، فذهبوا في الاقتراح كل مذهب، وفيه الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والعتوُّ والاستكبارُ لا يثبت، إلاَّ إذا طلبه الإنسان على سبيل التعنت، ومما يدل عليه أن موسى عليه السلام طلب الرؤية، وما وصفه الله تعالى بالاستكبار، والعتو، لأنه سألها شوقاً، وهؤلاء طلبوها تعنتاً واستهزاءً، ولذا وصفهم بذلك.

﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ عند الموت، أو يوم القيامة ﴿ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أي لا يبشر يومئذ المجرمون، والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى، و﴿المجرمين﴾ وضع موضع الضمير، تسجيلاً عليهم

بالإجرام مع الكفر، والمراد بالمجرمين هنا الكفار، الذين بلغوا غاية الإجرام، ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند مشاهدتهم ما يحيق بهم ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ وهي كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدوٍّ موفور، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله أن يمنع عنهم المكروه، فكأن المعنى: نسأل الله أن يمنع ذلك عنَّا منعاً ويحجره عنَّا حجراً، يعني أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم، وقالوا ما كانوا يقولونه، وقيل: تقولها الملائكة إقناطاً لهم، بمعنى: حراماً محرماً عليكم العفو والغفران، والجنةُ والرضوان، والأول أظهر.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ بيان لحال ما يعملونه في الدنيا، من مكارمهم، كقِرَى الضيف، وصلة الرحم، بتمثيل حالهم وحال أعمالهم، بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ديارهم وأموالهم فأقبل عليها بالإفساد، والتحريق، بحيث لم يدع لها عيناً، ولا أثراً، أي عمدنا إليها وأبطلناها بالكلية، والهباءُ: شبْه غبار، يُرى في شعاع الشمس، ومنثور صفته أي متفرق، أي جعلنا أعمالهم الصالحة كالغبار المنثور في الجو، شبَّه تعالى أعمالهم المحبَطَة، في الحقارة والضَّيَاع بالغبار المتطاير في الجو، لأنهم ما عملوها لوجه الله.

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) ﴾.

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ هم المؤمنون الذين وعدهم الله جنة الخلد ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ المستقَرُّ: المكان الذي يستقر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ المقيلُ: المكانُ الذي يُؤوىٰ إليه للاستراحة، سُمّيت بذلك، لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً، ولا نوم في الجنة، ولكنه سمى مكان استراحتهم مقيلاً،

على طريق المقارنة والتشبيه لحال الفريقين، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ أي تتفتَّح، وأصله تتشقق ﴿ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي بسبب طلوع الغمام منها، هو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ﴾[1] ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ عجيباً بصحائف أعمال العباد.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ أي السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ ثابت ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ فائدة التقييد أن ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ فتخضع له الملوك وتذل له الجبابرة، أما في الدنيا فيكون لغير الله تعالى تصرُّف صوري في الجملة ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي شديد الهمِّ والبلاء، وأما للمؤمنين فيكون عليهم بفضل الله ورحمته هيِّناً يسيراً[2]، كما قال تعالى: ﴿عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٠.

(٢) كما قال المصطفى ﷺ عن يوم القيامة، حين سُئل ما أطولَ هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفَّف على المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة، يصليها في الدنيا» رواه أحمد.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عضُّ اليدين والأنامل ونحوها، كناياتٌ عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي مُعَيْط» وكان يكثر المجالسة للنبي ﷺ، فدعاه يوماً إلى ضيافته، فأبى ﷺ أن يأكل من طعامه، حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان «أُبيُّ بن خَلَف» صديقه، فعاتبه، وقال: وجهي من وجهك حرامٌ إلا أن ترجع إلى دينك فارتد، وإما أن يُراد جنس الظالم وهو داخلٌ فيه، والمقصودُ الزّجرُ للكل عن الظلم ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى﴾ «يا» للتنبيه أو المنادى محذوف، أي يا هؤلاء ليتني ﴿ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً واحداً منجياً وهو طريق الحق، ولم أكن ضالاً.

﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يريد من أضله في الدنيا، فإن أريد بالظالم «عقبة» ففلان كناية عن «أُبيِّ بن خَلَف» وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن كل ضالٍ، قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه، وإن المسلمين غيَّروا اسمه وكتموه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله، ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم، وذلك لا يحصل إلاَّ بالعموم، وقول الرافضة لا يتم إلا بالطعن في القرآن، وإثبات أنه غُيِّر، ولا نزاع أنه كفر. وكذا المراد بقوله (فلاناً) ليس شخصاً واحداً، بل كل من أطيع في معصية الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾[1].

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ الآية بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته،

---

(١) سورة النبأ، آية: ٤٠.

أي والله لقد أضلني عن ذكر الله وعن الشهادة ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ أي مبالغاً في الخذلان، يصاحبه ويواليه حتى يوصله إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وحكم الآية عام، في كل متحابين اجتمعا على معصية الله، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلُ الجليس الصالح، والجليس السوء، كحاملِ المسكِ، ونافخ الكِير، فحامل المسك إما أن يُحْذِيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكِيرِ إمَّا أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[1] وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «المرء على دين خليله، فَلينظر أحدكم من يخالل»[2].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ اعتراض مسوقٌ لاستعظام ما قالوه، وبيان ما يحيق بهم في الآخرة، وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة، لتحقيق الحق، والرد على نحورهم حيث كان ما حكي عنه قد جافى رسالته ﷺ، أي قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو، بطريق البث إلى ربه عزَّ وجلَّ ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ الذين حكي عنهم ما حكي من الشنائع ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أي متروكاً بالكلية، ولم يؤمنوا به، ولم يتأثروا بوعيده.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب بيع المسك ٤/ ٢٧١ ومسلم في البر رقم ٢٦٢٨ باب استحباب مجالسة الصالحين.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٣٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٧٩ وإسناده حسن.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ، وحملٌ له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء، أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين، كذلك جعلنا لكل نبي عدواً من مجرمي قومهم، فاصبرْ كما صبروا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعد كريم له ﷺ بالظفر، والنصر على أعدائه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ القائلون هم مشركو قريش، وإيرادهم بعنوان الكفر، لذمهم به، وللإشعار بعلة الحكم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي هلاَّ أنزل كل القرآن على محمد ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؟ وبطلانُ هذه الكلمة الحمقاء، مما لا يكاد يخفى على أحد، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به، لا يختلف بنزوله جملة، أو متفرقاً، فبيِّنةُ صحته، وآية كونه من عند الله، نظمُه المعجز، الباقي على مر الدهور، ومن ضرورة تغير بعضها، تغير ما يطابقها، على أنَّ فيه فوائد جمة، قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم، وبيان الحكمة في التدريج، أي مثل ذلك التنزيل المفرّق، الذي قدحوا فيه، نزلناه تنزيلاً، ليتقوّى به فؤادُك على تحمل نزوله، ثم إن فيه تيسير الحفظ، وفهمِ المعاني، وضبط الأحكام، والوقوف على تفاصيل ما روعي فيها من الحِكَم والمصالح، على أنها منوطة بأسبابها، وكذلك عامة ما ورد في القرآن المجيد، من الأخبار وغيرها، متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والمقترحات، ومنها أنها لو نزلت دفعة واحدة على الخلق، يثقل

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٤.

عليهم إجراء أحكامها ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فصّلناه تفصيلاً بديعاً، وبيّناه للناس على أكمل الوجوه.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي لا يأتونك بكلام عجيب، هو مَثَلٌ في البطلان، يريدون به القدح في القرآن، وفي حقك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ في مقابلته بالجواب الحق، الذي يحسم الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1] ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته، فهو أحسن بياناً وتفصيلاً من كل كلام قرؤوه.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ صفة للذين أوردوا هذه الاقتراحات على سبيل التعنت أي هؤلاء هم المجرمون، الذين يساقون ويسحبون إلى النار على وجوههم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم شرٌّ منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً وطريقاً، لأنهم على الباطل والضلال، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٠.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بعد الحديث عن التوحيد، والنبوة، وأحوال القيامة، ذكر تعالى القصص على السُنَّة المعلومة في طريقة القرآن لتأكيد ما مر من التسلية، والوعد بالهداية والنصر، كأنه قيل: لستَ يا رسول الله بأول من أرسلناه فكُذِّب، وآتيناه الآيات فرُدَّ، فقد آتينا موسى التوراة، وقوّيناه بأخيه، ومع ذلك فقد كُذّب ورُدَّ، واللامُ جوابُ القسم، أي وبالله لقد آتينا موسى الكتاب يعني التوراة ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ أي وأعنَّاه بأخيه هارون فأرسلناه معه وزيراً، يؤازره ويعاونه في تبليغ الدعوة.

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ﴾ لهما حينئذ ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي اذهبا إلى فرعون الطاغية وقومه المكذبين، بالآيات الباهرات، هي المعجزات التسع ﴿ فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم، فاقتصر على ذكر أولها وآخرها، لأن المقصود من القصة، وهو إلزام الحجة، ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم لهم.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي ودمَّرنا قوم نوح ﴿ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، لما كذَّبوا رسولهم نوحاً، وجعلناهم عبرة لمن يعتبر، وإنما قال (الرسل) بالجمع، مع أنهم كذبوا نوحاً وحده، لأن في تكذيبه تكذيبهم جميعاً، لاتفاقهم على التوحيد ﴿ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ استئناف مبيِّنٌ لكيفية تدميرهم ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أي جعلنا قصتهم ﴿ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ عظيمة يعتبر بها

كلٌّ من شاهدها، أو سمعها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي لهم، والإظهار للإيذان بتجاوزهم الحدَّ، في الكفر والتكذيب ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب الآخرة، ويحتمل العذاب الدنيوي والأخروي، على جميع الظالمين، فيدخل في زمرتهم قريش.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ هم قوم يعبدون الأصنام، بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام، فكذَّبوه، فهم حول الرسِّ ـ وهي البئر التي لم تُطوَ بعد ـ إذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وأهلكوا بسبب كفرهم ﴿وَقُرُونًا﴾ أي أهل قرون ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي بين تلك الأمم الطاغية المكذبة ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلم مقدارها إلا العليم الخبير أهلكناهم.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد منهم ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي بيّنا لهم القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر، فلم نهلكهم إلاّ بعد الإنذار ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد منهم ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ عجيباً هائلاً، لما أنهم لم يتأثروا بذلك، وتمادوا على ما هم عليه من الكفران والعدوان، وأصل التتبير: التفتيتُ، ومنه التِّبْرُ لفُتات الذهب والفضة.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان مشاهداتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبّرة، وعدم اتعاظهم بها، أي وبالله لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام، على القرية التي ﴿أُمْطِرَتْ﴾ أي أهلكت ﴿مَطَرَ

﴿ٱلسَّوۡءِۚ﴾ بالحجارة، وهي قرى قوم لوط، وكانت خمس قرى، ما نجت منها واحدة ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكر، عند مشاهدة ما يوجبه، أي أفلم يكونوا يرونها في مرورهم، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب؟ ﴿بَلۡ كَانُواْ﴾ إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم للمهلكين ﴿لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ أي إنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كانوا ينكرون النشور، المستتبع للجزاء الأخروي، فكيف يتذكرون ويتعظون بما شاهدوه من آثار الهلاك؟ ولذلك مرت بهم مدن المهلكين، كما مرت بهم ركابهم!!.

﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد، ما يتخذونك إلا مهزوءاً به، يسخرون منك ويهزؤون، ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟ أي يستهزئون بك يا محمد قائلين: أهذا الذي أرسله الله رسولاً؟ والإشارة للاستحقار، وذكر الرسول في معرض التسليم، مع كونهم في غاية النكير لبعثته ﷺ، إنما جاء بطريق التهكم والاستهزاء وذلك جهل عظيم منهم، وسخافة وحماقة، فإنهم يستحقون أن يُهزأ بهم، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية، واستهزؤوا بالرسول ﷺ.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن كَادَ﴾ إنْ مخفَّفة من «إنَّ» وضمير الشأن محذوف، أي إن الحال أنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها، صرفاً كلياً، بحيث يبعدنا عنها، لا عن عبادتها فقط، والعدول إلى الإضلال لغاية

ضلالهم ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾ أي لولا أن ثبتنا عليها، وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة، وإقامة الحجة، إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم، والآية تدلُّ على أنهم كانوا كالمجانين، لأنهم استهزؤوا به ﷺ أولاً، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا بقوة الحجة، وكمال العقل ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم، أي سوف يعلمون في الآخرة ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟ أي من هو أخطأ طريقاً، وأضلُّ ديناً، أهم أم محمد ﷺ؟ وفيه من الوعيد، والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم، وإن أمهلهم، فإن عاقبة الكفر الوبال.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم، فقد كان الواحد منهم يعبد حجراً، ينحته بيده ويطيّبه ويعبده، فإذا رأى حجراً أحسن منه، هجر إلهه ورمى به وعبد الثاني، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟ إنكار واستبعاد لكونه ﷺ حفيظاً عليه، بزجره عما هو عليه من الضلالة، وإرشاده إلى الحق، كأنه قيل: أبعدما شاهدت من غلوّه في طاعة الهوى، تقسرهُ على الإيمان؟ وهذا تيئيس من إيمانهم، وإرشاد للرسول ﷺ ألاّ يتأسف عليهم، فإنهم في الجهل بالمنافع، وقلة النظر في العواقب، مثل البهائم التي لا تدرك شيئاً من مصالحها.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ﴾؟ إضراب وانتقال عن إنكار المذكور، إلى إنكار أنهم ممن يسمع أو يعقل، أي بل أتحسب أن

أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ، فتعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ﴾ أي ما هم في عدم الانتفاع، بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم التي هي مَثَلٌ في الغفلة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي بل هم أبشع حالاً، وأسوأ مآلاً من البهائم والدواب، لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها، وتعرف من يحسن إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهم لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم، فهم أضلُّ من الحيوانات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى صنيع ربك، وإبداع خلقه؟ وهو بيان لبعض دلائل التوحيد، والخطابُ للرسول ﷺ في الظاهر، وعامٌّ في المعنى، لأن المقصود بيانُ نعم الله تعالى، وجميعُ المكلفين مشترك فيه، أي ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى؟ وحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى، لأن تأثير قدرة الله تعالى غير مرئيّ ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي كيف بسط تعالى الظلَّ، ومدَّه وقت النهار، ليستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس ووهجها؟ إذ لولا الظلُّ في النهار، لأحرقت الشمس الإنسان والثمار، وكدَّرت حياة الإنسان، ولكنه تعالى رحيم بالعباد، يهيىء لهم سبل الراحة، ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ الجملة اعترضت بين المعطوفين، للتنبيه من أول الأمر، على أنه لا مدخل فيما ذُكر للأسباب العادية، وإنما المؤثر فيه المشيئة الإلهية، أي لو شاء سكونه لجعله ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، حتى يستفيد البشر والزرع من الظل والشمس، وحاصله بيان كمال قدرته تعالى، بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه سبحانه بالذات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ

﴿عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ أي جعلناها علامة، يُستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله، ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس، لما عرف الظل، والأشياء تُعرفُ بأضدادها.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا﴾ وفي بيان كون القبض والمد، مزيد دلالة على الحكمة الربانية، وقوله تعالى: ﴿إلينا﴾ للتنصيص على كون مرجعه إليه تعالى، كما أن حدوثه منه تعالى ﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ أي على مهل، قليلاً قليلاً، لا دفعة واحدة، لئلا تختل المصالح، وتعدم المنافع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى، ونعمته الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية المقام حقَّ الامتنان، وهذا هو النوع الثاني من دلائل القدرة الباهرة، وآثار عظمة الله ووحدانيته، في الإتقان والإبداع ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أي جعل لكم الليل كاللباس، يستركم بظلامه، كما يستركم اللباس ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ راحة للأبدان، بقطع المشاغل، وأصل السُّبات: القطعُ أي وجعل النوم الذي يقع في الليل، قاطعاً للأعمال الشاقة التي يكابدها الإنسان في النهار، وعبَّر عنه بالسُّبات، الذي هو الموت، لما بينهما من المشابهة، في انقطاع أحكام الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ﴾[1] ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ أي زمان انتشار، ينتشر فيه الناس للمعاش، وفي الآية إشارة إلى أن النوم واليقظة، أنموذج للموت، والبعث.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٠.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ أي مبشرة بنزول المطر غوثاً للعباد ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أي وأنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح، ماءً طاهراً مطهِّراً تشربون منه، وتتطهرون به، والطهورُ: هو الطاهرُ في نفسه، المطهِّرُ لغيره، ووصفُ الماء به، إشعارٌ بتمام النعمة، فإنَّ الماء الطهور، أهنأ وأنفع، هذا هو النوع الثالث من آثار الوحدانية والقدرة.

﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ ﴾ أي بما أنزلناه من الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ بإنبات النبات، وإخراج الزرع والثمار، والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد، فالمراد به القطعة من الأرض، عامرة كانت أو غامرة ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ ﴾ أي ذلك الماء الطهور، عند جريانه في الأودية، واجتماعه في المنابع والآبار ﴿ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ أي أهل البوادي، الذين يعيشون بالحياض، والمراد بالأناسيّ البشر الكثيرين.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ ﴾ أي وبالله لقد كررنا هذا القول في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الناس، من المتقدمين والمتأخرين ﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ ليتفكروا ويعرفوا بذلك، كمال قدرته تعالى، ويقوموا بشكر نعمه، وقيل: الضمير للمطر، وتصريفُه بينهم: إنزاله في بعض البلاد دون

غيرها، والأول أظهر ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أي أبى أكثر البشر، ممن سَلَف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي لم يفعلوا إلاَّ كفران النعمة، وقلة الاكتراث لها عن زيد بن خالد الجُهَني أنه قال: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في إثْر سماءٍ من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم!! قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافر، فأمَّا من قال: مُطرناً بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، وكافر بالكواكب، وأمَّا من قال: مُطِرْنا بنَوْء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[1].

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١﴾.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ أي نبياً يُنذر أهلها، فيخفّف عليك أعباء النبوة، ولكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك، حسبما ينطق قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرَاً﴾ إجلالاً لك، وتفضيلاً لك على سائر الرسل.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم، وكما آثرتك على جميع الأنبياء، فآثر رضائي على جميع الأهواء، وقابل ذلك بالثبات، والاجتهاد في الدعوة، وإظهار الحق، أريد بهذا تهييجه ﷺ وتهييج المؤمنين، كأنه تعالى نهى الرسول الله عن المداراة معهم، لما أنه ﷺ كان يود أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهد في ذلك بتأليف قلوبهم ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، بتلاوة ما فيه من الزواجر والمواعظ ﴿جِهَادٗا

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء وفي الصلاة ٢/٢٧٧، ومسلم في الإيمان رقم ٧١، وأبو داود في الطب رقم ٣٩٠٦، وانظر جامع الأصول ١١/٥٧٦.

﴿كَبِيرًا﴾ فإن دعوة كل العالمين، على الوجه المذكور، جهاد كبير لا يُقادر قدره، وقيل: المرادُ بالجهاد: القتالُ، والأقرب الأول، لأن السورة مكية، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ هذا هو النوع الرابع من أدلة القدرة والوحدانية، أي خلّاهما متجاورَيْنِ متلاصقَيْن، بحيث لا يتمازجان، من مَرَج دابته إذا خلّاها، وأصلُ المرج: الإرسالُ والخلطُ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش لغاية عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً غير مرئي من قدرته تعالى، وهما في الظاهر مختلطان، وفي الحقيقة منفصلان ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وتنافراً مفرطاً، كأنَّ كلاً منهما يتعوَّذ من الآخر، ووجه الاستدلال ههنا أن العذوبة والملوحة، إن كانت بطبيعة الأرض أو الماء، فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك، فلا بدَّ من قادر حكيم، يخصُّ كل واحد من الأجسام، بصفة خاصة معينة، وقيل: المراد بالبحر العذب: النهرُ العظيم، كالنيل والشط، وبالمالح: البحرُ الكبير، وبالبرزخ ما بينهما من الأرض، وهو الأظهر[1].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية أنه تعالى خلق الماءين: الحلو، والمالح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالحُ كالبحار الكبار التي لا تجري، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً، وهو اليابس من الأرض، ومانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، ا.هـ. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، أقول: وهو الأظهر في معنى الآية الكريمة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فراتٌ سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ فالمراد بالعذب الفرات مياه الأنهار، لأنه ليس هناك بحار حلوة، وهذا من باب التغليب حيث أطلق على النهر اسم البحر، والله أعلم.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ هذا هو النوع الخامس من آثار القدرة والوحدانية، والمراد بالماء: النطفةُ، أي هو تعالى بقدرته خلق من النطفة إنساناً سميعاً بَصيراً ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينتسب إليهم، وذوات صهرٍ أي إناثاً يُصاهرُ بهنَّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[1] ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أي مبالغاً في القدرة، حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة، بشراً ذا أعضاء مختلفة، وطباع متباعدة، وربما يخلق من نطفة واحدة، توأمين: ذكراً، وأنثى.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الذي شأنه ما ذكر ﴿ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ أي ما ليس من شأنه النفعُ والضر، وهو الأصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ ﴾ معصية ﴿ رَبِّهِۦ ﴾ الذي ذُكرت آثارُ ربوبيته ﴿ ظَهِيرًا ﴾ يظاهر الشيطان بالشرك والعصيان، أو يظاهر بعضهم بعضاً، على إطفاء نور الله تعالى.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة القيامة، آية: ٣٩.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي إلا فعل من يريد، أن يتقرب إلى الله، بالإيمان والطاعة، فصوَّر ذلك بصورة الأجر، من حيث إنه مقصود بالذات، شفقةً عليهم، وقيل: الاستثناء منقطع، أي لكنْ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فلْيفعل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك وأحوالك على ربك الواحد الأحد، الذي لا يموت، توكل عليه في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يُتوكل عليه، دون الأحياء الذين من شأنهم الموت، فإنهم إذا ماتوا، ضاعَ من توگّل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزهه عن صفات النقصان، مثنياً عليه بنعوت الكمال، طلباً لمزيد الإنعام، أي قل سبحان الله وبحمده ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ أي حسبك أن الله تعالى مطّلع على أعمال العباد، ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ أي مطلعاً عليها بحيث لا يخفى عليه شيء منها، فيجزيهم جزاءً وافياً، فلا عليك إن آمنوا، أو كفروا.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تعطيل، وُصف تعالى بصفة الفعلية، بعد وصفه بالأبدية، لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح، أي هو الرحمنُ، وهو في الحقيقة وصف للحي المذكور

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ أي بتفاصيل ما ذُكر إجمالاً ﴿خَبِيرًا﴾ هو الله سبحانه وتعالى، الخبير بالأشياء، العالم بالحقائق، يطلعك على جلية الأمر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قالوه لأنهم كانوا لا يطلقونه على الله تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؟ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له، من غير أن نعرف أن المسجود له ماذا؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ أي زادهم الأمر بالسجود للرحمٰن استكباراً، ونفوراً عن الحق والإيمان، وهذا من شدة الطغيان، وهذا يشبه قول الطاغية فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وما ربُّ العالمين﴾؟ كأنه لا يعرف أن هناك خالقاً للبشر.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي البروج الاثني عشر، سميت به، وهي القصور العالية، لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة، وقال الحسن ومجاهد: البروجُ هي النجوم الكبار، كالزهرة والمشتري وعطارد

---

(١) هذا القول مروي عن مجاهد، ورجح بعض المفسرين أن المعنى: فاسأل عنه من هو خبيرٌ عارف برحمته وجلاله، والمراد به من عنده اطلاع على الكتب السماوية من أهل العلم، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ والله أعلم.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ هي الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ مضيئاً بالليل، وهو البدر الساطع.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أي ذوي خلفة، يخلف كل منهما الآخر، أو بأن يتعاقبا يأتي هذا بعد هذا ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أي يتذكر آلاء الله تعالى، ويتفكر في بدايع صنعه، فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أو أراد أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[1] الآية رُوي أنه جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: فاتتني الصلاة الليلة، قال: أدركْ ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لمنْ أرَادَ أنْ يَذكَّر أَوْ أرَادَ شُكُوراً﴾[2]!!

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خُلَّص عباد الرحمن، وأحوالهم الدنيوية والأخروية، والإضافة للتشريف ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ

(١) سورة القصص، آية: ٧٣.

(٢) يروى أن عمر فعل هذا بنفسه، أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعتَ اليوم شيئاً لم تكن تفعله!! فقال: فاتني شيء من وردي ـ أي صلاتي ـ بالليل، فأحببتُ أن أقضيه، وتلا هذه الآية، ذكره الحافظ ابن كثير ٣/ ٣٣٦.

﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بسكينة وتواضع، دون مَرَح واختيال، وهو مصدر وصف به مبالغة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي السفهاء ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي قالوا قولاً يسلمون به من الأذية والإثم، والمراد به الإغضاءُ عن السفهاء، وتركُ مقابلتهم في الكلام، وهذا مستحسنٌ شرعاً، ومروءة وعقلاً.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ وتخصيصهم بالبيتوتة، لأن العبادة بالليل أحمد، وأبعد من الرياء، أي ساجدين لربهم وقائمين، يُحيون الليل كله، أو بعضه، وفي الحديث عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنَّما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة، فكأنَّما صلَّى الليل كله»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلاتهم، وفي عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي شراً دائماً، وهلاكاً لازماً، وفيه مدح لهم، ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحق، يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم، غير محتفلين بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[2].

---

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٦٥٦ وأبو داود في الصلاة رقم ٥٥٥ والترمذي في الصلاة أيضاً رقم ٢٣١ باب فضل صلاة العشاء والفجر بالجماعة.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٠.

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئست جهنم منزلاً، ومكان إقامة لمن يدخلها ويسكنها.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾ أي لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ أي ولم يضيِّقوا تضييق الشحيح، وقيل: الإسرافُ: هو الإنفاقُ في المعاصي، والتقتيرُ: منعُ الواجبات والقُرَب ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أي بين الإسراف والتقتير، وسطاً وعدلاً، سُمِّي قواماً لاستقامة الطرفين، وهو ما يقام به الحاجة، ولا يفضل عنها ولا ينقص، قيل لعالم: ما البناء الذي لا سَرَف فيه؟ قال: ما سَتَرك من الشمس والمطر، فقيل له: وما الطعام؟ قال ما سدَّ الجوعة، وقيل: ما اللباسُ؟ قال: ما ستر عورتك، ووقاكَ من البرد[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلَهاً آخر ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بسبب الحقّ المزيل لحرمتها، كالقصاص، أو الزنى بعد الإحصان، أو الردة عن الإسلام، أو السعي في الأرض بالفساد ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ أي لا يفعلون

---

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شراً من بطنه، بحَسْب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإذا كان لا محالة ـ أي لا بدَّ ـ فاعلاً، فثُلثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشَرَابِه، وثُلُثٌ لِنَفسه» رواه الترمذي.

فاحشة الزنىٰ، ولا شيئاً من هذه القبائح التي جمعهن الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم مداومين على قتل النفس المحرمة، التي من جملتها الموؤودة، ومكبين على الزنا، لا يرعوون عنه أصلاً ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم في الآخرة، كالوبال والنكال، وزناً ومعنىً، والأثامُ هو الإثم وجزاؤه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله: «أيُّ الذنبِ أكبرُ عند الله؟ قال: أن تدعو للهِ نِدًّا وهو خَلقك، قال: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك!! قال: ثم أيٌّ؟ قال أن تزني بحليلة جارك، فأنزل الله تعالى تصديقاً له ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ...﴾[1] الآية.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿يُضَٰعَفْ﴾ بدل من «يَلْقَ» لاتحادهما في المعنى، إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أي في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني، ومضاعفةُ العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٣٧٨ ومسلم في الإيمان رقم ٨٦ باب كون الشركِ أقبح الذنوب.

طاعاتهم، ولم يرد به تبديل السيئة بعينها حسنة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والإثبات.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن المعاصي، بتركها بالكلية، والندم عليها، ودخل في الطاعات، فإن الله يتقبل توبته، ويكون مرضياً عند الله تعالى، يمحو الله زلته، ويرفع درجته، ومعنى المتاب: التوبة التامة، وهي الجمع بين ترك القبيح، وفعل الجميل، وكأن المعنى أن توبته صادقة، لا غشَّ فيها ولا زغل.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة، فيشهدون بالباطل شهادة الزور، أو لا يحضرون محاضر الكذب، فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ على طريق الاتفاق ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ أي ما يجب أن يُلغى ويُطرح، ممَّا لا خير فيه ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه، والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش، والكناية عما يُستهجن التصريحُ به، عن أبي بَكْرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراكُ باللهِ، وعقُوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألاَ وقولُ الزورِ، وشهادةُ الزور، فما زال يكرّرها، حتى قلنا ليته سكت»[1] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهَه، ويطوف به في الأسواق.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٢٦٥٤ ومسلم رقم ٨٧.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي والذين إذا وُعظوا بآيات القرآن، المنطوية على المواعظ والأحكام، أكبوا عليها سامعين بآذانٍ واعية، وعيون راعية، وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الضدِّ ﴿لم يخرّوا عليها صُماً وعمياناً﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرةُ والمنافقون، حيث يتعامون ويعرضون عن آيات الذكر الحكيم.

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي اجعل لنا ذرية صالحة تقر بهم أعيننا، وذلك بتوفيقهم للطاعة، وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله، وشاركوه فيها، يُسر بها قلبه، وتَقَرُّ بهم عينه، لما يشاهده من مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقع لحوقهم به في الجنة، حسبما وعد الله بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي اجعلنا بحيث يُقتدى بنا في إقامة وظائف الدين، بإفاضة العلم، والتوفيق للعمل، وتوحيد ﴿إِمَامًا﴾ لأنَّ المراد واجعل كلَّ واحد منّا إماماً، وفي الآية ما يدلُّ على أن الرياسة في الدين، يجب أن تطلب، ويُرغب فيها، وقرةُ العين: أن يصادف قلبُه من يرضاه، فتقر عينُه به عن النظر إلى غيره.

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الفضائل الجليلة، والصفات النبيلة ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ الغُرفةُ: الدرجةُ العالية من المنازل، أي يُثابون أعلى منازل الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنونَ﴾ ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمل المجاهدات ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ من جهة الملائكة ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ أي تُحيِّيْهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامة من الآفات، ويمكن أن يكون السلام من الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ وقيل: يحيِّي بعضُهم بعضاً بالسَّلام، الذي هو تحية الإسلام.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي حسنت الجنة موضع قرار وإقامة، وهي في مقابلة قوله تعالى عن جهنم: ﴿ساءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً﴾ أي ما أسوأ ذاك، وما أحسن هذا؟.

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يبين للناس، أنَّ الفائزين بتلك النعماء، إنما نالوها بما عُدِّد من محاسنهم، ولولاها لم يُعتد بهم أي قل لهم ﴿ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ أي ما يكترث ولا يحفل بكم ربي، ولا يعتني بشأنكم، لولا دعاؤكم وعبادتكم له، ولولا ذلك لكنتم وسائر البهائم سواء، ولكنه سبحانه شفيق على العباد، ولذلك أرسل إليكم الرسل، وأنزل الكتب ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي فقد كذبتم بما أخبرتكم به، وخالفتموه

أيها الكفرة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب، أو أثرُه لازماً، يحيق بكم لا محالة، لكفركم وضلالكم، وتكذيبكم لآيات الله.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآبُ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

* * *



مكيّة وهي مئتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ①﴾.

﴿طسٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف، وقيل: اسم للسورة الكريمة، فهي تسمى سورة طسم.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي آيات الكتاب الواضح الجلي، المعجز في بيانه، الظاهر إعجازه وصحّتُه، أو المبيِّن للأحكام الشرعية.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ③﴾.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ لعلَّ للإشفاق، أي أشفق على نفسك، ونظير هذه

الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[1] ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعدم إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا به.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ استئناف مسوق لتعليل النهي عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى، فلا وجه للطمع فيه، والتأثر من فواته ﴿آيَةً﴾ أي ملجئة لهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي منقادين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدة تمردهم، وعدم ارعوائهم عن الكفر والتكذيب، أي ما يأتيهم من موعظة، من مواعظ القرآن الكريم تذكرهم بالله وتخوفهم عقابه، إلاّ جدَّدوا إعراضاً عنها، على وجه التكذيب والاستهزاء.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي كذبوا بالقرآن تكذيباً مقارناً للاستهزاء به، ولم يكتفوا بذلك، بل طعنوا فيه، فجعلوه تارةً سحراً، وأخرى شعراً، ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعِبَر ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فقد بلغوا النهاية في السخرية والتكذيب، فسوف يأتيهم عاقبة القرآن، الذي كانوا به يستهزئون، من العقوبات العاجلة والآجلة، وفي الآية تهويلٌ للعقاب، لأن النبأ لا يُطلق إلا على أمرٍ وخبرٍ خطير، كقوله سبحانه: ﴿عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾. ثم نبَّه تعالى على عظمة سلطانه، وباهر قدرته

---

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، فقال سبحانه:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾؟ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض، كم أخرجنا فيها من كل صنف، حسن محمود، كثير الخير والمنفعة، مما يأكل الناس والأنعام؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم التدبر والاعتبار، قال الشعبي: الناسُ من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إنَّ في ذلك الإنبات لآية عظيمة باهرة، تدل على وحدانية الله وقدرته، ونهاية سعة رحمته، وما كان أكثر قومه عليه الصلاة والسلام مؤمنين، مع ظهور الدلائل الساطعة، لغاية تماديهم في الكفر والضلالة.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو العزيز أي الغالب القاهر، القادر على الانتقام من الكفرة، الرحيم أي المبالغ في الرحمة بخلقه، حيث يمهلهم ولا يعجِّل لهم العقوبة مع قدرته عليهم. ثم شرع تعالى في ذكر قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، فقال سبحانه:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ أي اذكر يا محمد لأولئك المعرضين عن الإيمان، المكذبين بآيات الرحمن، من قومك، وقت ندائه تعالى وكلامه لموسى، ليلة رأى الشجرة والنار، حين رجع من مدين، وذكّرهم بما جرى على قوم فرعون، بسبب تكذيبهم إياه، وحذّرهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بأن ائت هؤلاء الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد بني إسرائيل، وذبح أبنائهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من القوم الظالمين أي هم قوم فرعون العتاة الجبابرة ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؟ أي ألا يخافون عذاب الله وعقابه؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم، أي ائتهم زاجراً لهم فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حثٍّ وإغراء على التقوى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿قَالَ﴾ متضرعاً إلى الله تعالى ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ من أول الأمر.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ أي يضيق صدري من تكذيبهم لي، وفي لساني عقدة، فأخشى ألا أستطيع أن أبلغهم دعوتك على الوجه الأكمل، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي اجعل أخي هارون رسولاً وأرسله معي ليكون عوناً لي في تبليغ الرسالة، رتَّب عليه السلام استدعاء ذلك على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وازدياد الحُبسة في لسانه، وليس ذلك من التعلل والتوقف في الأمر، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به، وتمهيد عذر فيه.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ أي تبعةُ ذنب، والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنباً بحسب زعمهم، كما ينبىء عنه قوله: ﴿ولَهُمْ﴾ ﴿فَأَخَافُ﴾ أي إن أتيتهم وحدي ﴿ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة، وهو طلب دفع البلية قبل وقوعها، لا للتعلل أيضاً.

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا ﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى المطلبين: الدفع عن الخوف، وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إليهما، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنُّ، فاذهب أنت ومن استدعيته وفي قوله: ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي اذهب أنت وأخوك هارون بالمعجزات التي أيدتك بها وهي اليد، والعصا ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ أي معكما، أجراهما مجرى الجماعة، وهو جائز في اللغة، وقيل: المراد مع موسى وهارون وفرعون، فمع موسى وهارون بالعون والنصر، ومع فرعون بالقهر والكسر، وفيه مزيد تسلية لهما بضمان الحفظ والنصرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون، اعتبر في المعية أي سامعون ما يجري بينكما وبينه، مثَّل حاله عزَّ وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم، يستمع ما يجري بينهم، ليمدَّ أولياءه مبالغةً للوعد بالإعانة.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية الجبار، واثقَيْن بالنصر والتأييد ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإفراد الرسول لاتحاد مطلبهما أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة وصف به، أي إنَّا مرسلون من ربِّ العالمين إليك.

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ومعنى إرسالهم: تخليتهم ليذهبوا معهما إلى الشام، ورفع يد الظلم والعدوان عنهم.

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى عليه السلام بعدما أتياه وقالا له ما أُمرا به ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون واستأذنا في الدخول فقال البواب لفرعون: إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام. فقال عند ذلك ﴿أَلَم نُرَبِّكَ فِينَا﴾ أي في قصرنا ومنزلنا ﴿وَلِيداً﴾؟ أي طفلاً ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي مكثت بين ظهرانينا سنين عديدة، ونحن نحسن إليك ونرعاك!! يروى أنه لبث فيهم اثنتي عشرة سنة، وفرَّ منهم على إثر ذلك، بعد قتله القبطي، فخرج إلى أرض مدين.

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي، فبعدما عدَّد عليه نعمته، وبخَّه بما جرى عليه من قتل خبَّازه، وعظَّم ذلك ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي بنعمتي، حيث عمدتَ إلى قتل رجل من خواصي، فأسأت إلى من أحسن إليك.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا ﴾ قال مجيباً له، مصدقاً في القتل، ومكذباً فيما نسبه

إليه من الكفر ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي من الجاهلين، أو من المخطئين[1]، لا من الكافرين كما زعمت، لأن موسى لم يتعمَّد قتله، بل أراد تأديبه.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي فهربت منكم حين خفت على نفسي أن تصيبوني بمضرة أو تقتلوني ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ حكمة وفهماً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ واختارني رسولاً إليك، فإن آمنت سلمتَ، وإن جحدت هلكت!! ردَّ أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته، ثم كرَّ على ما عدَّه نعمة وهو في الحقيقة نقمة فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؟ أي تمنُّ بها عليَّ ظاهراً، وهي في الحقيقة نقمة، فتعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم، وأنه السبب في وقوعي عندك، ولو تركتهم لرباني أهلي، ولم يلقوني في اليم، أوَ تلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ؟ وتوحيد الخطاب في تمنُّها، وجمعه في ما قبله، لأن المنة منه خاصة، والخوفُ والفرارُ منه ومن ملئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) فإن قيل: كيف قال موسى: ﴿وأنا من الضالين﴾ والنبي لا يكون ضالاً؟ والجواب أنه عليه السلام أراد به الخطأ أي وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله، وإنما أردت دفعه، ولم يقصد الضلال عن الهدى، لأنه معصوم منذ الصغر، وقال ابن عباس: ﴿وأنا من الضالين﴾ أي من الجاهلين لأنني كنت في حالة غضب.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لمَّا سمع منه تلك المقالة المتينة، وشاهد تصلبه في أمره، وعدم تأثره بما قدَّمه، شرع في الاعتراض على دعواه، فبدأ بالاستفسار عن المرسِلِ، فقال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حكاية لما وقع في عبارته، أيْ أيُّ شيءٍ ربُّ العالمين، الذي ادعيت أنك رسوله؟ منكراً لأن يكون للعالمين ربٌّ سواه، حسبما يعرف عنه قوله: ﴿أنا ربُّكُمْ الأعْلَى﴾ وهو سؤال عن الجسمية، والله تعالى منزَّهٌ عنها، يريد اللعين المغالطة، أي ما هي حقيقة الله؟ ومن أيِّ شيء يكون ربُّ العالمين؟ أمن ذهب أم فضة أم من لحم ودم؟ فلهذا أجابه موسى بذكر أفعاله وآثاره.

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ ﴾ أي هو خالق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، وهو المالك لجميع الكائنات والمتصرف فيهما قاله حسماً لمادة تزوير اللعين، وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل، فكفى خلق الأشياء دليلاً على خالقه!! سأل اللعين عن الماهية ﴿ما ربُّ العالمين﴾ أي من أي شيء هو؟ وما هو شكله وجنسه؟ وهذه مغالطة منه، فأجابه موسى عليه السلام بالأسلوب الحكيم، منبهاً إلى آثار قدرته وعظمته جلَّ وعلا.

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ فرعون عند سماع جوابه، خوفاً من تأثيره في قلوب قومه ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾ من أشراف قومه ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾؟ تعجيب لهم من جوابه عليه السلام، وأنه أمر حقيق بأن يُتعجب منه، كأنه قال: ألا تستمعون ما يقوله؟ فاستمعوه وتعجبوا منه؟ حيث أسأله عن الله، فيجيبني عن صفاته، ويريد

بذلك السخرية من موسى، بأنه لا يحسن الجواب، مع أن كلام فرعون هو كلام الأحمق، الذي لا يحسن حقيقة السؤال، ولو كان له عقل لقال «ومن ربُّ العالمين» ولهذا أكّد موسى عليه السلام بالجواب القاطع.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ حطّاً له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة المربوبية ﴿ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو المستحق للربوبية، ربكم وربُّ آبائكم السابقين، فوجودكم دليل على وجوده، وأنتم جميعاً عبيد له سبحانه، لأنه هو الذي خلقكم وصوَّركم، ولا يمكن أن يتوهم مثله، فهو واحد أحد، فرد صمد.

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون من سفاهته لمَّا واجهه موسى عليه السلام بما ذُكر، اغتاظ من ذلك، وخاف من تأثيره على قومه، فأراهم أن ما قاله عليه السلام، ممَّا لا يصدر عن العقلاء، سداً لهم عن قبوله، فقال مؤكداً ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق، أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء، فيجيبني عن شيء!! وسمَّاه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه (رسولكم) ترفعاً من أن يكون مرسلاً إلى نفسه.

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ تكميلاً لجوابه الأول، وتفسيراً له، وتنبيهاً على جهلهم، وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسماوات والأرض وما بينهما هو مظهر الألوهية، فالله عزَّ وجلَّ هو المتصرف في الكون، يقلّب الليل والنهار، ويسيّر الشمس

والقمر، وهذا هو الطريق الأمثل لمعرفة ربوبيته تعالى، فإن ذكر المشرق والمغرب، منبئ عن شروق الشمس وغروبها، على نمط بديع، تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير المدار الذي قبله، على وجه نافع ينتظم أمور الكائنات، ويجعلها تغرب من الغرب، وهذا مشاهد يبصره العاقل والجاهل، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل والفهم، علمتم أن الأمر كما قلته[1]، وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة، فلمّا تحيّر فرعون، ولم يتهيأ له أن يدفع الحجة، رجع إلى الاستعلاء، متوعداً بالبطش والعنف، وهذا منطق الطغيان عندما لا يجد البرهان.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقنع منه عليه بترك دعوى الرسالة، حتى كلّفه أن يتخذه إلَهاً، لغاية عتوه في دعوى الألوهية، وهذا صريح في أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الأول، ونسبته إلى الجنون كان لنسبته عليه السلام الربوبية إلى غيره، واللام في (المسجونين) للعهد أي لأجعلنك ممن عرفتَ أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هوةٍ عميقة، حتى يموتوا، ولذلك لم يقل لأسجننك.

---

(١) هذه من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل، كقول إبراهيم الخليل في مناظرة النمرود الذي أعطاه الله الملك ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب؟ فبهت الذي كفر﴾ وكأن موسى يقول لفرعون الجبار إن كنت حقاً إلهاً فبدّل نظام الحياة، واجعل الشمس تشرق من المغرب وتغرب من المشرق، فهذا هو السر في قوله: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ وقد تلطف موسى ولاين أولاً طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ في مقابلة قول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وكأنه يقول: أنتم المجانين لا أنا.

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾؟ أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء جليّ واضح على صدق دعواي، يريد به المعجزة، فإنها جامعة بين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يديه، وعلى وجود الصانع وحكمته.

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي ائتنا بما يدل عليه كلامك!!.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي تتلألأ كالشمس الساطعة لها شعاع من غير ضرر.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾؟ بهره سلطانُ المعجزة، وحيَّره حتى حطَّه عن ذروة ادعاء الربوبية، إلى حضيض الخضوع لعبيده فيقول ﴿فماذا تأمرون﴾؟ يطلب منهم مؤامرتهم ومشاورتهم، بعدما كان مستقلاً في الرأي، وأظهر استشعار الخوف، من استيلائه على ملكه، ونسبةُ الإخراج والأرض إليهم ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أخِّر أمرهما ولا تباغت قتلهما خوفاً من الفتنة ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي وأرسل الشرطة يحشرون السحرة، ويجمعونهم لك من أطراف المملكة.

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ يَأْتُوكَ ﴾ أي الحاشرون ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ صيغة «سحّار» للمبالغة، أي فائق في فن السحر ماهر في صنعته.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ هو اليوم الذي عيَّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ أي وقت الضحى في أول أيام العيد.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ أي ألا تجتمعون لهذا الأمر الجليل؟ والمرَادُ منه استعجالُهم، حثاً لهم على المبادرة إليه.

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ أي نتبعهم في دينهم ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أي إن غلبوا موسى، وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة، وإنما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ عظيماً ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾؟ أي إذا غلبنا موسى، فهل تكرمنا بإكرام جزيل؟.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ لكم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندي إذا غلبتم موسى، أجعلكم من خاصتي ومن جلسائي.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي بعد ما قال له السحرة ﴿إمَّا أَنْ تُلْقي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّل مَنْ أَلْقَى﴾ أي ألقوا ما أنتم ملقون من السحر، فسوف ترون عاقبة أمركم، أراد عليه السلام التهاون في الأمر، وترك المبالاة بهم، ثقة بنصر الله له، ولتظهر المعجزة على رؤوس الأشهاد، بعد أن يبذلوا كل جهودهم لغلبته.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ قالوا ذلك، لفرط اعتقادهم في أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يُؤتى به من السحر، ومرادهم أنَّا سننتصر ونغلب موسى، ونقسم على ذلك بعزة فرعون.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ أي تبتلع بسرعة الحبال والعصيّ ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي ما يقلبونه من وجهه بتمويههم، فيخيلون حبالهم وعصيَّهم أنها حيات تسعى.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ أي خرُّوا سجداً قائلين: آمنا بالرب الحقيقي، الذي أخبرنا عنه موسى وهارون لا ما يزعمه فرعون المفتري على الله.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أي قبل أن تستأذنوني ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أي إنه رئيسكم الذي علمكم السحر، فتواطأتم على ما فعلتم، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه، كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة، وظهور حق ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هدَّدهم بالقتل والصلب تخويفاً لهم ليرجعوا.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ﴾ أي لا ضرر علينا في ذلك ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ تعليل لعدم الضر، أي لا ضير بل لنا نفع عظيم، فيما تتوعدنا به من القتل، لأنه لا بد لنا من الرجوع إلى ربنا، فيثيبنا بالصبر على ما فعلت بنا، ويجازينا على التوحيد.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لأن كنا أول المؤمنين بالله، من أتباع فرعون الكفار، ولمَّا ثبتوا على الإيمان، نفَّذ فيهم فرعون حكم الإعدام، فقتلهم ليبقى له ملكُه.

قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء بَرَرة.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي أخبرنا موسى بطريق الوحي، أن فرعون يتبعكم وجنوده مصبحين ﴿فَأَسْرِ﴾ أي سرْ بالليل بمن معك، حتى لا يدرككم قبل الوصول إلى البحر.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أخبرهم بمسيرهم ﴿ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ أي جامعين للعسكر ليتبعوهم، فلما اجتمعوا قال:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ الشرذمة طائفة قليلة، استقلَّهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، فأرسل في أثرهم ألف ألف.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا بمخالفتهم لنا.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، اعتذر بها إلى أهل المدائن، لئلا يُظن به ما يكسر من قهره وسلطانه.. قال تعالى مبيِّناً عاقبتهم الوخيمة:

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم ﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه الظالمين ﴿ مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي بساتين كانت ممتدة على حافتي النيل، فيها الأنهار الجارية.

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ومن أموالهم الوفيرة، ومنازلهم البهية.

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي ملكناها إياهم على طريقة تمليك مال الموروث، بعد إغراق فرعون وقومه.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي فلحقوهم ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها.

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أي تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي سيدركنا جنود فرعون ويقتلوننا، جاؤوا

بالجملة الاسمية، مؤكدة بحرفي التأكيد «إن» و «اللام» للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق، وتحقق الهلاك والفَناء.

﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿كَلَّآ﴾ أي ارتدعوا عن ذلك، فإنهم لا يدركونكم، فإن الله وعدكم الخلاص منهم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بالنصرة والهداية ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى طريق النجاة منهم بالكلية، روي أن قوم موسى عليه السلام قالوا يا كليم الله: أين أمرتَ، وقد غشينا فرعون والبحر أمامنا؟.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو بحر القلزم، ويُعرف موضعها بالسويس، وهو بحر مظلم موحش لا خير فيه ﴿فَٱنفَلَقَ﴾[1] أي فضربه فانفلق، فصار اثني عشر فرقا، بعدد الأسباط ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ حاصل بالانفلاق ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل الثابت في مقرِّه، فدخلوا في شعابها، كل سبط في شعب منها، لئلا يتزاحموا ويتخاصموا في اقتحام الطريق.

---

(١) لما انفلق البحر جعله الله يبساً لموسى عليه السلام والمؤمنين، وصار فيه اثنا عشر طريقاً، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، وأمر الله موسى أن يترك البحر على حاله كما قال سبحانه: ﴿واترك البحر رَهْواً إنهم جند مغرقون﴾ فلما خرج موسى ومن معه، وتكامل دخول أصحاب فرعون، أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض المؤمنين من أصحاب موسى: ما غرق فرعون، فأمر الله البحر أن يطرح جثته، حتى نظروا إليه فتحققوا هلاكه، وكان ذلك اليوم، يوماً عظيماً من أيام الله الخالدة، ولهذا صامه موسى والمؤمنون معه، شكراً لله على نجاتهم، وإهلاك أعدائهم، ويصادف هذا اليوم يوم العاشوراء الذي حضَّ النبي ﷺ على صيامه.

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴾ أي قربنا هناك فرعون وجماعته، قرَّبنا بعضهم من بعض، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ﴿ٱلْأخَرِينَ﴾ فرعون وعساكره حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، وأصبحوا جميعاً في البحر.

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين جميعاً، بحفظ البحر على تلك الهيئة، إلى أن عبروا.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ بإطباقه عليهم، أغرقناهم في البحر، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في جميع ما فُصِّل من القصة ﴿ لَءَايَةً ﴾ عظيمة موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون، ويقيسوا شأن الرسول ﷺ بشأن موسى عليه السلام، كيلا يحلَّ بهم مثل ما حلَّ بأولئك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ مصدّقين لرسل الله، مع كل الآيات والنذر، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد لمن عصاه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الغالب على كل ما يريده، والمبالغ في الرحمة لعباده.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي على المشركين ﴿ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ أي خبره العظيم الهام، حسبما أوحي إليك، لتقف على عدم إيمانهم، بما يأتيهم من الآيات، شأنهم شأن جميع المكذبين، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة.

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ أي أيَّ شيء تعبدونه؟ سألهم عن ذلك، ليبني على جوابهم، أن ما يعبدونه بمعزل، من استحقاق العبادة بالكلية.

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناماً، بل أطنبوا فيه قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم من الافتخار بذلك، والمراد بقولهم ﴿فنظلُّ﴾ الدوام والاستمرار على عبادتها.

﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف ﴿ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴾؟ أي في الوقت الذي كنتم تدعونها فيها؟.

﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴾؟ أي يضرونكم بترككم لعبادتها، إذ لا بدَّ للعبادة من جلب نفع، أو دفع ضر.

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ اعترفوا بأنها بمعزل عن السمع، والنفع والضر، وأظهروا أن لا سند لهم سوى التقليد أي ما علمنا وما رأينا منهم مما ذكر من الأمور، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فاقتدينا بهم.

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم ﴾ أي أنظرتم وتأملتم فيما فعلتم؟ ﴿ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أي ما تعبدونه من هذه الأوثان والأصنام، هل فيها شيء من صفات الإله القادر؟.

﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ أي السابقون.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ ﴾ أي فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم، لما أنهم يتضررون من جهتهم، فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، لكنه عليه السلام صوَّر الأمر في نفسه تعريضاً بهم، فإنه أنفع في النصيحة من التصريح، ويكون أدعى إلى القبول ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ استثناء منقطع أي لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وَليِّي في الدنيا والآخرة، يتفضَّلُ عليّ بأنواع النعم.

ثم فصَّل ذلك بقوله:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى ﴾ صفة لرب العالمين أي الله الذي أوجدني وخلقني،

هو الذي يهديني إلى سبيل الرشاد، لا هذه الأصنام الصمّاء ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي يهديني وحده إلى كل ما يهمني ويصلحني، من أمور الدين والدنيا، هداية متجددة على الاستمرار، متدرجة من مبدأ إيجاده، إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني الطعام والشراب، فهو الخالق وهو الرازق، لا هذه الأصنام والأوثان!؟.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي وإذا حلَّ بي المرض فهو سبحانه الذي يشفيني منه، ونسب المرضَ إلى نفسه، والشفاء إلى الله تعالى، مع أنها منه تعالى جميعاً، لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبها﴾ وقال: ﴿فأراد رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وكل ذلك مراعاة للأدب مع الله سبحانه، في نسبة الخير إليه، والشرِّ إلى الإنسان، أو الشيطان.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي هو تعالى المحيي المميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني عند انتهاء أجلي، ثم يبعثني يوم الحساب والجزاء.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه،

وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر، وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، أنه لا يصلح للألوهية إلاَّ من يفعل هذه الأفعال الجليلة.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ بعدما ذكر عليه السلام فنون الألطاف الفائضة عليه من الله، من مبدأ خلقه إلى يوم بعثته، حمله ذلك على مناجاته تعالى طلباً للمزيد، وقد ابتدأ بالثناء على الله، وذكر بعد ذلك الدعاء، وفيه تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات ﴿ حُكْمًا ﴾ أي الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل، بحيث يتمكن به من خلافة الحق، ورياسة الخلق ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ووفقني لما يرشحني للانتظام في زمرة الكاملين، الراسخين في الصلاح، واجمع بيني وبينهم في الجنة، ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ المراد باللسان: الثناء العاطر، والذكر الحسن، وضع اللسان موضع القول، لأن القول يكون به، أي جاهاً، وحُسْن صِيتٍ في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، وقد أجابه تعالى، ولذا لا ترى أمة من الأمم إلا وهي محبة له عليه السلام.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَاجْعَلْنِي ﴾ في الآخرة يوم لقائك الكريم ﴿ مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي من الباقين المخلدين فيها.

﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي الحائدين عن سبيل الهدى.

﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُخْزِنِى ﴾ أي لا تُذِلَّني ولا تُهنّي، يوم تبعث الخلائق للحساب، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله، وكل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه السلام ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي الناس كافة للحساب والجزاء.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ﴾ جيء به تأكيداً للتهويل، وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء ﴿ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي لا ينفع مال، وإن كان مصروفاً إلى وجوه البر، ولا بنون وإن كانوا صلحاء.

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ عن مرض الكفر والنفاق، ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، أي قُرِّبت الجنة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ للمؤمنين الصالحين المتقين لربهم، قُرِّبت لهم بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، ويعرفون بأنهم المحشورون إليها، فتفتح لهم أبوابها، وتُقرَّب منهم ليشاهدوها، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مفتَّحَةً لَهُمُ الأبوابُ﴾.

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي الضالين عن طريق الحق، الذي هو الإيمان والتقوى، أي جعلت بارزةً لهم، بحيث يرونها مع ما فيها من الأحوال الهائلة، ويوقنون أنهم مواقعوها.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ في الدنيا.

﴿ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم في هذا الموقف؟ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾؟ بدفعه عن أنفسهم؟ وهذا سؤال تقريع وتبكيت، ولا يتوقع لهم جواب ولذلك قيل:

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا ﴾ أي أُلقوا في الجحيم على وجوههم، مرةً بعد أخرى، والكبكبة تكرير الكبِّ، لتكرير معناه، كأن من ألقي في النار ينكبُّ مرةً بعد أخرى، حتى يستقرَّ في قعرها ﴿ هُمْ ﴾ أي آلهتهم ﴿ وَالْغَاوُونَ ﴾ وفي تأخير ذكرهم رمز إلى أنهم رأوا آلهتهم المزعومة وهي تهوي إلى قعر الجحيم، ليشاهدوا حالها ومآلها.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ أي الشياطين الذين كانوا يغوونهم، ويوسوسون إليهم، ويحسّنون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ليجتمعوا في العذاب جميعاً، حسبما كانوا مجتمعين على الضلال في الدنيا.

﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي العبدة ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي قالوا معترفين بخطئهم، في انهماكهم في الضلال، متحسرين على أنفسهم، والحال أنهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً.

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ «إنْ» مخفَّفة، أي إن الشأن كنا في ضلال واضح، لا خفاء فيه، ووصفهم له بالوضوح، لإظهار ندمهم وتحسرهم، وبيان عظم خطئهم مع وضوح الحق.

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي تالله لقد كنا في غاية الضلالة، إذ نسويكم أي نَعْدِلكم أيها الأصنام برب العالمين.

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ منهم، والمعنى: وما صدر عنا ذلك الضلال إلا بسبب إضلالهم، والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم وهم رؤساؤهم كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[١] .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٧.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ الحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام الذي يهمُّه ما يهمُّك، أي وليس لنا صديق مخلص الود، ينقذنا من عذاب الله.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ لو للتمني كأنه قيل: فليت لنا كرَّة أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ جواب التمني.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام ﴿ لَآيَةً ﴾ لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم يا محمد، وحي صادقٌ نازل من جهته تعالى، وعظة لمن أراد أن يتبصر بها، ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب، وأحسن تقرير، والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وكمال إشفاقه عليهم، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً، وإيقاظاً لهم، ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع كل هذه البراهين، لم يؤمن أكثر الناس، بل كذَّبوا وجحدوا واستهزؤوا.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تكذيبهم المرسلين، باعتبار إجماع الكل على التوحيد، فمن كذّب رسولاً فقد كذّب سائر المرسلين، ولهذا السرِّ جاء اللفظ بالجمع، مع أنهم كذبوا رسولهم نوحاً.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ إذ ظرف للتكذيب، أي حين قال لهم نوح عليه السلام ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أخوهم في النسب لا في الدين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي ألا تخافون عقاب الله، حيث تعبدون غيره؟.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من جهته تعالى ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم.

﴿ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد، والطاعة لله.

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على نصحي ودعائي لكم إلى الإيمان ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي أجراً أصلاً ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله تعالى، الذي بعثني لهدايتكم.

﴿ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ التكرير للتأكيد، كأنه قال: عرفتم رسالاتي وأماناتي، فاتقوا الله وأطيعوا أمري.

﴿ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ أي الأقلون جاهاً ومالاً.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر، وبناء الأحكام عليها، دون التفتيش عن بواطنهم، والشق عن قلوبهم.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ليست محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفيتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فإنه المطَّلع على السرائر ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب عما أوهمه كلامهم.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كالعلة له، أي ما أنا إلا رسول مبعوث لأنذر المكلفين، وأزجرهم عن الكفر والمعاصي، فكيف يتسنى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ من المرميين بالحجارة، قالوه في آخر الأمر، فعند ذلك حصل اليأس.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ أي كذبوني ولم يؤمنوا بي، وأصرُّوا على ذلك، ولم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً.

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ أي احكم بيننا بما يستحقه كلٌّ منا، واحكم بيننا بحكمك العادل، والفتَّاحُ: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من إجرامهم ومن شؤم أعمالهم.

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ حسب دعائه ﴿ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي المملوء بهم، وبما لا بدَّ لهم منه من الطعام، واللباس، وأنواع الحيوان.

﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ أي بعد إنجائهم أغرقنا الباقين من قومه.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ* إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ* فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تصدير القصص به، للتنبيه على أن مبنى البعثة، هو الدعاءُ إلى معرفة الحقِّ والطاعة، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع.

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي مكان مرتفع من الأرض، وقيل بكل طريق، والرِّيعُ بالكسر: الطريق، والمكانُ المرتفع ﴿ ءَايَةً ﴾ أي بناءً شامخاً هائلاً كالعَلَم، للمباهاة والفخر، ولمجرد اللهو واللعب، وإظهار الجَلَد والقوة؟ ولهذا قال بعده ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي ببنائها، أو بناءً يجتمعون إليه، ليعبثوا بمن مرَّ عليهم في الطريق، إلى هود عليه السلام.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أي قصوراً مُشيَّدةً، وحصوناً تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا، عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تُحْكِمون بنيانها.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم ﴾ أي أخذتم أخذ العقوبة ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي متسلطين، غاشمين، بلا رأفة ولا نظر في العاقبة، أي أنهم مع ذلك السَّرف، والحرص، فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، فدلَّ ذلك على أنَّ حب الدنيا استولى عليهم، بحيث خرجوا عن حد العبودية، وهاموا حول ادعاء الربوبية، وطَغَوْا وفجروا.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ واتركوا هذه الأفعال، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، فإنه أنفع لكم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ من أنواع النعماء، أجملها أولاً ثم فصَّلها بقوله:

﴿أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير.

﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين وأنهار جارية.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم وَلَئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد﴾.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾.

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا وعظك وتذكيرك وعدمه، فإنا لن نرعوي عما نحن عليه، ومرادهم المبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه ونصحه.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به، وتدعونا إليه ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي عادتهم، كانوا يُلفِّقون مثله ويسطرونه، وقد سمعنا مثل هذا مراراً وتكراراً، أننا سنموت ثم نحيا، وما هذه إلا خرافات وأباطيل الأولين.

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحن من الأفعال، فلا بعث ولا حساب، ولا جزاء ولا عذاب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي أصرّوا على ذلك ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بسببه بريح صَرْصَر عاتية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي ومع هذه البراهين القاطعة، لم يؤمن أكثر الناس، لشدة عتوهم وضلالهم.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذه كلمة كل رسول، يذكِّر بها قومه، بالغاية من بعثته ورسالته.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ﴾ أي في الدنيا ﴿ آمِنِينَ ﴾ إنكار ونفي لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة، والمعنى أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلَّدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا على الدوام.

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾ أي في بساتين وعيون جارية، وسهول فسيحة، فيها أنواع الزروع والنخيل؟ والهضيمُ: اللَّيِّنُ اللطيفُ الثمر وطلع هضيم: دخلَ بعضُه في بعض، والطَّلْعُ بالفتح: ما يطلع من النخلة، ثم يصير ثَمَراً، والغرض توبيخهم على ترك شكر هذه النعم، كأنه يقول: أتُتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء؟.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾.

﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ أي بطرين معجبين بصنيعهم من غير حاجة إلى سكناها؟ وظاهر هذه الآيات، يدل على أن الغالب على قوم صالح عليه السلام، هو اللذات الحالية، وهي طلب المأكول والمشروب، والمساكن الحصينة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي الكبراء المجرمين الذين أسرفوا في العصيان.

﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ بالكفر والظلم، وهم الذين عقروا الناقة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ أي الذين غُلب على عقولهم فيخلطون، والمسحَّر مبالغة من المسحور، الذي أثَّر فيه السحر تأثيراً بليغاً.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾.

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي لست إلا رجلاً مثلنا، فكيف تزعم أنك رسول الله؟ ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي ائتنا بمعجزة تثبت لنا رسالتك، وصحة دعواك.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ ﴾ أي بعد أن أخرجها الله تعالى من الصخرة، بدعائه عليه السلام حسبما مرَّ تفصيله ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ نصيبٌ من الماءِ، تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فاقتنِعُوا بشربكم، ولا تزاحموها على شربها.

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي يهلككم الله عاجلاً.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴾ أسند العقر إليهم كلهم، لما أنَّ عاقرها عقر برأيهم، ولذلك عمَّهم العذاب، وقوله تعالى: ﴿فأصبحوا نادمين﴾ خوفاً من حلول العذاب، لا توبة وندماً، ولذلك لم ينفعهم الندم.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المنتقم من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قد مر الكلام أن تكرار هذه الآيات، للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة.

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) ﴾.

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ ﴾ أي أتأتون الذكور من الناس، مع غلبة النساء وكونهن أليق بالاستمتاع ﴿ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي من بين من عداكم من العالمين، لا يشارككم فيه غير الحيوانات.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ ﴾ من للبيان إن أريد جنس الإناث وهو الظاهر ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أي متجاوزون الحدَّ في جميع المعاصي، وهذا من جملتها، ومتجاوزين حد الشهوة حيث زادوا على الحيوانات بالاستمتاع بالذكور.

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾.

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ ﴾ عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ أي من المنفيِّين من قريتنا، وكانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال.

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ أي من المبغضين أشد البغض، وهو أبلغ من أن يقال: «إني لعملكم قالٍ» لدلالته على أنه من زمرة الراسخين في بغضهم، ولعلَّه أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم، والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ قائلاً.

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤم عملهم، وغائلته.

﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أهل بيته ومن تبعه في الدين، بإخراجهم من بيتهم عند مشارفة حلول العذاب بهم.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ هي امرأة لوط ﴿ فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ من الباقين في العذاب، لأنها كانت مائلة إلى القوم، بقيت في القرية ولم تخرج، فهلكت مع الهالكين.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم أشد هلاك، بقلب ديارهم وقراهم.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ غير معهود، قيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي لمن أنذرهم لوط عليه السلام.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الأيكةُ: الغوطة ذات الأشجار والثمار، وهي بقرب مدين، يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شُعيب عليه السلام، وكان مختبئاً عنهم، ولذا لم يقل تعالى «أخوهم» بل كان من نسيب أهل مدين.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، وما أجري وثوابي إلاّ على الله تعالى.

﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أي أتمّوا الكيل للناس على الوجه الأكمل ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي حقوق الناس بالتطفيف والبخس.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَزِنُوا ﴾ أي الموزونات ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي بالميزان العادل.

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوا شيئاً من حقوقهم، أيَّ حق كان، وهذا تعميم بعد تخصيص، لغاية انهماكهم فيها ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل، والغارة، وقطع الطريق.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي والخلائق الأولين، وهم من تقدم من الخلائق. الجبلة بكسرتين الخليقةُ، والطبيعةُ يُقال: جَبَله الله على كذا، أي فطره عليه.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي المسحورين.

﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال الواو بين الجملتين، للدلالة على أن كلاً من التسحير، والبشرية، منافٍ للرسالة، مبالغة منهم في التكذيب ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعوى النبوة والرسالة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب؛ فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبُه.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من العذاب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي ظلوا على تكذيبه وأصروا عليه ﴿ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ حسبما اقترحوا، وفي إضافة العذاب إلى «يوم الظلة» دون نفسها، إيذان بأن لهم يومئذ عذاب آخر ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي شديد هائل، عظيم في الشدة والهول.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هذا آخر القصص السبع، المذكورة على سبيل الاختصار، تسلية للرسول ﷺ، وتهديداً للمكذبين به، فإن كل هذه القصص ذكر مستقل متجدّد النزول قد أتاهم من جهته تعالى، وما كان أكثرهم مؤمنين، بعدما سمعوها، واستمروا على ما كانوا عليه من الضلال، وهذا نهاية الطغيان.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي هذا القرآن المعجز وما ذكر فيه من الآيات الكريمة، الناطقة بالقصص الإلّهي ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي منزلٌ من جهته تعالى، وإنزاله من أحكام تربيته تعالى للعالَم ورأفته بالكل.

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ ﴾.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي أنزله ﴿ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ جبرائيل عليه السلام، فإنه أمين وحيه تعالى، وموصله إلى أنبيائه.

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾.

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أي روحك لأن المعاني الروحانية، تنزل أولاً على الروح، ثم تنتقل منه إلى القلب، لما بينهما من التعلق، أي أثبته في قلبك إثبات ما لا يُنسى كقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وإنما قال: ﴿على قلبك﴾ وإن كان إنما أنزله عليه، ليؤكد به أن ذلك المنزل، محفوظٌ للرسول، متمكن في قلبه، لا يُمحى، ولأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك أودعه الله في قلبه، دون سمعه وسائر حواسه، لأن القلب مكان الحفظ والإدراك ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي أنزله لتنذر الكافرين بما في تضاعيفه من العقوبات لينزجروا عن غيّهم.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ واضح المعنى، لئلا يبقى لهم عذر، ولو نزل بغير لغتهم العربية، لقالوا: ما فائدة كلام لا نعرفه ولا نفهمه؟ فلذلك أنزله الله عزَّ وجل باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيّناً واضحاً، حجة على صدق الرسول الأميّ، فقد كان العرب فرسان البلاغة، وملوك البيان، وجاءهم القرآن بما أخرسهم وأعجزهم عن مجاراته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره، لفي الكتب المتقدمة، للأنبياء السابقين، فإن أحكامه التي لا تحتمل النسخ، من

التوحيد، وما يتعلق بالذات والصفات، مسطورة فيها، وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر، كأنه قيل: أغَفلُوا عن ذلك، ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه لفي كتب الأولين ﴿ أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾؟ أي أن يعرفوه بنعوته المذكورة في كتبهم، ويعرفوا ما أنزل عليه؟ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: بعث أهل مكة إلى اليهود ـ وهم بالمدينة ـ يسألونهم عنه ﷺ فقالوا: إن هذا لزمانُه، وإنّا لنجد في التوراة نعتَه وصفتَه.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ ﴾ أي القرآن كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴾ الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية، فقرأه على كفار مكة، قراءة صحيحة فصيحة لما آمنوا، والآية لبيان تماديهم بالمكابرة والعناد.

﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع إعجاز القرآن بانضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لفرط عنادهم ومكابرتهم.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أي أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه خارج عن القُوى البشرية، من حيثُ النظمُ المعجزُ، ومن حيث الإخبار عن الغيب، وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب، على تضمنها للبشارة بإنزاله، وبعثة من أُنزل عليه بأوصافه.

﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ مسوق لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور، الداعية إلى الإيمان به، بل يستمرون على ما هم عليه، حتى يروا العذاب الأليم، الملجىء إلى الإيمان به، حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾.

﴿ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ بإتيانه.

﴿ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

﴿ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴾ تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال، لتلافي ما فرَّطوا في جنبه.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ بقولهم تارة: ﴿أَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وتارة بقولهم: ﴿ائتنا بما تعدنا﴾ أي أفيكون حالهم كما ذُكر من الاستنظار، عند نزول العذاب، فيستعجلون بعذابنا؟ وبينهما من التنافي ما لا يخفى،

لأنهم كانوا يستعجلون العذاب في الدنيا، وعند نزول العذاب في الآخرة، يطلبون النظر والإمهال.

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ أي أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له ﴿ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار، وطيب المعاش.

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ أي أيَّ شيءٍ أغنى عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ أي كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد؟ والاستفهام للإنكار والنفي[1].

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ من القرى المهلكة ﴿ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ قد أنذروا أهلها، إلزاماً للحجة.

﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

---

(١) معنى الآية الكريمة: أرأيت إن متعناهم تلك السنين الطويلة، مع وفور الصحة، ورغد العيش، ثم جاءهم العذاب الذي وعدوا به، ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟.

﴿ذِكۡرَىٰ﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكرة، وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم، وأعذرنا إليهم ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتعبير عنه بذلك، لبيان كمال نزاهته تعالى عن الظلم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردٌّ لما زعمه الكفرة، في القرآن الكريم، من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة، بعد تحقيق الحق، ببيان أنه نزل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ أي ما يصحُّ وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢﴾.

﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾ أي الشياطين عن سماع كلام الملائكة ﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة، في صفاء الذات، والاستعداد لقبول فيضان نور الحق، كيف لا ونفوسهم ظلمانية شريرة، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم، المنطوي على الحقائق الرائقة، التي لا يمكن تلقّيها إلاّ من الملائكة.

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾.

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾ خوطب به الرسول ﷺ، مع

استحالة صدور المنهي عنه عنه ﷺ تهييجاً، وحثاً على ازدياد الإخلاص، ولطفاً لسائر المكلفين، ولأن من شأن الحكيم، إذا أراد أن يؤكد الخطاب، يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود هم الأتباع.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْ﴾ العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب منهم، فالأقرب، لأن الاهتمام أولاً بشأنهم أهم، روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عَدِي، لبطون من قريش، حتى اجتمعوا فقال ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقِيَّ؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، فقال: فإني نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد، فقال أبو لهب تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تبت يدا أبي لَهَبٍ وتبَّ﴾»[1].

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليِّنْ جانبك لهم، وتواضع، مستعارٌ من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن ينحطَّ، خفضَ جناحه، والمراد تواضع لأتباعك المؤمنين.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٨٥ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠٨ باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ لم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مما تعملونه من الكفر والإجرام.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي الذي يقدر على قهر أعدائه، ونصر أوليائه، يكفيك شرَّ من يعصيك.

﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التهجد في ظلمة الليل.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي ويرى حركاتك مع المصلين في الجماعة في قيامك، وركوعك، وسجودك.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لما تقوله ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما تخفيه.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾؟ أي هل أخبركم على من تتنزل الشياطين؟ وهذا ردٌّ عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين.

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي تتنزّل على كل كذّاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ، منزّهةً عن أن يحوم حولها، شائبةُ شيء من تلك الأوصاف، اتّضح استحالةُ تنزلهم عليه ﷺ.

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي الأفاكين، يُلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم أوهاماً وأباطيل، لا حقيقة لها، فيضمُّون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة، خرافاتٍ لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ أي فيما قالوه من الأقاويل، ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة.

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حقّ القرآن الكريم، من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ﷺ، بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يُلقي الشيطان على الكهنة، والمعنى: إن الشعراء ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ﴿الغَاوُونَ﴾ الضالون عن السنن، الجائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرُّون على وتيرة واحدة، في الأقوال والأفعال والأحوال.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال يهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيل معين بل يتحيرون، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية، والقدح في الأنساب الطاهرة، والتفريط في المدح والهجاء، وكما قيل: أعذب الشِّعر أكذبُه.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفاعيل، غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم، فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم، من اتصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلَّق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وهو النبي المعصوم محمد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه؟.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد، والثناء على الله تعالى، والحث على طاعته، والحكمة والموعظة الحسنة، ولو وقع منهم في بعض الأوقات ذمٌّ وهجوٌ، وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم. روى الشيخان عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «اهج المشركين، فإنَّ جبريل معك»[1] وروى البخاري عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكمة»[2] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤٥٣ في الأدب ومسلم رقم ٢٤٨٦ في فضائل الصحابة «باب فضل حسان».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ١٠/٤٤٥، وأبو داود رقم ٥٠١٠ باب ما جاء في الشعر.

رسول الله ﷺ وينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس، ما نافح عن رسوله»[1].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لما في ﴿سيعلم﴾ من تهويل وفي ﴿الذين ظلموا﴾ من الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ من الإبهام والتهويل، أي أيَّ مرجع يرجعون إليه؟. يعني أن الذين ظلموا أنفسهم، وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون إليه؟

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء»

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠١٥، والترمذي رقم ٢٨٤٩ باب ما جاء في إنشاء الشعر، وروى بعضه البخاري وانظر جامع الأصول ٥/ ١٧٤.



مكية وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ①﴾ .

﴿طسٓ﴾ بالتفخيم، والكلامُ فيه كالذي مرَّ في نظائره[1] ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى نفس السورة، لأنها التي نوهت بذكر اسمها، أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد، هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَكِتَابٍ﴾ أي كتاب عظيم الشأن ﴿مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر إعجازه وصحته، موضّح لما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام، أبان الله فيه الأحكام، وهدى الأنام.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ②﴾ .

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الآيات، مصدرانِ أُقيما مقام الفاعل للمبالغة، كأنهما نفس الهدى والبشارة، أي هادية ومبشرة لهم، تزيدهم

---

(١) أن المراد بالحروف المقطعة، هو الإشارة والتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، فهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وانظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.

هدى، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة مادحة لهم ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات، هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم، فإن تحمل المشاق في العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ بيان لأحوال الكفرة، أي الذين لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع، محبوبة للنفس كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1] كما ينبىء عنه قوله ﷺ: «حُفت النارُ بالشهوات»[2] ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتحيرون ويترددون في الاشتغال بها، من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بالكفر والعَمَه ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي

---

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

(٢) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٢ ولفظه «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» وأخرجه البخاري في الرقاق ١١/٢٧٤ بلفظ «حجبت الجنة بالمكاره وحُجبت النار بالشهوات».

في الدنيا، كالقتل، والأسر ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي أشد الناس خسراناً، لفوات الثواب، واستحقاق العقاب.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أكَّده بحرفيّ التأكيد، «إنَّ» و «اللاَّم» لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي لتُعطاه بطريق التلقية والتلقين ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أيْ أيِّ حكيم، وأيِّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيصٌ على علوّ طبقته ﷺ، ومعرفته، والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإنَّ من تلقى العلوم والحكم، من مثل ذلك الحكيم العليم، يكون علمه في رصانة العلم والحكمة، وهذه الآية كالتمهيد لما يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ عند مسيره من مدين إلى مصر، في وادي طوى، وقد غشيتهم ظلمة الليل، فبدا له من جانب الطور نار ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق، وقد كانوا ضيَّعوه وقوله: ﴿لأهله﴾ يدل على أنه لم يكن مع موسى غير أهله، والجمع للتعظيم مبالغة في التسلية ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة، أي مأخوذة من أصلها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها، وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء، وهذا لا يكون إلاّ في برد شديد.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ ﴾ أي من جانب الطور ﴿ أَنۢ بُورِكَ ﴾ أي قُدِّس وجُعلت فيه البركة والخير ﴿ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي من في مكان النار، وهي البقعة المباركة المذكورة، في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الوَادِي الأَيمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ﴾[1] والمراد بمن في النار الملائكةُ، ومن حول مكانها موسَىٰ عليه السلام ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي ومن حول مكانها، وتصدير الكلام بذلك، بشارة بأنه قد قُضِيَ له أمر عظيم، تنشر بركاته في أقطار هذه البقعة، وقيل هذه تحية من الله تعالى لموسى بالبركة ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك، أي تقدَّس وتنزَّه الرب الجليل، العليُّ الشأن، رب الخلائق أجمعين، وسأل موسى من المنادي فجاءه الجواب.

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾.

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ذكرُ «العزيز» و«الحكيم» تمهيد للمعجزات التي سيظهرها الله على يديه، أي أنا القوي القادر، الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة، ودقةٍ فائقة.

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ ﴾.

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي نودي أن بورك، وأن ألق عصاك ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ هناك محذوف، كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حية تسعى، فلما أبصرها متحركة بسرعة ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ أي حية خفيفة سريعة الحركة ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي ولم يرجع على عقبه بعد الفرار، وإنما اعتراه

(١) سورة القصص، آية: ٣٠.

الرعب، لظنه أن ذلك لأمر أُريد به، كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أي أقبلْ ولا تخف لأنك بحضرة قدسي ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا يخافون حين يُوحى إليهم، لأنهم رسلي الذين اصطفيتهم، فإنهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤونه تعالى، لا يخطر ببالهم خوف من أحدٍ أصلاً، وأما في سائر الأحيان، فهم أخوف الناس منه سبحانه وتعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استثناءٌ منقطع، أي لكنْ من ظلم من سائر الناس وارتكب ذنباً، فإنه يخاف، إلا إذا تاب وبدَّل عمله السيِّيء بالعمل الحسن، فإن الله تعالى عظيم المغفرة، وواسع الرحمة له، نبهه تعالى على أنَّ من آمنه الله بالنبوة، لا ينبغي أن يخاف من أحد، لا من جبَّار ولا من حية.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي آفة كبرصٍ ونحوه ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي ضمن تسع معجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلاً إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال أي خارجين عن حد الطاعة والإيمان، إلى الكفر والطغيان.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات، وظهرت على يد موسى عليه السلام ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بيِّنةً واضحة، اسم فاعل أُطلق على

المفعول، إشعاراً بأنَّ وضوحها ظاهر، كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يُبصر ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي واضح سحريتها.

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أي كذَّبوا بها ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ ﴾ الواو للحال، أي وقد استيقنتها أي علمتها ﴿ أَنفُسُهُمْ ﴾ علماً يقينياً ﴿ ظُلْمًا ﴾ أي ظلماً من أنفسهم حيث سموها سحراً ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أي استكباراً عن الإيمان بها ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي انظر بعين الاعتبار، نهاية أولئك الطاغين، من الإغراق ثم الإحراق.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ ﴾ أي لقد أعطينا داود وابنه سليمان عليهما السلام، علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، علم كلام الطير، والنمل، والدواب، وخصصناهما بخصائص جليلة من تسخير الإنس والجن والشياطين، ووهبناهما مع النبوة المُلك، فضلاً منا ونعمة، أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم، من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص بكل منهما ﴿ وَقَالَا ﴾ أي كل منهما شكراً لما أُوتيه من العلم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي فُضِّلنا بما أُوتينا من العلم، على كثير من الخلق، وفيه دليلٌ على فضل العلم، وشرف أهله، حيث شكرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من المُلْك، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى، على ما آتاهم

من فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنهم وإن فُضِّلوا على كثير، فقد فُضِّل عليهم كثير، وفوق كل ذي علم عليم.

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أي ورثه النبوة والعلم، دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر ﴿ وَقَالَ ﴾ تشهيراً لنعمة الله بذكر المعجزات التي أوتيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ المنطقُ: كل ما يُصوِّت به، يقال: نطقتِ الحمامةُ، وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم بأصواته، والذي علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير، هو ما يفهم بعضه من بعض، أي عُلِّمنا فهْمَ ما يقوله كلُّ طائر، وعرفنا صوت كل حيوان، حكي أنه عليه السلام مرَّ ببلبل يشدو ويرقص، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله أعلم! قال: يقول: أكلتُ نصف ثمرة، فعلى الدنيا العَفَاءُ، أي الانقراض والفناء، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تَدِينُ تُدان، وصاح خُطَّاف فقال: يقول: قدِّموا خيراً تجدوه، والمراد بكل شيء كثرةُ ما أُوتي، وقال ابن عباس رضي الله عنه: كل ما يهمُّه من أمور الدنيا ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي هو فضل وإحسان من الله تعالى واضح علينا، قاله شكراً لا فخراً.

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ أي جُمع له عساكره من الجن، والإنس، والطير، وتقديم الجن في البيان، للإيذان بكمال قوة سلطانه، لما أن الجنَّ عاتيةٌ، بعيدةٌ من الحشر والتسخير ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أوائلهم على أواخرهم، ليكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ واد في الشام كثير النمل، والمراد بالإتيان عليه قطعُه، أي أشرفوا على قطع الوادي واجتيازه ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٌ﴾ جواب إذا كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي، فرَّتْ منهم، فصاحت صيحة نبّهت بها النمل، فتبعها في الفرار، فشبّه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولهذا أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ ولا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق، وفيما عداها العقل والفهم ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهيٌ في الحقيقة للنمل، عن التأخر في دخول مساكنهم، وإن كان بحسب الظاهر نهياً له عليه السلام عن الحَطْم، كقولهم: لا أرينَّك ههنا، أي لا يدوسنكم ويكسرنكم جنود سليمان بأقدامهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون إهلاككم عن عمد، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الإيذاء والظلم فقالت ذلك[1].

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾.

---

(١) نبّهت هذه النملة، ثم حذّرت، ثم اعتذرت بقولها: ﴿وهم لا يشعرون﴾ لأنها علمت أنه نبيٌّ رحيم، لا يصدر منه ومن جنوده الأذى عن عمد، فيالها من نملة ذكية، فقولها: ﴿يا أيها النمل﴾ تنبيه: ﴿ادخلوا مساكنكم﴾ إرشاد: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ تحذير: ﴿وهم لا يشعرون﴾ اعتذار، وهذا غاية الفهم والعقل!! والنمل تعرف كثيراً من منافعها، ومن ذلك أنها تكسر الحبة قطعتين لئلا تنبت، وإذا وصلت النداوة إلى الحبة، تخرجها من جحرها إلى الشمس حتى تجفَّ. فسبحان من ألهمها الفهم والذكاء!!.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ يعني تبسم شارعاً في الضحك، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسم، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم، تبسَّم تعجباً من حذرها، واهتدائها إلى تدبير مصالحها، ومصالح بني جنسها، وابتهاجاً بما خصَّه الله تعالى به، من إدراك همسها، وفهم مرادها ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ أي اجعلني أَزَعُ شكر نعمتك عندي، وأربطه بحيث لا ينفك عني، حتى لا أنفكَّ عن شكرك أصلاً، أدرج فيه ذكر أبويه تكثيراً للنعماء، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجبٌ للشكر ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أي وفقني لعمل الخير والصالحات، إتماماً للشكر، واستدامة للنعمة ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي في جملتهم، أدخلني الجنة التي هي دار الصالحين.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ أي تعرَّف أحوال الطير، فلم ير الهدهد بينها ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ أي ما لي لا أراه ههنا؟ لساترٍ سَتَره؟ ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾؟ أي بل هو غائب ذهب بغير إذني.

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلفه ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ ليعتبر به أبناءُ جنسه ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة تبيِّن عذره، قيل: إنه عليه السلام، لما أتم بناء بيت المقدس، تجهز للحج بجنده، فوافى الحرم، وأقام به ما شاء، ثم عزم على السير إلى اليمن، فوافى صنعاء،

فرآها أرضاً حسنة، فنزل ليصلّي بها، ولم يجد الماء، فكان الهدهدُ رائدَه، لأنه يحسن طلبَ الماء، فتفقَّده لذلك فلم يجدْه.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكث زماناً غير مديد، يريد به الدلالة على سرعة رجوعه، فلما رجع حدَّثه عما لقي في غيبته ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي علمتُ ما لم تعلم، وبلغتُ ما لم تبلغ أنت ولا جنودك، ولاخفاء في أنه لم يرد الإحاطة بحقائق العلوم، حتى يكون إثباتها لنفسه، بين يديْ نبيٍّ الله تجاوزاً عن دائرة قدره، بل أراد به الأمور المحسوسة، التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة، والغفلة عنها نقيصة، لعدم توقف إدراكها على العلم، بل على مجرد الإحساس وقد علم أنه عليه السلام لم يشاهده، فعبَّر عنه بما ذكر، لترويج كلامه عنده، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي بخبرٍ خطيرٍ محقَّق، فسَّر إبهامه، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له، حيث عبَّر عنه بالنبأ، الذي هو الخبر الخطير، و«سبأ» اسم لحيٍّ سمُّوا باسمِ أبيهم الأكبر، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، ثم أنشأ يخبره عما رأى من عجائب فقال:

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك، وكان أبوها ملك اليمن، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على المُلْك، ودانت لها الأمة، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس

والكواكب ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من الجند، والخيل، والمال ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي لها سرير ضخم مكلل بالدر والياقوت، واستعظامُ الهدهد لعرشها، مع ما كان يشاهده من ملك سليمان، لما مرَّ من ترغيبه في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيه عزيمته عليه السلام لقتالها، ولذلك عقَّبه بما يوجب غزوها، لكفرها وكفر قومها، حيث قال:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ أي يعبدون الشمس ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي يعبدون ويسجدون لها من دون الله ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ التي هي عبادة الشمس وسجودهم لها، والسير في طريق الضلال ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿ فَهُمْ ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان ﴿ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ أي لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً:

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ أي أيسجدون للشمس، ولا يسجدون لله الخالق العظيم؟ ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي يُظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، وهو يتناول جميع الأرزاق، والأشياء، وتخصيصُ هذا الوصف بالذكر، لما أنه أرسخ في معرفته تعالى، والإحاطة بكمال القدرة والعلم، بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودع الله في الهدهد من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض، والخَبْءُ: ما خفي في غيره، وإخراجه: إظهاره ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ويعلم السرَّ والعلن، لا تخفى عليه

خافية، إلى أنه تعالى يخرج ما في الإنسان من الخفايا، كما يخرج ما في العالم من الخبايا، وإلى هنا انتهى حديث الهدهد.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴾؟ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش العظيم، الذي أحاط بالكرسي وبالسماوات والأرض، المستحق للعبادة والسجود، فكيف يتركون عبادة هذا الخالق، العظيم الشأن، إلى عبادة الشمس من دون الله؟ وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، فهو أعظم من السماوات والأرض وما بينهما، وإذا كان الكرسي قد أحاط بالسماوات والأرض بنص القرآن الكريم ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ وهو بالنسبة إلى العرش كحلقةٍ ألقيت في صحراء، لا يعلم مداها إلا الله، فكيف بالعرش العظيم؟ ولهذا وُصف بالعظيم في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾؟

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ فيما ذكرتَه من النظر بمعنى التأمل أي سنتعرَّف بالتجربة ﴿أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؟ هل أنت صادق أم كاذب فيما تقول؟ ومساق هذه الأقاويل على ترتيب أنيق، يستميل قلوب السامعين، فكتب سليمان عليه السلام كتاباً إلى بلقيس ملكة سبأ، ثم دفعه إلى الهدهد، وقال له:

﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا ﴾ أي اذهب بهذا الكتاب، وأوصله إلى ملكة سبأ

وجندها، وتخصيصُه إياه بالرسالة، دون غيره من أبناء الجن الأقوياء، لما عاين فيه من مخايل العلم والفراسة، ولئلا يبقى له عذرٌ أصلاً ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنحَّ إلى مكان قريب، تتوارى فيه ﴿فَانْظُرْ﴾ أي تأمل وتعرَّفْ ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وصورة الكتاب «من عبد الله سليمان بن داود، إلى ملكة سبأ، بسم الله الرحمٰن الرحيم، السلام على من اتَّبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ وائتوني مسلمين» وطبعه بالمسك وختمه.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾.

﴿قَالَتْ﴾ أي بعدما ذهب الهدهد بالكتاب، فألقاه إليها، وتنحى عنهم حسبما أُمر به، وإنما طوى ذكره إيذاناً بكمال مسارعته إلى ما أمر به وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره، روي أنه وجدها راقدة في قصرها، وغلِّقت الأبواب، فدخل في كوة، وطرح الكتاب على نحرها، فانتبهت فزعة، وكانت قارئة، فلمَّا رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، فعند ذلك قالت لأشراف قومها ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لكونه من عند ملك كريم.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ استئناف وقع جواباً لسؤال مقدَّر، كأنه قيل: ممن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنه من سليمان ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي مكتوب فيه.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾.

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي لا تتكبروا عليَّ كما يفعل جبابرة الملوك ﴿وَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ ﴾ أي مؤمنين، مستسلمين لدعوة الله، وهذا الكلام في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، وكذلك جميع كتب الأنبياء، لأنهم أُعطوا بياناً وحكمة، والمعنى: لا تمتنعوا من الإجابة، فإنَّ تركها من العلوّ والتكبر.

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى ﴾ أي أجيبوني في أمري الذي قد أهمني، وعبَّرت عن الجواب بالفتوى، تهويلاً للأمر ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ أي من الأمور المتعلقة بالملك ﴿ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أي إلاَّ بمحضركم قالت ذلك استمالةً لقلوبهم، لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ في جوابها ﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ ﴾ في الأجساد، والآلات، والعدد ﴿ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدة وشجاعة في الحرب ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أي هو موكولٌ إليك ﴿ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾؟ نكن في الخدمة مطيعين لأمرك، فلما أحسَّت منهم الميل إلى الحرب، شرعت في تزييف مقالتهم، المبنية على الغفلة عن شأن سليمان ﷺ.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ﴾ من القرى عنوة على منهاج الحرب

﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ بالقتل، والأسر، والطرد من الوطن وغير ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصف من حالهم، بأن ذلك من عاداتهم المستمرة.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ تقرير لرأيها، بعدما زيَّفت آراءهم، أي وإني سأرسل إليهم رسولاً بهدية ﴿فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، كانت بلقيس امرأةً لبيبة عاقلة، قد ساست الأمور وجربتها فبعثت «منذر بن عمرو» وضمَّتْ إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي، وأرسلت معهم هدية ثمينة، جارية وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وقالت: إن كان نبياً ردَّ الهدية ولم يأخذها، ولم نأمنه على بلادنا، وإن كان مَلِكاً أخذ الهدية وسكت.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ أي الرسول ﴿سُلَيۡمَٰنَ قَالَ﴾ مخاطباً للرسول، والمرسِلِ، تغليباً للحاضر على الغائب، وتعميمها لبلقيس وقومها، مع تشديد الإنكار ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ وهو إنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه، وسعة سلطانه، أي أتصانعوني وتغرونني بالمال؟ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مما رأيتم آثاره من النبوة والملك ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي من المال الذي أعطاكم إياه، فلا حاجة لي إلى هديتكم ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الأموال، إلى التوبيخ بفرحهم فرح افتخار وامتنان، أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ ٱرْجِعْ ﴾ أيها الرسول ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ ﴾ أي من سبأ ﴿ أَذِلَّةً ﴾ أي حال كونهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أي أسارى مُهانون.

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام لمَّا دنا مجيء بلقيس إليه، يروى أنه لما رجعت رسلها إليها، وأخبروها بما ردَّ عليهم سليمان، قالت: قد علمتُ والله ما هذا بمَلِك، ولا لنا به من طاقة، وبعثتْ إلى سليمان: إني قادمة إليك بعظماء قومي حتى أنظر ما أمرك؟ فأراد عليه السلام أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾؟ أي قال سليمان لأشراف من حضره من جنده، أيكم يأتيني بسريرها المرصَّع بالجواهر، قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين؟ وأراد بذلك إطلاعها على بدائع المعجزات، في أول مجيئها.

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أي قال مارد من مردة الجن ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي من مجلسك للحكومة، وكان يجلس للحكومة، إلى نصف النهار، أي أنا آتي به في أقل من نصف نهار ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ ﴾ لا يثقل عليَّ حمله ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه من الجواهر والنفائس.

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي قال بعض الصالحين من أتباع سليمان، وهو «آصف بن برخيا» وكان رجلاً صدِّيقاً يقرأ الكتب الإلَهية، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب: أنا آتيك بعرشها [1] قبل تحريك جفنك للنظر إلى شيء، وهذا غاية في الإسراع ومَثَلٌ فيه، ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة استغنى عن التأكيد، وطوى ذكر الإتيان به، وجيء بالفاء الفصيحة حيث قيل ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أي رأى العرشَ حاضراً لديه، ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ أي حضور العرش في المدة القصيرة ﴿ مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ [2] أي تفضله عليَّ من غير استحقاقٍ مني ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ ﴾ أي ليختبرني أأشكر إنعامه، وأقوم بحقه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أم أجحد فضله وإحسانه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي منفعة الشكر لنفسه، لأنه يستجلب به المزيد كما قال سبحانه: ﴿لئن

---

(١) فإن قيل: كيف قدر على الإتيان بالعرش مع أنه غير نبي؟ الجواب يجوز أن يُخصَّ غيرُ النبي بكرامة، كما خُصت مريم، بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وزكريا لم يُرزق منها، ولم يلزم من ذلك فضلها على زكريا، مع أن كرامة التبع من جملة كرامة المتبوع.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٦٧٢: ومن ههنا يظهر أن سليمان عليه السلام أراد بإحضار هذا السرير، إظهار عظمة ما وهب الله له من المُلك، وما سخَّر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحدٍ من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها، قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، قال آصف كاتب سليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فإذا هو حاضر عنده. اهـ.

شكرتم لأزيدنكم﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة، وبالإنعام عليه مع ترك الشكر، ولمَّا قرُب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تُغيِّر بعض ملامح عرشها امتحاناً لها.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١)﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿نَكِّرُوا۟﴾ أي غيِّروا هيئته بوجهٍ من الوجوه ﴿لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟ أي أم لا تهتدي إلى معرفة عرشها الذي نقلناه، وأراد بذلك اختبار عقلها وذكائها.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ بلقيسُ سليمان، عليه السلام، وقد كان العرشُ بين يديه ﴿قِيلَ﴾ من جهة سليمان بالذات، أو بالواسطة ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ لم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، من مغايرة بعض صفاته مع اتحاد الذات ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فأنبأت عن كمال فهمها، ورجاحة عقلها، حيث لم تقل: هُوَ، هُوَ ولم تقطع وتجزم بأنه غيره ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من تتمة كلامها، كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها، وإظهار معجزة لها، فقالت: أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك، من قبل هذه المعجزة، التي شاهدناها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من ذلك الوقت[١]، وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ما لا يخفى.

---

(١) هذا القول مرجوح، والأصح والأظهر ما قاله مجاهد، أنه من قول سليمان عليه السلام، أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة، العلمَ بالله =

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَصَدَّهَا ﴾ أي صدَّها ومنعها من التقدم إلى الإسلام، عن عبادتها القديمة للشمس ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهي بين ظهرانيهم، إلى أن دخلت تحت ملك سليمان.

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ﴾ وهو القصر الفخم، وكلُّ بناءٍ عالٍ مرتفع يسمى صرحاً، أي قيل لبلقيس: ادخلي هذا القصر المنيف المشيد، روي أنه عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيها السمك ونحوه، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماءً ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ أي ظنته لُجَّة ماء، ـ أي ماءً غمراً كثيراً ـ وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه لئلا تبتل أذيالها ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ ما توهمته ماءً ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مملس مسوًى ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أي من الزجاج، والقارورة: إناء من زجاج جمعها قوارير ﴿ قَالَتْ ﴾ حين عاينت تلك الخارقة ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ بما كنت عليه من الشرك بعبادة الشمس ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ تابعة له، فدخلت في الإسلام، كما أسلم سليمان

= وبوحدانيته وقدرته، وكنا مسلمين لله قبلها، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً، وهي كانت قد صدَّها ومنعها من عبادة الله وحده، ما كانت تعبد من دون الله لأنها كانت من قوم كافرين، وهذا ما اختاره شيخ المفسرين ابن جرير، والحافظ ابن كثير، قال: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح. اهـ.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وصفه بالربوبية لإظهار تفرده تعالى لاستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب وهو نبي الله صالح عليه السلام، يدعوهم إلى الله، وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله رب العالمين، الذي لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ففاجئوا التفرق والاختصام، حيث آمن فريق، وكفر فريق.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم، بعدما شاهد منهم نهاية العتو والعناد ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي لمَ تستعجلون بالعقوبة السيئة، فتقولون ائتنا بما تعدنا؟ ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قبل التوبة فتأخرونها إلى حين نزول العذاب؟ وقد كانوا لجهلهم يقولون: إن وقع إيعاده، تُبنا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي هلاّ تستغفرون الله تعالى قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول التوبة، إذ لا إمكان للقبول عند نزول عذاب الله.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بك وبأتباعك المؤمنين،

وأصله تطيّرنا أي تشاءمنا، وكانوا قد تتابعت عليهم الشدائد، وأصابهم القحط والجوع حتى كادوا يهلكوا، فلذلك تشاءموا من دعوته ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ أي السبب الذي ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو عملكم السّيِّء المكتوب عنده، فهو سبب شؤمكم لا نحن ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم، ولذلك تقولون ما تقولون!!.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ديار ثمود وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة أشخاص وهم الذين سعَوْا في عقر الناقة، وكانوا عُتاة مغرقين في الإجرام ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، شأنهم الإفسادُ وإيذاء العباد، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الإصلاح، وبعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي قال بعضهم لبعض، في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام، وكان ذلك عندما أنذرهم بالعذاب ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي تحالفوا بالله على قتله، مقول لقالوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي لنباغتن صالحاً وأهله ليلاً لنقتلهم، والبياتُ مهاجمة العدو ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي ولي صالح عليه السلام ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي ما حضرنا محل هلاكهم، فضلاً أن نتولى إهلاكهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ من تمام القول أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس: أتوا دار صالح عليه السلام شاهرين سيوفهم ليقتلوه، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ ﴾.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا ﴾ أي دبروا مكيدة لقتل صالح عليه السلام ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم[1] ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من حيث لا يحتسبون.

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ ﴾.

﴿ فَانظُرْ ﴾ أي فتفكر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحِجْر، في شِعْبٍ يصلي فيه، فخرجوا إلى الشِّعْبِ وقالوا: إذا جاء ليصلّي قتلناه، فبعث الله صخرة من الهضاب، فطبّقت الصخرة على فم الشِّعب، فلم يدر قومهم أين هم؟ ولم يدروا ما فُعل بقومهم؟ وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة.

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ ﴾.

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ ﴾ أي خالية وساقطة متهدمة يقال: خَوَت

---

(١) المكر من الله بمعنى الجزاء، أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، سمّاه مكراً بطريق المشاكلة، كقوله سبحانه: ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾ مع أن ردّ العدوان، والانتصاف من الظالم، ليس قبيحاً، فهو مجرد اتفاق في اللفظ مع اختلاف في المعنى، قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٦٧٥: أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، واتفقوا على قتله غِيلةً ليلاً، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. اهـ.

الدارُ، أي خلت من أهلها، وخوت النجوم سقطت ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ من التدمير ﴿لَءَايَةً﴾ أي لعبرة عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتصفون بالعلم والفهم.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي اتقاءً مستمراً فلذا نجوا.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي الفعلة المتناهية في القبح ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حالية لتأكيد الإنكار، فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع، أي تفعلونها والحال إنكم تعلمون بكونها كذلك، وقيل: يبصرها بعضكم من بعض، لما كانوا يعلنون بها.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تكرير للتوبيخ، وبيان لما يأتونه بطريق التصريح ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي متجاوزين النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين بقبحه وعاقبته، أو الجهل بمعنى السفاهة، أي بل أنتم قوم سفهاء، لا تميزون بين الحسن والقبيح.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا ﴾ أي قدّرنا إنها ﴿ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي الباقين في العذاب لأنها كافرة.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء متتابعة، كانت تنزل عليهم كالمطر عند انصبابه، فأهلكناهم بالصيحة والحجارة، فبئس هذا العذاب الذي أمطروا به، وهو حجارة من سجّيل منضود.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ﴾ بعد أن قصَّ الله تعالى على رسوله قصص الأنبياء عليهم السلام، وبيّن على ألسنتهم حقّية الإيمان، وبطلان الكفر، وأن من اقتدى بهم اهتدى، ومن أعرض عنهم تردّى، أمر رسوله محمداً ﷺ بأن يحمده تعالى، على ما أفاض عليه من تلك النعم فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ ﴾؟ أي هل الله الذي ذُكرت شؤونه، الخالق المبدعُ، الحكيمُ، خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها؟ ﴿ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؟ أي ما يشركونه به تعالى من الأصنام والأوثان؟ والغرضُ تبكيتُ الكفرة، وتسفيهُ آرائهم، إذ من البيِّن أنه ليس فيما أشركوا به شائبة خير حتى يوازن بينه وبين من لا

خير إلاَّ خيره، ولا إله غيره، وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله تعالى خيرٌ وأبقى، وأجلُّ وأكرم».

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أم منقطعة، والمعنى: بل أم من خلق السماوات والأرض، وأبدع الكائنات بجميل صنعه، وباهر قدرته؟ ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾ أي لأجلكم ومنفعتكم ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي مطراً ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ أي بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي ذات حسن ورونق، يبتهج به النُّظَّار ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ ﴾ أي ما صحَّ وما أمكن لكم ﴿ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ فضلاً عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾؟ أي أإلَه آخر مع الله حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت آخر لهم، حيث يسوُّون بين الخالق الرازق، والصنم الأصم، ولهذا قال: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي بل قوم عادتهم العدول عن طريق الحق، والانحراف عن الاستقامة.

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾؟ بحيث يستقر عليها الإنسان، والدواب، بإبداء بعضها من الماء، وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم، وجعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ جارية ينتفعون بها ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها معادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلق بها من المصالح ما لا يُحصى

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة، فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد ماء البحار ماء الأنهار ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ في الوجود، وفي إبداع هذه البدائع؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحقَّ فيشركون مع الله غيره، ولا يفهمون أن ما هم عليه من الشرك باطل.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجته شدةٌ من الشدائد، ونوازل الدهر، إلى الضراعة إلى الله تعالى، واللام للجنس، لا الاستغراق، حتى يلزم إجابة كل مضطر ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان مما يسوء، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما بالإنسان من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة، إلا القادر على كل شيء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تتذكرون.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؟ أي في ظلمات الليالي فيهما، في الأسفار والقفار، ومشتبهات الطرق، يقال: طريقة ظلماء وعمياء، للتي لا منار بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وهي المطر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الذي دبَّر أمور هذه العوالم بحكمته، وأبدع خلقها بقدرته؟ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس المنفرد بالألوهية عما يشركون معه من حجارة صماء، لا تسمع ولا تستجيب، وسواء من دحاها أو رجاها.

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾.

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾؟ بعد الموت بالبعث؟ والكفرةُ وإن أنكروا الإعادة، فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾؟ أي بأسباب سماوية وأرضيّة ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾؟ حتى يجعل له شريكاً في العبادة؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾؟ في تلك الدعوى.

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) ﴾.

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بعدما حقَّق تفرده بالألوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة، والرحمة الشاملة، عقبه بذكر اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي متى يُنشرون من القبور، والضمير للكفرة.

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾.

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أصله تدارك ومعناه: تلاحق وتدارك، بمعنى جهلوا علمها، ولا علم عندهم من أمرها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بذلك أصلاً، ثمَّ أضرب عن بيان عدم علمهم، إلى بيان ما هو أسوأ منه، وهو حيرتُهم في ذلك حيث قيل ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ من نفس الآخرة كمن تحيَّر في أمر لا يجد عليه دليلاً، ثم أضرب عن ذلك إلى بيان ما هم فيه أشد وأفظع من الشك، حيث قيل:

﴿عَمُونَ﴾[1] بحيث لا يكادون يدركون دلائلها، لاختلاف بصائرهم بالكلية، وفيه نُكْتة، وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم، فلذلك عدَّاه «بمن» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعماهم عنها، والمراد بهم كفار مكة، ووضعُ الموصول موضع ضميرهم، لذمّهم، والإشعار بعلة حكمهم الباطل في قولهم ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾؟ أي أنخرج من القبور إذا كنا تراباً؟.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي لقد وَعَدنا محمد بالبعث، كما وُعد آباؤنا من قبله في الأزمنة المتقدمة، ثم لم يُبعثوا ولن يُبعثوا، ولو كان البعث حقاً لحصل ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلاّ خرافات وأساطير الأولين، سطَّروها وكتبوها كذباً.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي تفكّروا واعتبروا كيف صار مآل المكذبين المجرمين؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم؟.

---

(١) خلاصة معنى الآية: أن المشركين لا يصدِّقون بالآخرة، وهم شاكُّون في وقوعها ووجودها، بل هم في عماية وجهلٍ كبير بأمرها، فلماذا يسألون عن الساعة، وهم لا يؤمنون ولا يصدِّقون بالآخرة؟.

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ أي في حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم، فإن الله يعصمك من الناس.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴾ أي العذاب العاجل الموعود ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إخباركم بإتيانه، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي تبعكم ولحقكم، واللامُ مزيدةٌ للتأكيد، و«عسى» و«لعل» و«سوف» في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم، كالتصريح ممن عداهم، وعلى ذلك جرىٰ وعدُ الله ووعيدهُ ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي ما تتعجلونه من العذاب.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي لذو إفضالٍ وإنعام على الناس، ومن جملة إنعامه تأخير عقوبة هؤلاء، على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا يعرفون حق النعمة فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفيه قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأفعال والأقوال، التي من جملتها استعجال العذاب، فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، ولكنْ له وقتٌ مقدَّر، وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه، وأنه تعالى يجازيهم على الكل.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾.

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ أي من خافية ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سمِّي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة، وخافية، والتاء للمبالغة، كالعاقبة والعافية ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من الدين، ومن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العتوّ والغلوّ، في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم التناكر في أشياء، كأحوال الجنة، والنار، وعزير، والمسيح، حتى بلغ المشاقة، إلى حيثُ لعنَ بعضُهم بعضاً، وقد نزل القرآن الكريم ببيان الحقائق القاطعة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وإن القرآن لهداية لقلوب أهل الإيمان، ورحمة لهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٨﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أي بين بني إسرائيل ﴿ بِحُكْمِهِۦ ﴾ أي بحكمته وبعدله ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فلا يرد حكمه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بجميع الأشياء.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الذي هذا شأنه ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، والعاقبة لك بالنصر على أعدائك.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالموتى، لا حسَّ لهم ولا فهم ولا عقل، وإنما شُبِّهوا بالموتى، لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ أي الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقييد النفي بقوله تعالى: ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ لتكميل التشبيه، وتأكيد النفي، فإنهم مع صَمَمهم معرضون عن الداعي، مولُّون أدبارهم، فسماعهم في هذه الحالة أبعد.

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أي وليس بوسعك أن تصرف عُمي القلوب عن كفرهم وضلالهم، والآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فإن الاهتداء منوط بصفاء القلب ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تُسمع سماعاً يُجدي السامع نفعاً ﴿ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي إلا من يصدِّق وينقاد لأمر الله، ويؤمن بآياته ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون لله جلَّ وعلا من قوله سبحانه: ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ أي أخلص في إيمانه وعمله.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ المراد بالقول: مجيء الساعة، وما فيها من الأهوال، التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه: قيامها وحصُولُها وقد يراد بالوقوع دنُوُّها، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا دنا وقَرُب وقت قيام الساعة، وظهرت أمارات القيامة، التي كانوا يكذبون بها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الجسَّاسة، وفي التعبير عنها باسم الجنس، وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي ﴿دَآبَّةً﴾ من الدلالة على غرابة شأنها، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوعَ الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، أو خاصَّةَ أحدكم، أو أمرَ العامة»[1] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الآيات خروجاً، طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثْرِها قريباً[2]» ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي تكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله، الناطقة بمجيء الساعة، قيل: تكلمهم بالعربية الفصحى، بلسان عربي فصيح فتقول: ألا لعنةُ الله على الظالمين، الذين لا يؤمنون بآيات الله، وتكلِّمهم ببطلان الأديان، سوى دين الإسلام، ووصفُهم بعدم الإيقان، مع أنهم كانوا جاحدين بها، للإيذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها، ويعتقدوا بصحتها.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في كتاب الفتن.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤١ في الفتن أيضاً وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣١٠.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ المراد بهذا الحشر، هو الحشر للعذاب، بعد الحشر لكافة الخلق، أي واذكر لهم وقت جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام، جماعة كثيرة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي فوج المكذبين بها ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا في موقع التوبيخ والمناقشة.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ أي إلى موقف السؤال ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى موبخاً لهم ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى ﴾؟ الناطقة بلقاء يومكم هذا؟ ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾؟ جملة حالية مؤكدة للإنكار، أي أكذبتم بها بادي الرأي، غير ناظرين فيها نظراً، يُؤدّي إلى العلم بكنهها؟ وهذا نص في أن المراد بالآيات فيما سلف، هي الآيات القرآنية، لأنها منطوية على دلائل الصحة، وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علماً ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أم أيَّ شيءٍ كنتم تعملون في الدنيا؟ كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والتكذيب، مع أنهم ما خلقوا إلا للإيمان والطاعة، يُخاطبون بذلك تبكيتاً، ثم يُكبُّون في النار.

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ أي حلَّ بهم العذاب، الذي كانوا ينكرونه ﴿ بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ أي بسبب ظلمهم، وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ باعتذار، لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغلٍ من العذاب الأليم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الرؤيةُ قلبية لا بصرية، أي ألم يعلموا أنَّا جعلنا الليل، بما فيه من الإظلام ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي ليستريحوا فيه بالنوم والقرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي ليبصروا بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في جعلهما كما وُصفا ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ كثيرة عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دالة على صحة البعث، وصدق الآيات الناطقة به، دلالةً واضحة، كيف لا، فإنَّ من تأمَّل في تعاقب الليل والنهار، وشاهد تبدل الظلمة المحاكية للموت، بضياء النهار المضاهي للحياة، قضى بأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، وخصَّ المؤمنين بالذكر ﴿لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بتلك الدلائل الكونية.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ نفخة الفزع[1] ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المراد به ما يعتري الكلَّ عند البعث، بمشاهدة الأمور الهائلة، من الرعب والهول، أي لا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلاَّ خاف وفزع، وإيراد الماضي (ففزع) للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يفزع من الملائكة، والأنبياء، والشهداء ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل واحد من المبعوثين عند النفخ ﴿أَتَوْهُ﴾ أي حضروا الموقف للسؤال ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي صاغرين، ذليلين.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٦٨٤: وهذه «نفخة الفزع» ثم بعد ذلك «نفخة الصعق» وهو الموت، ثم بعد ذلك «نفخة القيام لرب العالمين» وهو النشور من القبور لجميع الخلائق. أ هـ وعلى هذا القول يكون النفخ في الصور ثلاثاً، والله أعلم.

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ وقت النفخة ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي ثابتة في مكانها، من جَمَدَ في مكانه إذا لم يبرحه ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أي في السرعة، تراها رأي العين ساكنة والحال أنها تمرُّ مرَّ السحاب، تسيِّرها الرياحُ سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركاتها، وهذا ممَّا يقع بعد النفخة الثانية، عند حشر الخلق، ليشاهدها أهل المحشر[1]، وهي وإن اندكت وتصدَّعت عند النفخة الأولى، لكنْ تسييرها بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفَاً فَيَذَرُهَا قَاعَاً صَفْصَفَاً لاَ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾[2] ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أي صَنَعَ الله ذلك صُنْعاً ﴿ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أحكم خلقه، وسوَّاه على ما تقتضيه الحكمة، المستتبعة للغاية الجميلة ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعليل لكون ما ذكر صنعاً محكماً له تعالى، ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها،

---

(١) في هذا القول نظر، والصحيح أن هذا إنما يكون في الدنيا لا في المحشر، فالآية الكريمة تشير إلى إبداع الله في صنعه وتدبيره، الكواكب، والأرضُ، والشمسُ، والقمرُ، كلها تسبح في هذا الفضاء الواسع، دون أن تنقلب الأرض بمن فيها، أو تصطدم النجوم بعضها ببعض، بدليل قول الله تعالى ﴿كلٌّ في فلك يسبحون﴾ وقوله ﴿صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقنَ كُلَّ شَيءٍ﴾ ففي الآية الكريمة إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهي سبق علميٌّ فريد، لم يعرفه البشر إلاَّ في عصر اختراع المراكب الفضائية، التي دارت حول الأرض، ووصلت إلى القمر، وصوَّرت لنا الأرض وهي تشرق وتغرب عليهم، كما تشرق الشمس وتغرب على سكان الكوكب الأرضي، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية سبق إليها القرآن» ففيه روائع وبدائع تثبت إعجاز القرآن من الناحية العلمية، وسبقه للمكتشفات والمخترعات العصرية.

(٢) سورة طه، آية: ١٠٥ ـ ١٠٧.

وبيان كيفيتها على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزيتها عليها، بعد بعثهم وحشرهم، أي هو تعالى عليم بما يفعل العباد، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي من جاء منكم، يوم القيامة بالحسنة، فله من الجزاء ما هو خير منها، إما باعتبار إضعافها، وإمَّا باعتبار دوامها ﴿ وَهُم ﴾ أي الذين جاؤوا بالحسنات ﴿ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ وهم آمنون لا يعتريهم ذلك الفزع، ولا يلحقهم ضرره أصلاً، وأما الفزع الذي يعتري كل من في السماوات والأرض، فإنما هو التهيبُ والرعبُ في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي والأهوال، فلا يكاد يخلو منه أحد.

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ قيل: هو الشركُ ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي ألقيتْ فيها على وجوههم في النار منكوسين ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أي هل تعاقبون وتنالون جزاءكم؟ على إضمار القول، أي تقول لهم خزنة جهنم ذلك ﴿ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾؟ في الدنيا من سيىء الأعمال.

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ أُمِرَ ﷺ أن يقول بعد

ما بيّن لهم، أحوال المبدأ والمعاد، تنبيهاً لهم على أنه قد أتمَّ أمر الدعوة، بما لا مزيد عليه، ولم يَبْقَ له ﷺ بعد ذلك شأن، سوى الاشتغال بعبادة ربه، غير مبالٍ بهم، ضلوا أم رَشَدوا، والبلدة هي «مكة» المعظمة، وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها، وشناعة ما فعلوا فيها، ألاَ ترىٰ أنها مع كونها محرَّمة، من أن تنتهك حرمتها، باختلاء خلاها، وعضد شجرها، وتنفير صيدها، أنهم قد استمروا فيها على تعاطي أفجر أنواع الفجور، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا فيها الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً، وملكاً، وتصرفاً، من غير أن يشاركه أحد في شيء منها ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي أن أثبت على ما كنت عليه ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الذين أسلموا وجوههم لله خالصة، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾؟.[1]

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أواظب على تلاوته وأن أقرأه على الناس، بطريق تكرير الدعوة، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ حينئذ بالإيمان به والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فإنما منافعُ اهتدائه، عائدةٌ إليه لا إلى غيره ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿فَقُلْ﴾ في حقه ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار، فليس عليَّ من وباله شيءٌ، وإنما وبالُه على نفس المنكر المكذِّب، إذْ ما على الرسولِ إلاَّ البلاغُ المبين.

---

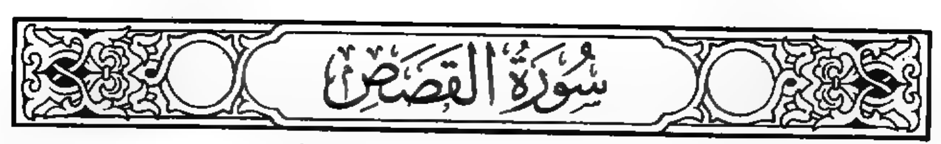
(١) سورة النساء، آية: ١٢٥.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أفاض عليَّ من نعماء، التي أجلُّها نعمةُ النبوة ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي سيريكم في الدنيا آياته الباهرة، التي نطق بها القرآن، كخروج الدابة، وسائر أشراط الساعة ﴿فَتَعْرِفُونَهَاۚ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى، حين لا تنفعكم المعرفة، وقولُه تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلام من جهته تعالى مقرِّرٌ لما قبله، ومتضمنٌ للوعد والوعيد. والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل»

* * *



سورة القصص

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الواضح إعجازه.

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾.

﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ أي نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، لأنه كان يتلوه على الرسول ﷺ حتى يحفظه، ويجوز أن تكون التلاوة مجازاً عن التنزيل ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي بعض نبئها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تخصيصهم بذلك، لأنهم هم المنتفعون به.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تجبر وطغى في أرض مصر، وجاوز الحدود في الظلم ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي فِرَقاً وأصنافاً في استخدامه

وأغرى بينهم العداوة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وذلك أن كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولودٌ، يذهب ملكك على يده، وما ذلك إلا لغاية حمقه، إذ لو صدق فما فائدة القتل؟ وإن كَذَب فما وجهه؟ ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي يترك البنات أحياء للخدمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الراسخين في الفساد.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نتفضل بإنجائهم من بأسه ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدىٰ بهم في أمور الدين، بعد أن كانوا أتباعاً مسخَّرين للآخرين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم، ويسكنون مساكنهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أي نسلطهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤون ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ من أولئك المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه، من ذهاب ملكهم، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكن إخفاءه، وفيه دلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك[1] ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يحس به الجيران عند بكائه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي في البحر، وهو نهر النيل ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليه من الغرق ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2] تعليل للنهي، أي ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية الجبار.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أي فألقته في اليمّ فالتقطه، أي أخذوه أخذ اعتناء به، وصيانةً له، فنظرت آسية فإذا هي بصبيّ صغير في مهده، فألقى الله محبته في قلبها، وهَمَّ فرعون بقتله، فاستوهبته آسية فتركه لها ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ اللام لامُ العاقبة، أي ليصير الأمر إلى ذلك، أن يصير عدواً لهم لا لأنهم أخذوه لهذا، كقول القائل: «لِدُوا للموتِ، وابنُوا للخراب» ﴿وَحَزَنًا﴾ أي سبباً لحزن فرعون وهلاكه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون، فلا غرو أن قتلوا لأجله ألوفاً، ثم أخذوه يربُّونه، ويفعل الله بهم ما كانوا يحذرون.

---

(١) فإن قيل: ما فائدة الأمر بإرضاعه، والأم بطبيعة الفطرة ترضع ولدها؟ فالجواب أن الله أمر بإرضاعه حتى يألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها.

(٢) هذه الآية: ﴿وأوحينا إلى أم موسى...﴾ من معجزات الإعجاز والإيجاز، لاشتمالها على أمرَيْن، ونهيَيْن، وخبرَيْن، وبشارتين، في أسهل نظم، وأسلس لفظ، وأوجز عبارة، أما الأمران فهما: أرضعيه، وألقيه، والنهيان: لا تخافي، ولا تحزني، والخبران: أوحينا، وخفت، والبشارتان: إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فما أبدع هذا الإعجاز.

﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩ ﴾.

﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ أي قالت لفرعون حين أخرجته من التابوت، وخاطبته بلفظ الجمع ﴿لا تقتلوه﴾ تعظيماً، ليساعدها فيما تريده ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم، فيما صنعوا من الالتقاط، وأن هلاك فرعون وأتباعه سيكون على يدي هذا الغلام.

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ ﴾.

﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ ﴾ أي خالياً من العقل لما دهَمها من الخوف والحيرة، حين سمعتْ بوقوعه في يد فرعون[1]، كقوله تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ وهو قول صاحب الكشاف، وقيل: فارغاً من الهمِّ والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى، وهو قول أبي عبيدة، أو لسماعها أن فرعون عَطَف عليه وتبنَّاه وهو قول أبي مسلم ﴿ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ ﴾ أي إنها كادت لتظهر أمر موسى، وأنه ابنها، من فرط الحيرة والدهشة ﴿ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا ﴾ بإلهام الصبر ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي من المصدِّقين بوعد الله، الواثقين بحفظه تعالى لهذا الوليد.

---

(١) وقيل إن المعنى: أن قلبها صار خالياً من كل شيء في الدنيا، إلا من ذكر ولدها موسى، لم يعد في قلبها إلاَّ همُّ أمره ونجاته، وهذا القول مروي عن ابن عباس، والأظهر ـ والله أعلم ـ أن معنى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أن عقلها طار من فرط الجزع والغمِّ، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي كادت تصيح وا ابناه، وهذا القول ذكره القرطبي عن مالك رحمه الله، ولعله هو الأصح والأظهر.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ التعبيرُ عنها بأخوّته دون أن يقال: لبنتها، للتصريح بمدار المحبة الموجبة لامتثال الأمر ﴿ قُصِّيهِۖ ﴾ أي ابتغي أثره وتتبعي خبره، قصصت الأثر تتبعته ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي أبصرته عن بُعد، وهم لا يشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله، وأنها أخته.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ تحريم منع لا تحريم شرع، وذلك يحتمل أنه تعالى أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، أو وضع لبن أمه لذة فلما تعودها كان يكره لبن غيرها ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل قصها أثره وقد دخلت بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾؟ أي لا يقصّرون في إرضاعه وتربيته، روي أن هامان لمّا سمعه منها قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله، فقالت: إنما أردت وهم للملكِ ناصحون، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمه، وموسى على يد آسية يبكي، وهي تعلّله، فدفعته إليها، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلاَّ ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيّبة الريح، وطيبة اللّبن، لا أُوتىٰ بِصبي إلاَّ قبلني، فأقرّه في يدها، وأجرى عليها العطاء بسخاء، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وذلك قوله تعالى.

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لا خُلْف فيه لمشاهدة بعضه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، فيرتابون فيه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي المبلغ الذي تكتمل فيه الرجولة، ويكمل فيه عقل الإنسان، وهو سنُّ الأربعين، ويروى أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا على رأس الأربعين، والحكمة فيه ظاهرة لأنه إذا انتهى إلى أربعين تكامل عقلُه وأخذ في الازدياد ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي اعتدل قدره وعقله، فالأشدُّ: عبارةٌ عن كمال القوة البدنية، والاستواء: كمالُ القوة العقلية ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي علم العلماء والحكماء، لأن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه العلم، مجازاة على إحسانه، والنبوة لا تكون جزاءً على العمل.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ أي مصر من قصر فرعون ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه، قيل: كان وقت القيلولة ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ من أهل المدينة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي ممن شايعه على دينه، أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي مخالفيه ديناً من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي سأله أن يغيثه بالإعانة، وشيعةُ الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضرب القبطي بجُمْع كفه

وقيل: الوكز ضرب في الصدر، وكزه من باب وعد، أي ضربه ودفعه، وقال الكسائي: وكزه أي لكمه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله، أصله أنهى حياته ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار، أو لأنه كان مأموناً فيما بينهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عدَّه من عمل الشيطان، وسماه ظلماً، واستغفر منه، جرياً على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم، وإن كان من محقَّرات الصغائر ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ ذنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في مغفرة ذنوب عباده، ورحمتهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا استعطافٌ، أي بحقّ إنعامك عليَّ اعصمني، فلن أكون معيناً لمن تؤدي معونته إلى الجرم، وفيه دلالةٌ على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي يستغيثه برفع الصوت من الصراخ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي بيِّنُ الغواية، تسببتَ لقتل رجلٍ، وتقاتل آخر اليوم!.

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ ﴾ موسى ﴿ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أي لموسى وللإسرائيلي ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ الإسرائيلي ظاناً أنه عليه السلام سيبطش به، حسبما يوهمه تسميته إياه غوياً ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ قالوا: لمَّا سمع القبطي قول الإسرائيلي، علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون بقتل موسى، وقيل: قاله القبطي[1] ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ أي ما تريد ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهو الذي يبطش، ويقتل، ولا ينظر في العواقب ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ آخرها ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ أي يُسرع، وهو مؤمنٌ من آلِ فرعون ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورون بسببك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي يريدون قتلك، فأنصحك أن تخرج من هذا البلد بسرعة، فأنا لك ناصح أمين.

---

(١) القول الأول أظهر، وهو الذي حكاه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٩٤ حيث قال: ولمَّا عزم على البطش بذلك القبطي، اعتقد الإسرائيلي لخَوَره وضعفه، أن موسى إنما يريد قتله لمَّا سمعه يقول ﴿إنك لغويٌّ مُبينٌ﴾ فقال له: ﴿أتريدُ أنْ تقتلَني كَمَا قَتَلْتَ نفْساً بالأمسِ﴾ فلقفها القبطيُّ من فمه، ثم ذهب إلى فرعون فأخبره بذلك ا هـ.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا ﴾ أي من المدينة ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق الطالبين ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي خلصني منهم، واحفظني من شرّهم.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ نحو مدين وهي مدينة شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ توكلاً على الله، وثقة بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرق وقيل: خرج حافياً لا يعيش إلا بورق الشجر.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ ﴾ أي وصل ﴿ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي فوق شفيرها ﴿ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ ﴾ جماعة كثيفة ﴿ يَسْقُونَ ﴾ أي مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ أي أسفل من مكانهم ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تمنعان ما معهما من الأغنام من الماء، لئلا تختلط بأغنامهم، والذَّودُ: الطردُ والدفع ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لهما حين رآهما وما هما عليه من التأخر والذود ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر؟ ولم لا تباشران السقي كدأب هؤلاء؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي

حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ حتى يُصدر الرعاةُ مواشيهم عن الماء، حذراً من مزاحمة الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فلا نسقي حتى ينصرف الرعاة بمواشيهم.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ رحمة عليهما لكونهما على الضعف والعفة، وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية، لأنَّ هذا الأمر في نفسه ليس بممنوع شرعاً، وأحوال أهلِ البدو، غير أحوال أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت حالة ضرورة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمسٍ، وحر ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أيْ أيَّ شيء أنزلتَه إليَّ من خير فأنا محتاج إليه، وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ قيل هي كبراهما، أي جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما، روي أنهما لمَّا رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامهما بطانٌ، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي كانت على استحياء، تمشي مشية الحرائر، بخجل وحياء، وتنكير استحياء للتفخيم ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أسندت الدعوة إلى أبيها، وعلَّلتها بالجزاء، لئلا يوهم كلامها ريبة، وفيه دلالة على كمال عقلها وعفتها، روي أنه عليه السلام أجابها، فانطلقا حتى أتيا دار شعيب عليه السلام

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي ما جرى عليه ﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم، أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم، ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهر برأيه، لا ليأخذ بمعروفه أجراً، ألا يرى إلى ما رُوي أن شعيباً عليه السلام لما قدَّم إليه طعاماً، قال: إنَّا أهل بيت، لا نبيع ديننا بجبال الأرض ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً، ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فتناول بعد ذلك.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليه السلام، روي أن شعيباً عليه السلام قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت ما شاهدت منه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أفرس الناس ثلاث: بنت شعيب، وصاحب يوسف، وأبو بكر في عمر».

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ أي تكون أجيراً لي ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ في الخدمة ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فهو من عندك بطريق التفضل، لا من عندي بطريق الإلزام عليك، وهذا من شعيب عليه السلام عرض رأي على موسى لا

إنشاء عقد ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام تمام العشر واستيفاء العمل ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة، ولين الجانب، وإيفاء العهد.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي قلته ثابت بيننا لا يخرج عنه واحد منا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أي أكثرهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتُ﴾ وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي لا عدوان عليَّ بطلب الزيادة على ما أدّيتُ، ولا إثم عليَّ فيه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والله على ما نقول من الشروط الجارية بينهما شاهدٌ وحفيظ، عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة أيَّ الأجليْنِ قَضى موسى عليه السلام؟ قلت: لا أدري، حتى أَقْدُمَ على حَبْر العرب فأسأ له فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته فقال: «قضى أكثرهما ـ يعني العشر ـ وأطيبهما؟ إنَّ رسول الله إذا قال فعل»[1] فالفقهاء استدلوا به على أن العمل قد يكون مهراً كالمال، وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز من الآية الكريمة.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥/٢١٣.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ أي فعقد العقد، وباشر موسى ما التزمه، فلما أتمَّ الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ نحو مصر قيل مكث موسى عشر سنين، ثم استأذن العود إلى مصر من شعيب عليه السلام ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ من يدلني على الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي عود غليظ وشعلة من النار والجذوة: الجمرةُ الملتهبة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون بها.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ النار التي أبصرها، رأى النور في هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس ﴿ نُودِىَ ﴾ أي أتاه النداء فخوطب بألطف خطاب ﴿ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أي جانبه الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ إنما وصف البقعة بكونها مباركة، لأنه حصل فيه ابتداء الرسالة والتكلم ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ بدل اشتمال من الشاطىء لأنها كانت ثابتة على الشاطىء ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الجليل، وهذا وإن خالف لفظاً لما في طه، والنمل، لكنه موافقٌ له في المعنى المراد، وفي النمل: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ وقال في طه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾. فلا منافاة، لأنه تعالى ذكر الكل، إلاَّ أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ ﴾ أي ألقها من يديك، فألقاها فإذا هي حية تسعى

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في سرعة الحركة، مع عظم جثتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي لم يلتفت، فقيل له ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لديَّ المرسلون.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي أدخلْ يدك في جيبيك، وفي طه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ﴾ وفي النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ﴾ ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي عيب كالبرص ونحوه ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي يديك المبسوطتين استعارة من حال الطائر، فإنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن ضمَّهما إليه، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، لأن الغرض في أحدهما خروج اليد البيضاء، وفي الثاني زوال الخوف ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي من الخوف، فالخائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا، واليد ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ أي حجتان نيِّرتان ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلتها، يعني ذلك القبطي، الذي قتله في مصر، لمَّا رآه يعتدي على الإسرائيلي.

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ لأنه كان في لسانه حُبسة، إمّا في أصل الخِلقة، وإمّا لأجل أنه وضع الجمرة في فيه، عندما كان صغيراً في حجر فرعون ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ معيناً وهو اسم لما يُعان به، كالدِّفء اسمٌ لما يُدفأ به، والرِّدْءُ وِزان حِمْل: المعينُ ﴿ يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بتلخيص الحق، وتقرير الحجة وتوضيحها، المفيد، لا مجرد قوله صدقتك ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي أحد معين أن يكذبوني، لأنهم يكادون لا يفقهون قولي.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ٣٥﴾.

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ﴾ أي سنقوي ﴿ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ وكان هارون بمصر، وقوة الشخص على مزاولة الأمور بشدة اليد، وشدتها بشدة العضد ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ أي تسلطاً وغَلَبة ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ﴾ باستيلاء أو محاجة ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ متعلق بمحذوف قد صرح في مواضع أخرى أي اذهبا بآياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أي الغلبة والنصر لكما ولأتباعكما على فرعون وقومه، وقلب العصا كما أنها معجزة، فهي أيضاً تمنع وصول ضرر فرعون إلى موسى، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما، والمراد بالغلبة هنا: الحجة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أي واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام، والمراد بها العصا، واليد ﴿ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ أي سحر مختلق، موصوف بالافتراء ﴿ وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ادعاء النبوة واقعاً في أيامهم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ ﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ يريد به نفسه عليه السلام ﴿ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ ﴾؟ أي العاقبة المحمودة، وهي الجنة قال الله تعالى: ﴿أولَئِكَ لَهُمْ عُقبىٰ الدَّارِ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي لا يفوزون بالهدى في الدنيا، وحسن العاقبة في العقبى.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ قاله اللعين بعد ما جَمَع السحرة، وتصدَّى للمعارضة، فكان من أمرهم ما كان، وكانت عادة اللعين متى ظهرت حجة موسى عليه السلام، أن يتعلق في دفع تلك الحجة، بشبهة يروِّجها على أغمار قومه، كقوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟. على أنه كان عارفاً بالله تعالى: ﴿ فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ أي اصنع آجرّاً، وأول من اتخذ الآجر فرعون ﴿ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا ﴾ أي قصراً رفيعاً ﴿ لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ كأنه توهم أنه لو كان موجوداً لكان جسماً في السماء، يمكن الرقي إليه، والطُّلوعُ، والاطِّلاعُ: الصعود ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ في دعواه أن له إلَهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً، وقد تناقض المخذول، فإنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلَهاً، قال أهل السير: جَمَع هامان العمال، وطبخ الآجر والجص، وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه، حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، وأراد الله أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه سقط على العمال فهلكوا جميعاً.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في أرض مصر ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بغير استحقاق ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث والجزاء.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ ﴾ الذين بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات ﴿ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ وفيه تفخيم شأن الأخذ، كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم، وطرحهم في اليم أي البحر، والفرض منه تصوير أنَّ كل مقدور وإنْ عَظُم، فهو حقير بالقياس إلى قدرته تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؟ تنبيهاً للناس ليعتبروا بها.

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ ﴾ أي صيرناهم في عهدهم ﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ ﴾ الناس ﴿ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها، من الكفر والمعاصي، أي قُدوةً يقتدي بهمِ أهل الضلال ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي طرداً وإبعاداً من الرحمة، ولعناً من اللاعنين، حيث تلعنهم الملائكة والمؤمنون، خَلَفاً عن سلف ﴿ وَيَوْمَ

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المطرودين المبعدين عن رحمة الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام، والتعرض لبيان إيتائها بعد إهلاكهم، للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، فإن إهلاك القرون الأولى، من موجبات اندراس معالم الشرائع وأحكامها المؤدي إلى اختلال نظام العالم، وحاجته إلى نظام جديد، كأنه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة إلى إيتائها ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أنواراً لقلوبهم، تُبصر بها الحقائق، وتُميِّز بها بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى﴾ أي هدايةً إلى الشرائع والأحكام ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ليكونوا على حالٍ يُرجى منه التذكر.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم، واقع في زمان شدة مساس الحاجة إليه، وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله، ببيان أن الوقوف على ما فُصِّل من الأحوال، لا يتسنى إلا بالمشاهدة، أو التعلم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما، تبيَّن أنه وحي من علام الغيوب لا محالة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أي وما كنتَ يا رسولَ الله بجانب الجبل الغربي، الذي وقع فيه الميقات ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمرنا له بالنبوة وبالوحي ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من جملة الشاهدين للوحي،

وهم السبعون المختارون للميقات، حتى تشاهد من أمر موسى ما تشاهد، فتخبر به الناس.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥ ﴾.

﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا ﴾ أي ولكنْ خلقنا بين زمانك، وزمان موسى، قروناً كثيرة ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ ﴾ وتمادى الأمد، فتغيرت الشرائع والأحكام، والأخبار، واندرست العلوم، فاقتضى الحال لتشريع جديد، فأوحينا إليك، فحُذف المستدركُ، اكتفاءً بذكر ما يوجبه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا ﴾ أي مقيماً ﴿ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم ﴿ ءَايَٰتِنَا ﴾ الناطقة بالقصة ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات، ولولا ذلك لما علمتها أنت ولا قومك.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا ﴾ أي وقت ندائنا لموسى، وتكليمنا إياه ﴿ وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي ولكنْ أرسلناك بالقرآن، لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا ﴾ أي لتخوّف أهل مكة وكفارها عذاب الله ﴿ مَّآ أَتَىٰهُم ﴾ صفة لقوماً أي لم يأتهم ﴿ مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمس مائة وخمسون سنة ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون بإنذارك.

﴿ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ ﴾ عقوبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ عطف على أن تصيبهم، أي فيقولوا عند ذلك ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ ﴾ أي هَلّا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ مؤيداً من عندك بآيات ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بها، والمعنى: لولا قولهم هذا، عند إصابة عقوبة جناياتهم، ما أرسلناك، لكنْ لمَّا كان قولهم ذلك محقَّقاً، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ (٤٨) ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ﴾ أهل مكة ﴿ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ وهو القرآن العظيم المنزل عليك يا محمد ﴿ قَالُواْ ﴾ تعنتاً واقتراحاً ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ من الكتاب المنزَّل جملة وهو التوراة ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ ﴾ ردٌّ عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً مَحْضاً، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق، أي ألم يكفروا ﴿ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هذا القول، كما كفروا بهذا الحق ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هما يعنون ما أُوتي رسولُ الله ﷺ، وما أوتي موسى عليه السلام ﴿ تَظَٰهَرَا ﴾ تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر، وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود، فسألوهم عن شأنه ﷺ، فقالوا وجدناه في التوراة بنعته، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود، قالوا ذلك ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وقرىء (ساحران).

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٩) ﴾.

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا ﴾ ممَّا أوتياه من القرآن، والتوراة ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب للأمر، أي إن تأتوا به أتَّبعه، وهذا من الشروط التي يراد به الإلزام، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين، أمرٌ بيِّنُ الاستحالة ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أنهما سحران مختلَقَان، وفي كلمة ﴿إِنْ﴾ مع امتناع صدقهم، نوعُ تهكمٍ بهم.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلَّفتهم من الإتيان ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ ﴾ الزائغة، من غير أن يكون لهم تمسك بشيء ما، إذ لو كان لهم ذلك لأتوه، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ ﴾ استفهامٌ إنكاري أي لا أضل ممن اتبع هواه، وتقييد اتباع الهوى، بعدم الهدى من الله، لزيادة التقريع ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والشهوات، والإعراض عن الآيات الهادية البيِّنات.

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أي أنزلنا القرآن عليهم، متواصلاً بعضه إِثْرَ بعض، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ومتتابعاً، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعِبَراً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنوا بما فيه.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل إيتاء القرآن ﴿ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأشباهه، قال ابن

عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب، آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوا في دعوى الإيمان.

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيقته ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل نزوله ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة أي مؤمنين بأنه سيبعث.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمَنَ بنبِّيه، وآمنَ بمحمد ﷺ، والعبدُ المملوك إذا أدّىٰ حقَّ الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤُها فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها ثم تزوجها، فله أجران»[1] ﴿ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمان بالرسول والقرآن ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أي ويدفعون بالطاعات المعصية ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في سبيل الخير.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في العتق ٥/١٢٦ ومسلم رقم ١٥٤ في الإيمان.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ﴾ القول القبيح، وذلك أن المشركين كانوا يسبُّونهم ويقولون: تبّاً لكم، تركتم دينكم ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي عن اللغو تكرماً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ للشاتمين ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي لنا طريقتنا من الحلم والصفح، ولكم طريقتكم من الوقاحة والسفاهة، وكل على طريقته ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتاركة، وليس بتسليم وتحية، بل هو براءة ومفارقة، قال الزجاج، لم يريدوا التحية وإنما أرادوا المتاركة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وقال بعضهم: نُسخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد، لأن ترك المسافهة مندوبٌ، وإن كان القتال واجباً ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي لا نبغي صحبتهم ولا نجازيهم بالباطل.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من الناس، ولا تقدر أن تدخله في الإسلام، وإن بذلت فيه غاية المجهود، وقال تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولا تنافي بينهما، فإن الذي أضافه إليه الدعوة والبيان، والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح القلب للإسلام، وهو نور يُقذف في القلب، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾ ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه ممن يستأهل فيدخله في الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي المستعدين لذلك، عن أبي هريرة قال: «﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية نزلت في رسول الله ﷺ، حيث راود عمَّه أبا طالب على الإسلام» والجمهور على ذلك، فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عم: قل: (لا إله إلا الله) كلمة أحاجُّ

بها لك عند الله، قال له: يا ابنَ أخي، قد علمتُ أنك صادق، ولكني أكره أن يقال فزع عند الموت.[1]

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، لكنا نخاف إنِ اتبعناك وخالفنا العرب، أن يتخطفونا من أرض مكة، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾؟ أي ألم نعصمهم ونجعل بلدهم حرماً ذا أمنٍ لحرمة البيت الحرام، الذي تتناحر العرب حوله، وهم آمنون؟ ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ أي يجمع ويحمل إليه ﴿ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من كل أوب ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكر، وهم عَبَدةُ أصنام، فكيف يخافون التخطف إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت العتيق، حرمة التوحيد؟ وكيف يكون الحرم أمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون أمناً لهم في حال إسلامهم؟ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلة لا يتفطنون له، ولا يتفكرون.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي وكثير من أهل القرى كانت حالتهم كحال هؤلاء في الأمن، وسَعَة العيش والدَّعة، حتى أشركوا فدمَّرنا عليهم، وخرَّبنا ديارهم، فالإصرار على الكفر، يزيل النعم، لا

---

(١) انظر صحيح البخاري ٨/٥٠٦ فقد ذكر القصة كاملة، وأن أبا طالب أبى أن يقول لا إله إلا الله، وفيه نزلت ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

الإقدام على الإيمان ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاوية بما ظلموا ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة، يوماً أو بعض يوم، ولم يبق من يسكنها إلا قليلاً، من شؤم معاصي المهلكين ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي ما صح وما استقام في سنته تعالى المبنية على الحِكَم، والمصالح، أن يهلك القرىٰ قبل الإنذار، بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي في أصلها وعاصمتها، وخصَّ الأم أي العاصمة ببعثة الرسل، لأنه يبعث للأشراف وهم سكان المدن، ولكون أهلها أفطن وأنبل ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقة بالحق، ويدعو إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجة، وقطع المعذرة، بأن يقولوا: لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتبع آياتك؟ والالتفاتُ إلى نون العظمة لتربية المهابة، وإدخال الروعة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال، أي وما كنا مهلكين لأهل القرى، بعدما بعثنا رسولاً يدعوهم إلى الحق، في حال من الأحوال، إلا حال كونهم ظالمين، بتكذيب رسلنا، والكفر بآياتنا.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من أمور الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي فهو شيء شأنه أن يُتمتع به، ويتزين أياماً قلائل ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب

﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك، لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ هذا الأمر الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي بالجنة، فإن حسن الوعد بحسن الموعود، فهو مدركه لا محالة، لاستحالة الخُلْف في وعده تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسمية، المفيدة لتحققه البتَّة ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام، منغَّصٌ بالأكدار، مستتبع للتحسر على الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ثم أحضرناه يوم القيامة للحساب والعذاب، وتخصيصُ لفظ ﴿مُحْضَرِينَ﴾ بالذين أُحضروا للعذاب، أمرٌ عُرف من القرآن، وصار مقروناً بالعذاب الإلّهي.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله الكفار نداء توبيخ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ أنهم شركائي عبدتموهم من دون الله؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم من الشياطين، ورؤساؤهم الذين أطاعوهم في كل ما أمروهم به، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ﴾ أنه ثبت مقتضاه بدخول جهنم بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ الجنَّةِ وَالنَّاسِ أجْمَعينَ﴾[1] ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ أي ما أكرهناهم على الغي، وإنما أغويناهم بالوسوسة والتسويل، لا بالإلجاء والإكراه، فغووا باختيارهم ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ منهم، ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم.

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ إما تهكماً بهم أو تبكيتاً لهم ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي الأصنام لتخليصكم من العذاب ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ لفرط الحيرة ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ قد غشيهم ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ لوجه من الوجوه، لَمَا لَقُوا ما لقوا من الكرب والبلاء.!

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟ الذين نهوهم عن الشرك، أي ماذا أجبتم رسلي؟ هل صدَّقتموهم أم كذَّبتموهم؟.

﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي فصارت كالعَمَىٰ عنهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعمُوا عن الأنباء، وقد عكس للمبالغة، أي خفيت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، فهم حيارىٰ واجمون، لا يعرفون ما يقولون ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضُهم بعضاً عن الجواب، لفرط الدهشة والفزع.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) سورة هود، آية: ١١٩.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده تعالى، و «عسى» للتحقيق[1] على عادة الكرام، أو للترجي من قِبَل الطالب، أي راجياً الفلاح من ربه الكريم.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أن يخلقه ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ما شاء اختياره من غير إيجاب عليه، ولا منع له أصلاً ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ أي ما كان لأحدٍ من العباد اختيار، فهو الخالق المختار، والواحد القهار، فكما أن الخلق إليه، فكذلك الاختيار له ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً له أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره، نزلت هذه الآية، جواباً لقول المشركين، حين قالوا: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾[2]؟.

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي هو جلَّ وعلا العالم بما تخفيه صدورهم، من الكفر والعداوة للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن فيه ﷺ.

---

(١) قال ابن كثير ٣/٤٠٨: وعسى من الله موجبة، فإنَّ هذا واقع بفضل الله ومنّته لا محالة. اهـ أقول: الترجي الوارد في القرآن بمنزلة التحقق، لأنه وعدٌ كريم من رب رحيم، وهو جلَّ وعلا لا يخلف وعده.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ ﴾ أي المستحق للعبادة وحده ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا أحد يستحقها إلا هو سبحانه ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ لأنه المُولي للنِّعم كلِّها، عاجلها وآجلها، على الخلق كافة، يحمده المؤمنون في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة بقولهم: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ ابتهاجاً بفضله، والتذاذاً بحمده ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث إلى حكمه وقضائه.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تقريراً لما ذُكر ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ أي دائماً من السَّرْد، وهو المتابعةُ والاطِّرادُ، والميم زائدة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثةٌ سَرْدٌ، وواحدٌ فَرْدٌ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور والضياء؟ وعليه يدور أمرُ التبكيت والإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[1] ونظائره ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾؟ هذا الكلام الحقَّ، سماع تدبر واستبصار، حتى تذعنوا له، وتعملوا بموجبه، فالمعنى: أخبروني من يقدر على هذا غير الله تعالى؟.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة تبارك الملك، آية: ٣٠.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا ﴾ أي جعل النهار دائماً مستمراً دون انقطاع، في وسط السماء ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ للاستراحة من متاعب الأشغال، ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه، لكونه مقصوداً بذاته ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ هذه المنفعة؟ وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ و ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ لأن الغرض من ذلك الانتفاعُ، فلما لم ينتفعوا نُزِّلوا مرتبة من لا يسمع ولا يبصر.

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾.

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتعرفوا نعمة الله في ذلك، فتشكروه عليها.. جمع تعالى الليل والنهار، ثم قال ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فأعاد السَّكَن إلى الليل، وطلب الرزق إلى النهار، بطريقة «اللفِّ والنشر المرتب»، وهذا من لطيف علم البديع

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقريع إثر تقريع، للإشعار أنه لا شيء أجلب لغضب الله، من الإشراك بالله.

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ عطف على يناديهم، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقق، أي أخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ أي نبياً يشهد

عليهم بما كانوا عليه، أو هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ﴿فَقُلْنَا﴾ لكل أمة من تلك الأمم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي غاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الآلهة المزعومة، من الأوثان والأنداد.

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾.

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ﴾ قيل كان ابن عم موسى عليه السلام وأعلم بني إسرائيل، ولكنَّه نافق كما نافق السامري ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي من جماعته وعشيرته ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي تطاول عليهم بالكبر والعلوّ ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي مفاتيح صناديقه، وهو جمع مِفْتح بالكسر، وهو ما يُفتح به، والمعنى: آتيناه من الكنوز ما إن مفاتيح خزائنه ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ ناء به الحملُ: إذا أثقله، والعصبةُ الجماعةُ الكثيرة، أي يثقل على الجماعة أصحاب القوة، حمل مفاتيح خزائنه، لكثرتها وثقلها، فضلاً عن حمل الخزائن والأموال ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تبطر، والفرحُ في الدنيا مذمومٌ مطلقاً، لأنه نتيجة جهالة حال الدنيا، أن ما فيها من اللذة زائل لا محالة، والمراد بالفرح هنا: فرح البطر والأشر، والتكبر على عباد الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارف الدنيا، والذين لا يشكرون الله على فضله وإنعامه.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغنى والثروة ﴿ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ أي ثواب الله، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، بأن تتصدق به على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرفه إلى أبواب الخير ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي لا تترك ترك المنسيّ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وهو أن تحصّل منها ما يكفيك ﴿وَأَحۡسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ بما أنعم عليك ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ نهى عما كان عليه من الظلم والبغي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ مجيباً لناصحه ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ كأنه يريد الردَّ على قولهم: ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليك﴾ أي إنما فُضِّلتُ به على الناس، بالمال والجاه، لمعرفتي بوجوه المكاسب، وبسبب ذكائي ومهارتي ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ توبيخ له من جهته تعالى، على اغتراره بقوته، وكثرة ماله فالمعنى: ألم يقرأ في التوراة، ولم يعلم ما فعل الله بأضرابه، من أهل القرون السابقة، حتى لا يغترَّ بما اغترُّوا به؟ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي لا يُسألون سؤال استعلام، بل يعذبون بها بغتة، فالله عزَّ وجلَّ عالم بجرائمهم، ولا حاجة أن يسألهم عنها، كما قال سبحانه: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ أي فخرج عليهم في زينته، بأبهى الحلل، وأجمل الخيل، مع خدمه وحشمه، في موكب حافل باهر ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ جرياً على الرغبة في السعة واليسار ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ ﴾ أي ياليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ تعليل لتمنيهم وتأكيد له، أي ذو نصيب وافر من الدنيا، ومكانة عظيمة من الجاه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي العقلاء من أهل العلم والفهم، الذين لا تخدعهم المظاهر البرَّاقة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء شاع في الزجر عما لا يرتضى، أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا التمني والكلام الفارغ ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ثوابه تعالى في الآخرة ﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ فلا يليق بكم، أن تتمنوه غير مكتفين بثواب الله تعالى ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي هذه المنزلة والفضيلة ﴿ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ على أمر الله، والمعرضون عن زينة الدنيا وشهواتها.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ فإنه لمَّا أشِر، وبَطِر، وعتا، خسف الله به وبداره الأرض، جزاءً على عتوّه. وطغيانه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ ﴾ أي جماعة مشفقة ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي الناجين من العذاب، الممتنعين منه، لأنه لا نصير لهم ولا معين.

﴿ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَصۡبَحَ ﴾ وصار ﴿ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ ﴾ منزلته من الدنيا ﴿ بِٱلۡأَمۡسِ ﴾ منذ زمان قريب، ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ﴿ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ﴾ «وَيْ» كلمة تنبيه على الخطأ والندم، يستعملها النادم بإظهار ندامته، وكأن للتشبيه، والمعنى: ما أشبه هذا الأمر، يعني أن القوم قد تنبَّهوا على خطئهم في تمنيهم، وتندَّموا على ذلك ﴿ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيّق الرزق على من يشاء، يفعل كل واحد منهما بمحض مشيئته، لا لكرامةٍ توجب البسط، ولا لِهوانٍ يقتضي القبضَ ﴿ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ أي لولا أن الله لطف بنا بعدم إعطائه إيّانا ما تمنيناه ﴿ لَخَسَفَ بِنَاۖ ﴾ كما خَسف بقارون ﴿ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ لنعمة الله تعالى، أي اعجبوا من فعل الله أيها القوم، فإنه لا يفوز ولا يظفر بالسعادة، الكافرون.

﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ تِلۡكَ ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنه قيل: تلك التي سمعتَ خبرها، وبلغك وصفها ﴿ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي غلبة وتسلطاً ﴿ وَلَا فَسَادٗاۚ ﴾ أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ ﴾ الحميدة ﴿ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون ما لا يرضاه الله، من الأفعال، والأقوال.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٨٤ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي مثل ما كانوا يعملون، أخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة، وأن الحسنة تضاعف أضعافاً كثيرة، مبالغة في التحذير من عمل السيئات.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٨٥ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ ﴾ أي أوجب وأنزل ﴿ عَلَيۡكَ ﴾ يا محمد تلاوة ﴿ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ وتبليغه، والعملَ به، ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ ﴾ أي لرادك بعد الموت إلى معادٍ، تمتد إليه أعناق الهمم، وترنو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود، الذي وعدك به، وقيل: هو مكة المعظمة، فقد نزلت عليه في مهاجره، حين بلغ الجُحفة، وذلك أقرب وهو قول أكثر المفسرين[1] ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ﴿ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسه ﷺ، والمشركين، وهو جواب لكفار مكة، لما قالوا للرسول ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، وتقرير للوعد السابق.

---

(١) هذا وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ بفتح مكة، وعودة المصطفى ﷺ إليها بعد أن هاجر منها، وهذه الآية من أعلام النبوة، فإنه خبرٌ عن غيب، وقد وقع كما أخبر عنه القرآن، حيث رجع رسول الله ﷺ إلى مسقط رأسه، ظافراً منتصراً بعد سنوات قليلة من هجرته، والمعنى: إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد، لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا القول مروي عن ابن عباس والضحاك، وهو الأشهر والأظهر، والله أعلم.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي سيردُّك إلى معادك كما ألقي إليك الكتاب، وما كنت تطمع أن تنال النبوة، وينزل عليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكن ألقى إليك رحمة منه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي معيناً للكافرين بمداراتهم، ولا إجابة إلى طلباتهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي الكافرون ﴿عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وفُرضت عليك ﴿وَٱدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى عبادته وتوحيده ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبله للتهييج، والإلهاب، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته ﷺ لهم، روي عن ابن عباس أنه قال: «الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ، والمراد به أهل دينه» والعصمة لا تمنع أن ينتهى عن القبح من لا يمكن صدوره عنه ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي إلا ذاته جلَّ وعلا، فإنَّ كل ما عداه كائناً ما كان، عرضةٌ للهلاك والفناء ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عند البعث للجزاء لا إلى غيره، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص»

* * *



مكية وهي تسع وستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحسبانُ: الظَّن، نزلت في قوم من المؤمنين، كان كفار مكة يؤذونهم ويعذبونهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية، وحكمها عام في جميع البشر ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؟ أي أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة، بقولهم ﴿آمَنَّا﴾ والمعنى: إنكار الحسبان المذكور، وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف، كالمهاجرة والمجاهدة، ورفض ما تشتهيه النفس، وفنون المصائب في الأنفس والأموال، ليتميّز المخلص من المنافق، ويجازيهم بحسب أعمالهم.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ فالابتلاء سُنَّةٌ قديمة، مبنيّة على الحِكم والمصالح، جاريةٌ بين الأمم كلها فإن الأمم الماضية، قد

أصابها من ضروب الفتن والمحن، ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا فمنهم من يوضع المنشار على رأسه، فيفرق نصفين، ومنهم من يُمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في قولهم آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ذلك، أي فوالله ليميزنَّ الله بين الصادق والكاذب، بين الذين صدقوا في الإيمان، والذين هم كاذبون فيه، ويرتّب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفر والمعاصي، فإن العمل يعمُّ أفعال القلوب، والجوارح ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾؟ أي يفوتونا، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوىء أعمالهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الذي يحكمونه!؟ فإنه سبحانه يعذب ويثيب، بحكم الوعد والإيعاد، والإمهال لا يفضي إلى الإهمال.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي يتوقع ملاقاة جزائه، ثواباً أو عقاباً، وملاقاة حكمه يوم القيامة، والمشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي الوقت المضروب للقائه ﴿لَءَاتٍ﴾ لا محالة والجواب محذوف، أي فليختر من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم الظاهرة الباطنة، وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ في طاعته تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لعود منفعتها إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لا حاجة له إلى طاعتهم، وإنما أَمَرهم بمجاهدة الهوى والشيطان لِمنفعتهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي نمحو الكفر بالإيمان، والمعاصي بالتوبة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام، والآية تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان، لأن تكفير السيئات معلّق عليها، وهي ثمرة الإيمان، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك أن عروقها، وأغصانها منها، والماء الذي يجري عليها والتراب حواليها غير داخل فيها، لكنَّ الثمرة لا تحصل إلا بهما.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ أي أمرناه بأن يفعل بهما ما يحسن من المعاملات، فإن «وصّى» تجري مجرى «أمر» معنىً وتصرفاً، يقال: وصَّيْتُ فَلاناً بكذا، أي أمرته بتعهده ومراعاته ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي بألوهيته، عبَّر عن نفيها بنفي العلم بها، للإيذان بأن ما لا يُعلم صحته، لا يجوز اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه، فكيف بما علم بطلانه؟ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ في ذلك، فإنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجع من آمن منكم، ومن أشرك، ومن برّوا والديه ومن عقّ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بعمله إن خيراً فخير،

وإن شراً فشر، وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى يقول: لا تظنوا أني غائب عنكم، بل أنا حاضر معكم، وأعلم ما تفعلون، فأنبئكم بجميعه. روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لمَّا أسلم، وكان باراً بأبويه، قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثت؟ والله لا آكل، ولا أشرب، حتى ترجع إلى ما كنت عليه، ولبثت ثلاثة أيام، فقال لها: «يا أماه والله لو كانت لك مائة نَفْس، فخرجت نَفساً نَفْساً، لا أترك ديني لشيء أبداً، فإن شئتِ فكلي، وإن شئت فدعي، فلما يئست منه أكلت وشربت»[1] ففيه نزلت هذه الآية الكريمة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح، وهو منتهى درجات المؤمنين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في سبيله بأن عذبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ما يصيبه من أذيتهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الشدة والهول، فيرتدُّ عن الدين، ولا يصبر عليه، وما علمَ أنَّ تعذيب الناس لا يكون مديداً، وعذابُ الله مديد، وأنَّ المشقة إذا كانت

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٩٥ وصفوة التفاسير ٢/ ٤٥١ وقد روى الترمذي قصة سعد في سننه ٥/ ٣١٩ وقال: حديث حسن صحيح، وفيه قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يُطْعموها، شَجَروا فَاها ـ أي فتحوا فمه ـ فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ الآية.

مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ أي متابعين لكم في الدين، فأشركونا في المغنم، وهم ناس من ضعفة المسلمين، كانوا إذا مسَّهم أذى الكفار وافقوهم على الضلال، وكانوا يكتمونه من المسلمين، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ أي بأعلم منهم بما في صدورهم، من الإخلاص والنفاق.

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾.

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أي ليجزيهم بما لهم من الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة، أي قالوا مخاطبين لهم ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي اسلكوا طريقنا التي نسلكها في الدين ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أي إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها، وهذا قول صناديد قريش لمن آمن، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ «مِنۡ» الأولى للتبيين، والثانية مزيدة، والتقدير وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم التي التزموا أن يحملوها كلها ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ حيث أخبروا بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوهم به.

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾.

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة، من المضرة لأنفسهم، بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم، والتعبير عن الخطايا بالأثقال، للإيذان بغاية ثقلها، وكونها فادحة، واللامُ جواب قسم محذوف، أي وبالله ليحملنَّ أثقال أنفسهم كاملة، وأثقالاً أخرى مع أثقالهم، لأنهم تسبَّبوا بالإضلال، من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء، وفي الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرُها، ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ سؤال تقريع ﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقون في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل، التي من جملتها كذبهم هذا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ شروع في بيان فتنة الأنبياء عليهم السلام بأذية أممهم، إثر بيان، فتنة المؤمنين بأذية الكفار، تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا، بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، أي ولقد بعثنا رسولنا نوحاً إلى قومه الضالين ﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي أقام ومكث ﴿ فِيهِمْ ﴾ أي فيما بينهم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا كأنه جلَّ وعلا قال: مكث بينهم تسعمائة وخمسين سنة، وهذه المدة الطويلة التي عاشها كانت معجزة له عليه السلام، لأن البشر لا يعيشون مثلها، ولمَّا أدركته الوفاةُ، قيل له: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ ﴾ عقيب نهاية المدة المذكورة، والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشيء، على كثرة

---

(١) هذا طرف من حديث طويل في قصة الأعراب الفقراء مجتابي النمار، وحث النبي ﷺ لأصحابه على الصدقة، وقد أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٦٧٤ فانظره بكماله هناك.

وشدة، من المسيل، والريح، وقد غلب على طوفان الماء ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي والحال أنهم مستمرون على الظلم، لم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي الحادثة ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتعقلون بها.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب بالعطف على نوحاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي أرسلناه حين تكامل رشدُه، وترقى من مرتبة الكمال، إلى مرتبة التكميل، حيث تصدَّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي مما أنتم عليه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر، وتميِّزون ما هو نافع ممَّا هو ضار.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي إنما تعبدون من دونه تعالى أوثاناً، هي في نفسها تماثيل وصور مصنوعة لكم، ليس فيها وصف غير ذلك ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ﴾ أي تكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تضر ولا تنفع ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي لا تقدر على أن ترزقكم شيئاً من الرزق ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كله فإنه هو الرزّاق ذو القوة المتين ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ على نعمائه، متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيّدين لها بالشكر، لأنه المنعم عليكم بالرزق ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بالموت، لا إلى غيره.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أي وإن تكذبوني فيما أخبرتكم من البعث ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ تعليل للجواب، أي فلا تضرونني بتكذيبكم، فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا الرسل، فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم، حيث تسبّبوا لحلول العذاب بهم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، وليس عليه هداية الناس.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ الواو للعطف على مقدّر، أي ألم ينظروا ويعلموا، علماً جارياً مجرى الرؤية في الظهور، كيفية خلق الله تعالى ابتداء للبشر من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ أي ثم يردّه إلى الوجود بعد الفناء، ليستدلوا بالخلق الأول على الإعادة في الحشر؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من الإعادة ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر إلى شيء، فإن من نَحَتَ حجارات، ووضع شيئاً بجنب شيء ففرّقها ثم أراد إعادتها، فإن إعادتها أمرٌ يسيرٌ عليه .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي سيروا فيها فانظروا كيف بدأ الله الخلق، أي كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مختلفة، وطبائع متغايرة، مع اختلاف الأشكال، والصور، والألوان، ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى، كما بدأهم يعيدهم، والتعبيرُ عن الإعادة بالنشأة الآخرة، المشعرة بكون البدء نشأة أولى، للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى، لا فرق بينهما إلاَّ بالأولية، والآخريّة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله، أي لا يعجزه شيء، فهو المحيي المميت، القادر القاهر، الذي يقول للشيء كنْ فيكون.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾.

﴿ يُعَذِّبُ ﴾ أي بعد النشأة الآخرة ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يعذّبه، وهم المنكرون للبعث ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يرحمه وهم المصدقون بلقاء الله ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي تردُّون أو تُرجعون للحساب والجزاء لا إلى غيره.

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) ﴾.

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه عليكم ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في التواري في الأرض، أو بالتحصن في السماء، التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقي فيها؟ كما في قوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ

أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾[1] ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم بما يصيبكم من بلاء.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي بالبعث والنشور الذي تنطق به تلك الآيات ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته ﴿ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة، فإنهم لما أشركوا، أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة، وصيغة الماضي للدلالة على تحقيقه ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالكفر وباليأس ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يُقادر قدرُه بكفرهم.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ليس المراد أنه لم يصدر عنهم إلا هذه المقالة، كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إن ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابهم، بعد الجدال والمحاورة، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى، والقائلون هم الرؤساء أي قالوا لأتباعهم ذلك ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فألقوه في النار، فأنجاه الله تعالى منها، بأن جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم، كما بيّنه تعالى في موطن آخر ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في إنجائه منها ﴿ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ عجيبة، منها حفظُه تعالى من حرِّها، وإخمادها في زمان يسير، وإنشاء

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٣٣.

روضةٍ في مكانها ﴿لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي يصدِّقون بكمال قدرة الله، وخصَّ المؤمنين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بالتأمل فيها، وأما من عداهم فهم عنها غافلون.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا، على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تنقلب الأمور، فتصبح المودة تباغضاً ﴿يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ أي الإنسان يكفر بالأوثان، ويتبرأ القادة من الأتباع ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم﴾ أي يلعن الأتباعُ ﴿بَعۡضٗا﴾ يعني الرؤساء ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾.

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ﴾ أي صدَّقه في جميع مقالاته، وأول من آمن له لوط حين رأى النار لم تُحرقه، وهو ابن أخيه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي من قومي ومن سواد الكوفة ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ إلى حيث أمرني ربي، يعني توجهي إلى الله تعالى لا إلى الجهة. ولمَّا بالغ عليه السلام في الإرشاد، ولم يهتد قومُه، وحصل اليأس، وجبتْ المهاجرةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة. روي أنه عليه السلام هاجر مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حَرَّان، ثم منها إلى فلسطين، وهنالك استوطن فيها.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً من عجوز عاقر، ولذا لم يذكر إسماعيل ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ ﴾ فكثر منهم الأنبياء ﴿ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ ﴾ بمقابلة هجرته إلى الله ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ بإعطاء الولد، واستمرار النبوة فيهم، والثناء عليه إلى آخر الدهر ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الكاملين في الصلاح. ولمَّا أتى إبراهيم عليه السلام بالتوحيد، دفع الله تعالى عنه عذاب الدنيا وهو الإحراق بالنار، وأعطاه الثواب العاجل جزاء صبره على الابتلاء، وكان وحيداً فبدَّل الله وحدته بالكثرة، حتى مُلِئت الدنيا من ذريته.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَلُوطًا ﴾ عطف على إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وهي اللواطة ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بيانٌ مقرِّرٌ لكمال قبحها، أي ما فعل هذه الفعلة القبيحة أحد من الخلق قبلكم، لأنها تشمئز منها الطباع، وتنفر منها النفوس الزكية حتى البهائم، لا تتعاطاها.

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تتعرضون للسابلة بالفاحشة حيث روي أنهم كانوا كثيراً ما يفعلون بالغرباء ذلك، ويقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي في مجلسكم الجامع لأصحابكم، والنادي مجلس القوم، ولا يقال فيه ذلك إلا والقوم مجتمعون فيه، وإذا تفرقوا زال عنه هذا الاسم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماع، وحلِّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، وغيرها مما لا خير فيه، من الأفاعيل المنكرة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي فما كان جوابهم إلا هذه الكلمة، أي لم يصدر عنهم في هذه المرة، إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً!!.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة، ولمَّا يئس عليه السلام من صلاحهم، طلب النصرة، ولأنهم كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه، وصَفَهم بالمفسدين، إشعاراً بأنهم أحقاء بأن يُعجَّل لهم العذاب، وما طلبَ نبيٌّ من الأنبياء هلاك قوم، إلا إذا علم أن موتهم خير من وجودهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَيَلِدُوا إلاَّ فَاجِرَاً كَفَّارَاً﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولد ﴿قَالُوٓا۟﴾ لإبراهيم ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي قرية سدوم، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟

ظَـٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم والفساد، وحين ذكروا البشرى ما علّلوا، وعلّلوا الإهلاك، لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ﴾ فكيف تهلكونها؟ ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط فيها، وأنهم مهتمون بشأنه وشأن أهله، حسبما ينبيء عنه تصدير الوعد بالقَسَم، أي والله لننجّينه ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي الهالكين، الباقين في العذاب، لأنها كانت كافرة.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ الملائكة المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي اعتراه المساءة بسببهم، مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا﴾ أي ضاق صدره بشأنهم، لأنهم حسان الوجوه، جاؤوه بصورة أضياف ﴿وَقَالُواْ﴾ أي المرسلون حينما شاهدوا عليه مخايل التضجر من جهتهم ﴿لَا تَخَفۡ﴾ من قومك علينا ﴿وَلَا تَحۡزَنۡۖ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ مما يصيبهم من العذاب ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي من الهالكين الباقين في العذاب.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾.

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي عذاباً مؤلماً من السماء، سُمّي بذلك لأنه يُهلك المعذَّب، من قولهم: ارتجز البعيرُ إذا ارتعش واضطرب ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ﴾ أي من القرية ﴿ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً ﴾ هي قصتها العجيبة، وآثار ديارهم الخربة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يستعملون عقولهم في الاعتبار.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أي وارسلنا إلى مدين نبياً كريماً، هو شعيب عليه السلام ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وحده ﴿ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي ولا تسعوا بالإفساد في الأرض، بأنواع البغي والعدوان.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ الرجفة: الزلزلة الشديدة وفي سورة هود عليه السلام: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام، فإنها موجبة للرجفة بسبب تموجات الهواء، وما يجاورها من الأرض ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ ﴾ أي بلدهم أو منازلهم ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ ميتين باركين على الرُّكب.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ ﴾ أي أهلكنا عاداً وثموداً ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم ﴾ أي قد ظهر لكم إهلاكنا إياهم ﴿ مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ﴾ بالنظر إليها عند اجتيازكم بها، وكان أهلُ مكة يمرون عليها، في أسفارهم إلى الشام، فيبصرونها وهي خراب ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ من فنون الكفر والمعاصي ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ السوي الموصل إلى الحق ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ متمكنين من النظر والاستدلال، ولكن لم يفعلوا ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، حتى هلكوا.

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عن عبادة الله ﴿ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴾ أي مفلتين من عذاب الله، من قولهم: سبق طالبه إذا فاته ولم يدركه.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ ﴾ أي فكل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته ﴿ فَمِنْهُم ﴾ تفصيل للأخذ ﴿ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أي عاصفاً، وهم قوم لوط أهلكهم الله بحصباء من السماء، فدمَّرهم عن آخرهم، وجعل ديارهم عاليها سافلها ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ كمدين وثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ

﴿خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وكفرعون وجيشه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك، وتكذيب الرسل، والطغيان، حيث أذلُّوا أنفسهم في عبادة الأوثان.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي فيما اتخذوه معتمداً ومتكلاً، في اعتمادهم عليها، ورجائهم نفعها ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ كمثل العنكبوت بنت لها بيتاً، لا يغني عنها في حرٍّ أو بردٍ، وَنَسَجتْه وهو ضعيف، يكاد يطير من لفحة هواء، ولهذا كان سريع الزوال ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ حيث لا يرى شيء يدانيه، في الوهن، والتفاهة، والحقارة، ولهذا يقال في الأمثال «أوهى من بيت العنكبوت» ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، لجزموا أن دينهم أوهن من ذلك، لأن المعبود ينبغي أن يكون منه الخلقُ، والرزقُ، ودفع الضُرِّ، وجرُّ النفع، فإن من لا يكون كذلك، فهو والمعدومُ سواء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي هو تعالى العالم بما يعبدون من دونه، لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم، سواء منهم من عبد الحجر أو البشر ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وفيه تجهيلٌ لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر الحكيم.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ ﴾ أي هذا المثل وأمثاله ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي نبيِّنها للناس تقريباً لما بَعُد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ الراسخون في العلم، المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي، والتمثيل يؤثّر في النفس تأثير الدليل، ودلت الآية على فضل العلم.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي محقاً مراعياً للحِكَم والمصالح، والمقصود من خلقهما إفاضة الخير على العباد ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ دالة على ما ذكر من شؤونه سبحانه، وفيه دلائل على عظم قدرته وعبرة للمعتبرين ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خُصُّوا بالذِّكر لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته، فإن القارىء المتأمل، قد ينكشف له بالتكرار، ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه، وتذكيراً للناس بما فيه من الأحكام، ومحاسن الآداب والأخلاق ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي داوم على إقامتها ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ ﴾ أي من شأنها وخاصيتها، أن تنهى الناس وتمنعهم ﴿ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾

ومعنى نهيها عنهما، لأنها مناجاة لله تعالى، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته، وإعراضٍ عن كل معاصيه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصلاةُ رادعٌ ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم تزده صلاتُه من الله تعالى إلاَّ بُعْداً» والمصلي يناجي ربه، فيستحيل أن يترك طاعة الله ويطيع الشيطان، والمصلي يلبس لباس التقوى فيتجنب قاذورات الفحشاء، ومن أقام الصلاة، عصمه الله تعالى عن المنكر والفحشاء ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ أي والصلاة أكبر من سائر الطاعات، فينبغي أن تكون على أبلغ وجوه التعظيم، وإنما عبر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله، هو العمدة في كونها مفضَّلة على الحسنات، وناهية عن السيّئات، وقيل: معناه ولذكرُ الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله، إلاَّ حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلتْ عليهم السكينةُ، وذكرهُمُ الله فيمن عنده»[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من سائر الطاعات، فيجازيكم أحسن المجازاة.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، على وجهٍ لا يدل على ضعف، وأهلُ الكتاب

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٧٠٠ في الذكر والدعاء والترمذي في الدعوات رقم ٣٣٧٥.

لما آمنوا بالله، وبإنزال الكتب، والحشر، فلمقابلة هذا يجادلُون بالأحسن، بخلاف المشرك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال النبي ﷺ «لا تصدِّقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم». .[1] ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة، وفيه تعريض لحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن العظيم ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كعبد الله ابن سلام وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي يصدّقون بالقرآن وبمن أُنزل عليه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي من العرب أو أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عبّر عن الكتاب بالآيات، لظهورها وقيام الحجة عليها، بأنها من عند الله ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتوغلون بالكفر والتكذيب.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/١٢٩ تفسير سورة البقرة.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أي من قبل إنزالنا إليك الكتاب، ما كنت تقدر أن تتلو شيئاً من كتاب ﴿ وَلَا تَخُطُّهُۥ ﴾ أي ولا تقدر أن تخطَّه ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ حسبما هو المعتاد، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي، ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط، لارتابوا وقالوا: لعلَّه التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك، لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلاً، لأن ظهور كتاب جامع لأنواع العلوم الشريفة، من أميٍّ لا يعرف القراءة والكتابة، خارقٌ للعادة.

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ واضحات، ثابتة راسخة ﴿ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب، فمن خصائص القرآن، كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المتجاوزون للحد في الشر والفساد، والمكابرة والعناد، بعد وضوح إعجازها.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ينزّلها حسبما يشاء، من غير دخل لأحد في ذلك قطعاً ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار، وإبانته بما أوتيته من الآيات، وليس لي أن أقول أنزل عليَّ آية كذا.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى، رداً على اقتراحهم، أي أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات، الكتاب الناطق بالحقّ والصواب ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾؟ في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحل ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب العظيم، الباقي مرَّ الدهور ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لمن همه الإيمان دون التعنُّت كأولئك المقترحين.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بما صدر عني وعنكم بتبليغ ما أرسلت به إليكم، ومقابلتكم بالتكذيب، والتعنت، وهذا إنذار وتهديد ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وهم الذين آمنوا بالطواغيت والأوثان والرهبان ﴿ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي المغبونون في صفقتهم، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإبهام.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ على طريق الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد؟ ونحو ذلك ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم، وبيَّنه في اللوح المحفوظ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعيَّن لهم حسبما استعجلوا به، وقيل المراد بالأجل يوم القيامة ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي وبالله ليأتينَّهم العذاب الذي عين لهم، عند حلول الأجل (بغتة) أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يستعجلون بالعذاب، والحال أن محل العذاب سيحيط بهم، تنزيلاً لحال السبب منزلة المسبَّب، لإحاطة الكفر والمعاصي بهم.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي أشير إليه بإحاطة جهنم، يكون من الأهوال ما لا يفي به المقال ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا على الاستمرار، التي من جملتها الاستعجال مع الاستهزاء، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملونه للمبالغة، بطريق إطلاق اسم المسبَّب على السبب.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين، الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي، لممانعةٍ من جهة الكفرة، وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهل

لكم العبادة في بلد، ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فيها، فهاجروا حيث يتسنى لكم ذلك.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثاً على المسارعة في الامتثال بالأوامر، أي كلُّ نفس من النفوس، واجدةٌ مرارة الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي فراجعةٌ إلى حكمنا بحسب أعمالها، فمن كانت عاقبته هذه، فلا بدَّ له من التزود والاستعداد لها.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ أي لننزلنَّهم ﴿ مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ أي علالي قصور الجنة، ونسكنهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية أجراً للعاملين.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي صبروا على أذية المشركين، وشدائد المهاجرة، وغير ذلك ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيما يأتون ويذرون، ولا يتوكلون إلا على الله تعالى.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حملها لضعفها لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي إنها لا تطيق الكسب لضعفها ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم، لأن رزق الكل بأسباب، هو المسبب لها وحده، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة، ولولا أن الله يرزقكم لكنتم أعجز من الدواب، التي لا تحمل رزقها[1]، قيل: لا يدَّخر من الحيوانات قوتاً: إلاَّ ابن آدم، والفأرة، والنمل ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المبالغ في السمع، يسمع قولكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

رُوي أن النبي ﷺ لما أمر المؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة، قالوا: كيف نخرج وليس لنا بها دار، ولا مال؟ فأنزل الله هذه الآية، وفي الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله، لرزَقكم كما يرزقُ الطير، تغدو خِماصاً، وتروح بِطَاناً[2]».

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي أهل مكة، إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردُّد فيه، لمَا تقرَّر في

---

(١) القصد من الآية: التقويةُ لقلوب المؤمنين، إذا خافوا الفقر والجوع، عند الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة، مع عجزها وضعفها، كذلك يرزق المؤمنين إذا هاجروا من أوطانهم، نصرةً لدين الله، فلا ينبغي لأحدٍ أن يخاف الفقر، إن هاجر في سبيل الله، فالله هو الخالق وهو الرازق.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٤٥ في الزهد، ومعنى خماصاً أي جياعاً، وبطاناً أي شباعاً.

العقول من أن كل صنعة لا بدَّ لها من صانع، وكل مخلوق لا بدَّ له من خالق، وهو الله واجب الوجود ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد لتركهم العمل بموجبه، أي فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى في الألوهية، مع إقرارهم بتفرده تعالى بالخلق والتسخير؟.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي يقدر ويُضيّق لمن يشاء أن يقدر له منهم، كائناً من كان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له، أو يضيّق عليه، حسب ما يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلاً منهما في وقته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بأن الموجد للممكنات بأسرها، هو الله تعالى، ثم إنهم يشركون به تعالى؟ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده، وأنه تعالى عصمك من أمثال هذه الضلالات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، حيث يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق، ويعبدون غيره.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية، لامتناع جريان الموت والفناء عليها ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة الدارين، لما آثروا دار الفناء على دار البقاء.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ أي فإذا ركبوا في البحر، ولقوا شدائده ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي لا يدعون غير الله تعالى، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلاَّ هو سبحانه ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي آثروا المعاودة إلى الشرك، قيل: كان أهل الجاهلية، إذا ركبوا البحر، حملوا الأصنام، فإذا اشتدت الريح ألقوها في البحر، وقالوا: يا ربّ، يا ربّ، يا مغيث أغثنا!!.

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي يفاجئون الأشراك ليكونوا كافرين بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ بسبب الشرك ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء تدبيرهم، عند تدميرهم، وهو وعيد وتهديد.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ أي ألم ينظروا ويشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدهم مكة المكرمة ﴿ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ مصوناً من النهب والتعدي، سالماً أهله من كل سوء ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ ﴾ يعني العرب يسبي بعضُهم بعضاً، وكانوا

حوله في تغاور وتناهب ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾؟ أي أبعد ظهور الحق ووضوحه، يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ ﴿ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهي المستوجبة للشكر، وتقديم الصلة في الموضعين، لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أنَّ له شريكاً؟ أي هو أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ وفي «لمَّا» تسفيهٌ لهم، بأنهم لم يتأملوا فيه، بل سارعوا إلى التكذيب بدون تريُّث ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ أي ألا يستوجبون الإقامة في جهنم، وقد فعلوا ما فعلوا!؟ فمستقرهم ومسكنهم نار جهنم.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي في شأننا ولوجهنا، خالصاً لمرضاة الله سبحانه ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، ونثبتهم على الهداية والإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معية النصر والمعونة في الدنيا، والمغفرة والثواب في العقبى، والله أعلم بأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت»

* * *



مكية وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③﴾.

﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام، أو أدنى أرض الروم إلى فارس ﴿وَهُم﴾ أي الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أي من بعد مغلوبيّتهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس ويقهرونها.

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④﴾.

﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ أي في فترة قصيرة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبِضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع، وسبب نزول هذه الآية، على ما ذكره المفسرون، أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودُّون أن تغلب فارسُ الرومَ، لأن فارس كانوا مجوساً، والمسلمون يودون غلبة

الروم، لكونهم أهل كتاب، فغلبت فارسُ الرومَ، فبلغ ذلك الخبرُ المسلمين بمكة، فشقَّ عليهم، وفرح به كفار مكة وقالوا: قد ظهر إخواننا من أهل فارس، على إخوانكم من أهل الروم، فلنغلبنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية معجزة للرسول ﷺ حيث أخبر عن أمرٍ غيبي، وشاهدة بكون القرآن من الله تعالى ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي في أول الوقتين وفي آخرهما، حين غُلِبوا، وحين يَغْلِبون، فالمعنى: إن كلاً من كونهم غالبين أو مغلوبين، ليس إلاّ بأمر الله وقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم إذْ يغلب الرومُ، ويحلُّ ما وعد الله به ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ من غلبتهم، وقيل: نصر الله: إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين، من غلبة الروم على فارسَ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزة والغلبة، ينتقم من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة لأوليائه وأحبابه.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، كأنه قيل: وَعَدَ الله وعداً بظهور الروم عليهم ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ أيَّ وعدٍ كان، مما يتعلق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من شؤونه تعالى وحكمته.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ زخارفها وأحوالها الموافقة لشهواتهم، كأمر معاشهم، كيف يكسبون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟ وتنكير ﴿ظاهراً﴾ للتحقير، أي يعلمون ظاهراً حقيراً من الدنيا ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي وهم عميٌ عن أمر الآخرة، التي هي الغاية القصوى، ومن الناس من ينقر الدرهم بطرف ظفره، فيعرف جيده وزيفه، وهو لا يعرف كيف يصلّي، أي يعلمون ظاهرها ولا يعلمون باطنها، وهي مضارّها وفناؤها، وإيرادها جملة اسمية، للدلالة على استمرار غفلتهم، وتشبيهاً لهم بالحيوانات، المقصور إدراكها بظاهرها.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ﴾ فإنها أقرب إليهم من غيرها، ومرآة يتجلّى فيها للمستبصر، ما يتجلى له في الممكنات بأسرها، ليتحقّق له قدرة مبدعها ﴿ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ الذي يحقُّ أن يثبت، أي ما خلقهما إلا بالحكمة البالغة، والغرض الصحيح، الذي يدلُّ على وجود صانعها ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بأجل معيَّن، قدَّره الله تعالى لبقائها، وهو وقت قيام الساعة ﴿وإنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِم لَكافِرُونَ﴾ توضيحٌ مقرِّر لما قبله ببيان السبب أي وأكثر الناس غير مقتصرين على الغفلة، وعدم التفكر، بل هم منكرون لقاء حسابه تعالى، يحسبون أنَّ الدنيا أبدية، وأن الآخرة لا تكون.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ توبيخ لهم على عدم اعتبارهم، بمشاهدة أحوال أمثالهم، الدالة على عاقبتهم، فقد سافروا في أقطار الأرض وشاهدوا ولم يعتبروا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كعاد وثمود ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وأقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿ وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ ﴾ أي قلبوها للزراعة والحرث. ﴿ وَعَمَرُوهَآ ﴾ بفنون العمارات ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي أكثر من عمارة هؤلاء لها، وفيه تهكم بهم، حيث كانوا مغترين بالدنيا، مع ضعف حالهم، وهم أهل واد غير ذي زرع ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي جاءتهم بالآيات الواضحات، والمعجزات الساطعات ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم من غير جرم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم كذبوا رسلهم واقترفوا ما يوجب هلاكهم، فدمَّرهم الله ولم تنفعهم قواهم.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ السُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي عملوا السيئات، وارتكبوا الجرائم في هذه الحياة الدنيا، ووضعُ الاسم الموصول ﴿الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ موضع ضميرهم، للتسجيل عليهم بالإساءة وللإشعار بعلة الحكم ﴿ السُّوٓأَىٰٓ﴾ أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على رسوله، ومعجزاته الظاهرة ﴿ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي كانوا يسخرون منها ولا يؤمنون.

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء، والالتفاتُ للمبالغة في الترهيب.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ التي هي وقت الإعادة للحساب ﴿ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي يسكتون متحيرين وييأسون، يقال: ناظرته فأبلس، أي أيسَ من أن يحتجَّ، وسكت تحيراً.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾ يجيرونهم من عذاب الله، كما كانوا يزعمونه في الدنيا ﴿ وَكَانُواْ ﴾ أي سيكونون ﴿ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ أي بآلهتهم ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ أي وكفروا بآلهتهم حين يئسوا منهم.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أعيد لتهويله ﴿ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ أي جميع الخلق، لا المجرمون خاصة، وذلك بعد تمام الحساب.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ المراد بها الجنة، والروضةُ كل أرض ذات نبات، وماء، ورونق ونضارة ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ أي يُسرُّون سروراً تتهلل له وجوههم.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا بآياتنا، وكذبوا بالبعث والحساب ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصِّل ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨﴾.

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ أمر سبحانه عباده بتنزيه الله تعالى، عن كل ما لا يليق بشأنه، أي فسبِّحوا الله في هذه الأوقات.

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ واحمدوه في المساء والصباح، وفي العشي والظهيرة، فهو سبحانه المحمود بذاته وصفاته، في السماء والأرض، أي يحمده أهل السماء والأرض، وفي الحديث الشريف: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان للرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1] وقيل: المراد به الصلاة أي صلُّوا لربكم في الصباح والمساء، وفي الظهيرة والليل، قيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وتلا هذه الآية.

﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١٩﴾.

﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان. والشجرة من النواة، والنواة من الشجرة ﴿وَيُحۡيِ

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ١١/ ١٧٥ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٩٤ وقد ختم الإمام البخاري صحيحه بهذا الحديث الشريف.

﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي بعد يبسها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي من قبوركم، كما بدأكم يعيدكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي البراهين الدالة على أنكم تبعثون، دلالةً أوضح مما سبق، فإن دلالة بدء الخلق على الإعادة، أظهر من دلالة إخراج الحي من الميت، ومن إحياء الأرض، ولهذا قال ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي في ضمن خلق آدم عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أي من تراب لم يشمَّ رائحة الحياة قط، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه، في ذاتكم وصفاتكم ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي فجئتم بعد ذلك، وقت كونكم بشراً ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض، عقلاء ناطقون، آدميون من لحم ودم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على ما ذُكر من البعث والجزاء ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي لأجلكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي لتألفوا بها، وتميلوا إليها، وتطمئنوا بها، فإن المجانسة من دوام المؤانسة، كما أن المخالفة من أسباب التنافر، والإنسان يجد بين الزوجين من التراحم، ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي، وتبقى الرحمة لأنها من الله جلَّ وعلا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بين الأزواج ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي تواداً وتراحماً من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، ولا رابطة مصححة للتعاطف ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من خلقهم، وإلقاء المحبة بينهم ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل، المبنية على الحكم البالغة.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على عظمتها وكثافتها ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي لغاتكم، بأن علَّم كل صنف لغته، وألهمه وضعها، كما ميَّز بين نطقكم، فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين من كل وجه ﴿ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ كبياض الجلد وسواده، وتخطيطات الأعضاء وهيآتها، بحيث يقع بها التمايز بين الأشخاص، حتى إن التوأمين ـ مع توافق موادهما وأسبابهما في التخليق ـ يختلفان في شيء من ذلك، وإن كانا في غاية التشابه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر من خلق السموات، واختلاف الألسن، والألوان ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ أي للمتصفين بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي في الزمانين: في الليل، ووقت الظهيرة بالنهار، لاستراحة القوى النفسانية، والقوى الطبيعية ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي وابتغاؤكم بالنهار من رزق الله[1]، فالليل للراحة والسكون،

---

(١) ينبغي للعبد أن لا يرى الرزق من كسبه ومهارته، بل يراه كله من فضل ربه، ولهذا قرن تعالى الابتغاء في كثير من المواضع بالفضل، منها قوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ وقوله سبحانه: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فالرزق رزقُ الله، والخلق خلقُ الله وصدق الله العظيم ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾.

والنهار لطلب الكسب والرزق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام، سماع تفهم واستبصار، حيث يستدلُّون بذلك على شؤونه تعالى.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث من أجل الزرع ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدرة الله تعالى فإنها من الظهور بحيث يكفي في إدراكها، مجرد العقل، عند استعماله في استنباط أسبابها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ﴾ أي بإقامته، وتدبيره، وحكمته قيامهما بأمره تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم، وهو أن يقول: قوموا للحساب والجزاء، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين، إلاَّ قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ والمراد تشبيه سرعة حصول ذلك، على تعلق إرادته سبحانه بلا توقف.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي منقادون خاشعون خاضعون لجلال الله، مقرون له بالعبودية، مطيعون له سبحانه في الحياة والبقاء، والموت والبعث[1]، وإن عصوا في العبادة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ بعد هلاكهم للبعث ﴿ وَهُوَ ﴾ أي البعث ﴿ أَهۡوَنُ ﴾ أي أيسر ﴿ عَلَيۡهِۚ ﴾ أي عندكم، لأنَّ الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فلم أنكرتم الإعادة؟ ﴿ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ﴾ أي الوصف الأعلى العجيب الشأن، كالقدرة التامة، والحكمة العامة ﴿ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه فيه ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ أي على ألسنة الخلائق ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ القادرُ الذي لا يعجز عن شيء ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الذي يُجري الأفعال على مقتضى حكمته.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨ ﴾.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ ﴾ منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور

---

(١) ليس على الله عزَّ وجل شيء صعبٌ، وشيء هيِّنٌ، فالكل على الله سهل يسير، ولكنه سبحانه خاطب البشر بما يعقلون ويفهمون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء، في حكمهم وتقديرهم، فليدركوا إذاً أن من قدر على الخلق أولاً قادر على الإعادة ثانياً، فالبعث أهون عليه حسب منطق البشر، والغرضُ من الآية إلزام الكفار بالحجة حيث يقرّون أن الله هو الخالق، ثم ينكرون قدرته على إحياء الموتى.

إليكم، مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ، لمن جعل له شريكاً من خلقه، ثم بيَّن المثل فقال تعالى ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي من مماليككم يا معاشر الأحرار ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه، هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر أن يشاركوكم ﴿فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ﴾ والعبيد ﴿فِيهِ﴾ في ذلك الرزق ﴿سَوَآءٌ﴾ من غير تفضيل بين حر، وعبد ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أي خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال، تخافون عبيدكم فيها ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني كما يخاف بعضُ الأحرار بعضاً، فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لربِّ الأرباب أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبيِّنها، لأن التمثيل يكشف عن المعاني ويوضّحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال. ولمَّا لم ينزجروا أضرب عنهم فقال:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالإشراك ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جاهلين لا يكفُّهم شيء عن ضلالهم ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ فمن يقدر على هداية من أضله الله تعالى ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة، وينجونهم من عذاب الله.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي فقوِّمْ وجهك له، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيلٌ لإقباله على الدين، والاهتمام به أي أخلص دينك لله ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي الزموا فطرة الله ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي خلقهم عليها، فالمعنى: إنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام، حتى لو تُركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، فمن غوى منهم فبسبب شياطين الجن والإنس، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة، ثم قال اقرؤوا: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا﴾»[1] ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يقدر أحد أن يغيِّره، قال الزجاج: معناه لا تبديل لدين الله، ويدلُّ عليه ما بعده ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة لا يتفكرون فينحرفون عن دين الله وهدايته.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾.

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه تعالى بالتوبة، وإخلاص العمل، وهو حال من الضمير في: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن الأمر له ﷺ أمرٌ لأمته، فكأنه قال: فأقيموا وجوهكم منيبين إليه، ودليله قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان «البخاري ومسلم» وتمامه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟ ثم قال ﷺ: واقرؤوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وانظر جامع الأصول ١/٢٦٨.

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي صاروا فِرَقاً، كلٌّ واحدة تشايع إمامها، الذي أضلها، وهم اليهود، والنصارى، والمجوس، وعبدة الأوثان، ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي مسرورون، راضون بما عندهم، يحسبون باطلهم حقاً، وكل فرقة تزعم أنها على شيء، ونعوذ بالله من تفرق الأهواء.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه سبحانه بالتضرع والدعاء ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي خلاصاً من تلك الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ ﴾ الذي كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا بالإشراك؛ وتخصيصه ببعضهم، لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾[1] الآية.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ اللامُ فيه للعاقبة، أي ليكفروا بنعم الله التي أكرمهم بها ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ الالتفات فيه للمبالغة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تمتعكم بنعيمها الفاني.

---

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا ﴾ الالتفات للإيذان بالإعراض عنهم ﴿ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ حجة واضحة قاهرة على شركهم ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ أي بإشراكهم به تعالى، فالمعنى: أهم يتبعون الأهواء بغير علم، أم لهم دليل على ما يقولون؟.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ أي نعمة من صحة، وسَعَة، ونحوهما فرحوا بَطَراً وأَشَراً، لا حمداً وشكراً ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ ﴾ أي جدبٌ أو خوف ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤوا بالقنوط من رحمة الله، وهو خلاف وصف المؤمن لأن المؤمن من يشكر ويرجو، ويعبد الله في الشدة والرخاء، مخلصاً لله تعالى.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء، ويضيّقه على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة فما لهم لم يشكروا، ولم يكونوا في السراء والضراء كالمؤمنين؟ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ يستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يؤمنون بحكمة الخالق الرازق.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تخصيص الأقسام الثلاثة، لبيان من يجب الإحسان إليهم، والمقصود ههنا الشفقة بهم، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح له ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ذاته تعالى، ويقصدون بمعروفهم إياه خالصاً لوجهه ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حيث حصل لهم النعيم المقيم.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي ليزيد مالكم ويكثر عن طريق الربا ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يبارك الله فيه ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي ذاته خالصاً لوجهه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، ونظيرُ المضعف، المقوي، والموسر، لذي القوة واليسار، كأنه قال: هم أهل الإضعاف الذين يستحقون مضاعفة الأجر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصَّها، ونفاها عما اتخذوه من الشركاء، أي الله سبحانه هو وحده الخالق الرازق، خلقكم من العدم، ثم يبعثكم بعد الموت، فهل من آلهتكم المزعومة من يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزّه وتقدس عن أن يكون له مثيل أو نظير، في الخلق والإبداع.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ كالجدب، وكثرة الحَرَق، والغَرَق، ومحقِ البركات، وكثرة المضار، وقلة المطر ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾ أي بشؤم معاصيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ ﴾ أي بعض جزائه، وتمامُه في الآخرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي، ثم أكد تسبُّب المعاصي لغضب الله بقوله سبحانه:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ﴾ ليشاهدوا آثارهم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ أي ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو الدين الحق دين الإسلام، خاطب النبي ﷺ، ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلَّف به، فإنه أُمِرَ به أشرفُ الأنبياء ﷺ ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ أي لا يقدر أحدٌ على ردِّه ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي لتعلق إرادته سبحانه بمجيئه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أصله يتصدَّعون أي يتفرقون فريقٌ في الجنة، وفريق في السعير.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ أي وبالُ كفره، وهو النار المؤبدة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ولم يقل من آمن لأن العمل الصالح يكمّل الإيمان ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يسوُّون ويهيئون لهم منزلاً في الجنة، مأخوذ من تمهيد الفراش، وهو فرشُه وتهيئته بما يحقّق الراحة.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي ليجزي المؤمنين المتقين أفضل الجزاء، من فضله وكرمه، بسبب صالح أعمالهم ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي لا يحب الجاحدين لفضل الله، بل يكرههم ويمقتهم.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي وليكرمكم بإنزال الغيث الذي يحيي البلاد والعباد، وفي الرياح فوائد: منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها، وزكاء الأرض، وغير ذلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ بتجارة البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات، والحجج الساطعات فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم ﴿ فَٱنتَقَمْنَا ﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ أي كفروا، بالإهلاك في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مزيد تشريف للمؤمنين، والإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجلهم، روي عن أبي الدرداء أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردُّ عن عرض أخيه، إلاَّ كان حقّاً على الله، أن يردَّ عنه نار جهنم، يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية[1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته يبعث الرياح فتحرّك السحاب، وتسوقه أمامها ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ ﴾ تارةً ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ في جوّها ﴿ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق ﴿ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ تارة أخرى أي قطعاً ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أي المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ أي أصاب المطر بلادهم وأراضيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يُسرُّون ويفرحون بنزول الغيث، وفوجئوا بالاستبشار بمجيء الخصْب.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم ٤٨٨٤ بلفظ «ما من مسلم يخذل امرأً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته.. وما من مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حرمته، إلاَّ نصره الله في موطن يحبُّ فيه نصرته».

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ تكرير «قبل» للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي آيسين من رحمة الله، فإنهم إذا حبس عنهم المطر قنطوا، وإذا نزل المطر بطروا، وتكبَّروا على ربهم.

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تبصُّر وتدبر، إلى آثار نعمة الله، المترتبة على تنزيل المطر، من النبات، والأشجار، وأنواع الثمار ﴿ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي كيف يحييها الله تعالى ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ بعد يبسها ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي الذي قدر على إحياء الأرض ﴿ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي لقادر على إحيائهم كما يحيي الأرض الميتة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع، بعد خضرته ونموّه، ريحاً ضارة مفسدة، وإنما قال ﴿رِيحاً﴾ لأنها مهلكة ومدمرة، وتسمى النافعة رياحاً، والضارة ريحاً، لأن النافعة كثيرة الهبوب، والضارة قليلة كريح السموم ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ أي فرأوا الزرع والنبات ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ بعد خضرته وانتعاشه ﴿ لَّظَلُّواْ ﴾ اللام جواب القسم أي لاستمروا أي وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصَّفار، فرأوه مصفراً ليظلُّنَّ ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يجحدون ما سَلَف من النعمة، من غير تلعثم، وفيه

ذمهم لسرعة تزلزلهم، فإن النظر السويَّ يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولا ييئسوا من رحمة الله، وأن يصبروا على بلائه.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار لأنهم كالموتى، لانسداد مشاعرهم عن الحق ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ قيد الحكم به لأن الأصم إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولّى، لا يسمع ولا يفهم، فقد جمعوا لخصلتي السوء: نبوّ أسماعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كان أحدهما فيهم لكفاهم ذلك بلاءً.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ﴾ سمَّاهم عمياً لفقدهم المقصود من الإبصار، أو لعمى قلوبهم ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع ﴿ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها، ويلقاها بالقبول ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأوامر الله تعالى.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ وهو النطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغكم الحُلُم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ أي هرماً ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ المبالغ في العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ﴾ أي ما مكثوا في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق ﴿كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق في الدنيا، ويقولون: ﴿ما هي إلاَّ حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعُوثينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي قال العقلاء من أهل العلم والإيمان ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه وقضائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ ردُّوا بذلك ما قالوه، وأيدوه باليمين، كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود، الذي كانوا ينكرونه، فرد العالمون مقالتهم وبكَّتوهم بالإخبار بوقوعها، حيث قالوا ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم توعدون في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق، فتستعجلون به استهزاءً.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يُدعون إلى ما يقتضي استعتابهم، أي فلا يقال لهم أرضوا ربكم بالتوبة والطاعة، كما دُعوا في الدنيا إليه.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي وبالله لقد بينّا للناس في هذا القرآن العظيم، ما يحتاجون إليه من المواعظ، والأمثال، والأخبار، ما يوضّح الحقّ، ويزيل اللّبس ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لفرط عتوهم وعنادهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي ما أنتم إلا مزوّرون تدجّلون علينا وتكذبون.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

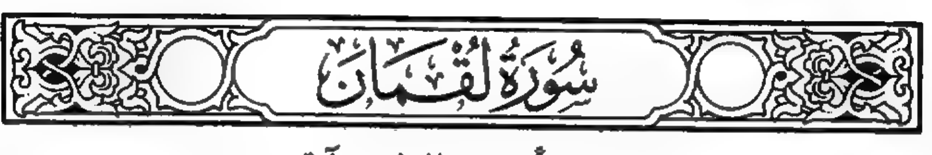
﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يطلبون العلم، ولا يتحرون الحق، بل يصُرّون على خرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحقّ.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تشاهد منهم من السخرية والتكذيب ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصرتك، وإظهار دينك على الدين كله، ولا بد من إنجاز وعده، وإظهار دينه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يحملنّك على الخفّة والقلق مما تلقاه منهم من الأفعال السيئة، والأقوال الباطلة ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات، ولا تترك الصبر لتكذيبهم وإيذائهم. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم»

* * *



وهي أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي المحكم من التغيير والتبديل، والمحكم في تشريعه وأحكامه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾.

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي هداية ورحمة للمؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا واتقوا الله.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ تخصيصُ الثلاث لفضلها، وتكرير الضمير للتوكيد.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي الفائزون بجميع أنواع السعادة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي يستبدل ما يُلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله، مما لا خير فيه ولا فائدة، كالأحاديث المضحكة، والأساطير التي لا اعتداد بها، والغناء الماجن، وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أخبار العجم، ويحدِّث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدِّث بعاد، وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسنفديار، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن، وقيل: هو شراء المغنِّيات، وحملهن على معاشرة من أراد الإسلام لمنعه عن الدخول فيه، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات والمغنيات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهنَّ، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام، وفي مثل هذا نزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيث﴾[1]» الآية ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي عن دينه الحق، أو عن قراءة كتابه ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بغير حجة أو برهان ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ ﴾ ويتخذ السبيل سخرية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذُكر ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ لإهانتهم الحق، بإيثار الباطل، وترغيب الناس فيه.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٩٣، وابن ماجه في التجارات رقم ٢١٦٨ باب ما لا يحل بيعه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي على المشتري ﴿ ءَايَٰتُنَا ﴾ أي آيات القرآن الكريم ﴿ وَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عنها غير معتدٍّ بها ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مبالغاً في التكبر، لا يعبأ بها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كحال من لم يسمعها ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي مشابهاً بمن في أذنيه ثقل وصممٌ، لا يقدر أن يسمع، والوَقْرُ: الثِّقَلُ والصمم الذي يمنع من السمع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأنذره بالعذاب المفرط في الألم، والأسلوب أسلوب تهكم وسخريةٍ، لأن البشارة لا تكون بالعذاب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي صدَّقوا الله ورسوله، وآمنوا بما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي فعلوا الخيرات، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة، وفي توحيد العذاب، وجمع الجنات، إشارة إلى أن الرحمة واسعة، أكثر من الغضب.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ ﴾ مصدران مؤكَّدان، لأن قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في معنى وَعَدَ اللهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لا يغلبه شيء، فيمنعه عن إنجاز وعده، ووعيده ﴿ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ أي خلقها بغير دعائم، حال كونكم ترونها كذلك ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾ أي كيلا تضطرب بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ ﴾ أي من كل أنواع الحيوانات.. والدواب ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ من كل صنف كثير المنفعة، وكأنه تعالى استدلَّ بذلك على عزته، التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهَّد به قاعدة التوحيد، وقرَّرها بقوله سبحانه:

﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ أي ما ذُكر من خلق السماوات والأرض وما فيهما من البدائع ﴿ خَلۡقُ ٱللَّهِ ﴾ أي مخلوقاته ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ﴾؟ مما اتخذتموهم شركاء له تعالى في العبادة؟ ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذُكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال المبين.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ وهو لقمان الحكيم عاش حتى أدرك داود عليه السلام، والجمهور على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام أياماً، وكان يسرد الدروع، فلم يسأله عنها، فلما أتمَّها ولبسها قال: «نعم لَبُوسُ الحرب» ومن أقواله: «الصمتُ حكمةٌ

وقليلٌ فاعله» ومنها «القلب واللسان، هما أطيبُ شيء إذا طابا، وأخبثُ شيءٍ إذا خبثا» قيل له: فبم بلغت ما بلغت؟ قال: «بصدقِ الحديثِ، وأداء الأمانة، وتركِ ما لا يعني» ومنها قولُه: «ليس مالٌ كصحة، ولا نعمةٌ كطيب نَفس» قيل للقمان: أيُّ الناس أشرُّ؟ قال: «الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً» ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أي اشكر لله تعالى ﴿ وَمَن يَشْكُرْ ﴾ له تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ لأن منفعته تعود عليه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عن كل شيء، فلا يحتاج إلى الشكر، حتى يتضرر بكفران الكافر ﴿ حَمِيدٌ ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود يحمده جميع المخلوقات.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ أي وهو ينصحه ويرشده ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ تصغير إشفاق ورحمة ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً، بشراً أو صنماً، ولا تعبد غير الله ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليلٌ للنهي، وسماه ظلماً لأنه وضع العبادة في غير موضعها. بدأ بالأقرب وهو ابنه، وبالأهم وهو المنع من الشرك، الذي هو أعظم الذنوب على الإطلاق.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ (١٤) ﴾.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً، وعهدنا إليه بهذه الوصية، وهي الإحسان إلى والديه، وجاء هذا في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصيناه بمثل ما وصّىٰ به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك، فإنهما مع أنهما اقترن ذكرهما مع الله تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة، لا يجوز طاعتهما في الإشراك بحالٍ

من الأحوال ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أي ضعفاً فوق ضعف، لأنها لا تزال يتضاعف ألمها، إذ الحملُ ضعفٌ، والطَّلق ضعفٌ، والرضاعةُ ضعفٌ ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ وهي مدة الرضاع، أي وفطامه في تمام عامين ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ تفسير لوصينا أي وصيناه بشكرنا ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي ويشكر والديه، لأن الوجود في الحقيقة من الله تعالى، والوالدان سبب لوجوده، فجعل الشكر بينهما ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي الرجوع إليَّ لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر عنك.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، صحبة يرتضيها الشرع، وتقتضيها المروءة ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ بالتوحيد، والإخلاص في الطاعة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ شروعٌ في حكاية بقية وصايا لقمان ﴿إِنَّهَآ﴾ أي إن الخصلة من الإساءة والإحسان ﴿إِن تَكُ﴾ مثلاً في الصغر ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ أي وزن حبة الخردل ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لو كانت في غاية الصغر، في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة، أو

كانت السيئة التي يفعلها الإنسان في العالم العلوي، أو السفلي ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يحضرها اللهُ ويحاسب عاملها عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ بكنهه، عالم ببواطن الأمور، والغرض من الآية: التمثيلُ بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بعدما أمره بالتوحيد، في ضمن النهي عن الشرك، ونبَّهه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمره بالصلاة، التي هي أكمل العبادات، تكميلاً له من حيث العمل، بعد تكميله من حيث الاعتقاد، وهذا دليل على أن التوحيد والصلاة، مأمورٌ بهما في سائر الأمم ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن، لا سيما فيما أُمرت به ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي مما فرضها الله تعالى، والجملة تعليل لوجوب الامتثال، بما سبق من الأمر والنهي، فهذه الخصال من عزائم الأمور، التي حضَّ وحثَّ عليها رب العزة والجلال.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمله، ولا تولِّهم صفحة وجهك، كما هو ديدن المتكبرين، من الصَّعَر وهو داءٌ يصيب البعير، فيلوى منه عنقه يقال: صعَّر خدَّه أي أماله عن الناس، إعراضاً وتكبراً ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو البطر مصدر وقع موقع الحال أي فرحاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي يكره كل متكبر يفخر على غيره، وهو تعليل للنهي عن التكبر والخيلاء.

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ أي توسَّطْ بين البطء والإسراع، أما الإسراع فهو من الخيلاء، وأمَّا البطء فهو علامة الضعفِ، وكلا الطرفين مذموم، بل ليكن مشيُكَ بين السكينة والوقار ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ أي اخفض من صوتك ولا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل، ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ أي أوحشها، على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالبهائم، وفي الآية إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال.

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ ﴾ رجوع إلى سنن ما سلف، قبل قصة لقمان، من خطاب المكلَّفين، أي ألم تروا أيها الناس رؤية قلبية، كأنها مشاهدة بالبصر، إلى ما أنعم الله به عليكم ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ ﴾ أي محسوسةً ومعقولة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾ في توحيده وصفاته ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ أي بغير علمٍ مستفادٍ من الدليل ﴿ وَلَا هُدٗى ﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿ وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ أنزله الله سبحانه، بل بمجرد التقليد، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ يريدون به عبادة الأصنام ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ ﴾ أي يدعو آباءهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾؟ أي أيتّبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى ما هم عليه من الشرك والضلال؟.

> ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بأن فوَّض إليه نفسه بكليته، ومعنى التسليم حيث عُدّي باللام قصد معنى الإخلاص، كما في قوله تعالى: ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ أي خالصاً له، ومعناه مع ﴿إلى الله﴾ التفويض إليه تعالى ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في أعماله ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ ﴾ أي تمسَّك وتعلق ﴿ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي بحبل الله المتين، والآية على التمثيل كأنه تمسَّك بحبل متين لا ينقطع ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ لكل صائر إليه فيجازيه أحسن الجزاء.

> ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي ومن لم يؤمن بالله، ولم يُسلم له وجهه ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي، ونأخذهم بالعذاب والعقاب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي لا يخفى عليه سرُّهم وعلانيتهم، فيفعل بهم على حسب ما يستحقون.

> ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ تمتيعاً ﴿ قَلِيلًا ﴾ زماناً قليلاً، أي نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا، إلى انقضاء آجالهم ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يثقل عليهم تحمُّله، ثقل الأجرام الغلاظ، حيث يُضمُّ إلى الإحراق الشِدَّة، والتضييق، شبَّه تعالى إلزام التعذيب، باضطرار المضطر إلى الشيء المكروه، الذي لا تحبه النفس.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون عظمة الله وجلاله، وقدرته على الخلق والإحياء، فلذلك ينكرون وحدانيته وجلاله.

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي هو جلَّ وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أي لو ثبت كون الأشجار التي في الدنيا صارت كلها أقلاماً ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نفاده ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ أي مداد، والخلائق يكتبون بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله عزَّ وجل ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ لأنها لا نهاية لها، كما في قوله

تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ ربي﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيء أراده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، فلا تنفدُ كلماته المؤسَّسة عليهما.

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أي إلاَّ كخلقها وبعثها، في سهولة التأتي، إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن، لأن مناط وجود كل شيء، تعلُّق إرادته العليا مع قدرته الذاتية، حسبما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع كلَّ مسموع، ويبصر كل مُبْصَر، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض، فكذلك الخلق.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وقيل: عامٌّ لمن يصلح للخطاب وهو الأوفق، أي ألم تعلم أيها الإنسانُ علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا فيطول، ويُنقص من هذا فيقصر، ولهذا يطول النهار في بعض الفصول وينقص، وتلك آية كونية. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ الله يُولِجُ﴾ داخل معه في حيّز الرؤية، فإن من شاهد مثل هذا الصنع الرائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عزَّ وجل، محيطاً بجلائلِ أعماله، ودقائقها.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ أي ذلك الوصف الذي وُصف به، من عجائب قدرته وحكمته، التي يعجز عنه الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه تعالى هو الحقُّ الثابتُ إلّهيته، ولأجل بيان بطلان إلّهية ما يدعونه من دونه تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ أي وبيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء، فهو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بإحسانه ولطفه في تهيئة أسبابه، وهو استشهادٌ آخر على باهر قدرته، فقد سخَّر البحر لتجري فيه السفن الكبار، تحمل الأغذية والبضائع، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، تجري بهذه السفنِ الريح، والريحُ من نعم الله تعالى ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ ﴾ أي بعض آياته، وبعض دلائل وحدته ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ أي إن فيما ذُكر، لآيات عظيمة، ودلائل باهرة، لكل من يبالغ في الصبر على المشاقّ، وفي الشكر على نعمائه تعالى، وهما صفتا المؤمن، فكأنه قيل: لكل مؤمن، صابر شاكر.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ٣٢ ﴾.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ ﴾ أي علاهم وأحاط بهم الموجُ ﴿ كَٱلظُّلَلِ ﴾ كما

يُظلُّ الجبلُ، والسحابُ، يعني أن الموج الذي جاءهم كثيف مخيف، كالجبال هولاً وشدة ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي استغاثوا بالله، وأخلصوا الدعاء لله، لزوال ما ينازع الفطرة، من الهوى، والتقليد، وبما دهاهم من الهول والخوف الشديد ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي مقيم على القصد السويِّ، الذي هو التوحيد، وفي الآية حذف تقديره: ومنهم جاحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا...﴾.

نزلت في عكرمة بن أبي جهل، هرب عام الفتح إلى البحر، فجاءهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجانا الله من هذا، لأرجعنَّ إلى رسول الله ﷺ فأبايعه على الإسلام، فسكنت الريح، ورجع عكرمة إلى مكة، وأسلم وحَسُنَ إسلامُهُ[1]. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدَّار، والختر: أشدُّ الغدر ﴿كَفُورٍ﴾ أي مبالغ في كفران النعمة، يجحد فضل الله، ويكذِّب بآياته، وقليل من عباد الله الشكور!!.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي خافوا يوماً شديداً عصيباً، لا يقضي عنه شيئاً من التبعات، ولا يدفع عنه مضرة ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي ولا ولدٌ يدفع ويقضي عن والده شيئاً، ولا يتحمل عنه جنايته، وفيه قطع طمع من توقّع من المؤمنين، أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن إخلافه

---

(١) الآية على العموم، فهي تعمُّ كل كافر جاحدٍ لفضل الله وإنعامه، وما ذكر من سبب النزول لا يمنع العموم، فإن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما ذكر في علم الأصول.

أصلاً ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي فلا تخدعكم الحياة الدنيا بزينتها ومفاتنها ولذاتها، فتشغلكم عن طاعة الله وعبادته، ولا يخدعكم الشيطان المبالغ في الغرور للإنسان، بأن يحملكم على المعاصي، ويقول لكم: إن الله غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، فتركنوا إلى وساوسه وأباطيله. والإنسان قد يكون ضعيف العقل، فيغترُّ بأدنى شيء من بهرج، وقد يكون قويَّ الجأش متين العقل، ولكنْ إذا جاءه غارٌّ، وزيَّن وحسَّن له ذلك الشيء قد يغتر، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ للدرجة الأولى من البشر، وقال: ﴿ولاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ﴾ الإشارة إلى الثانية ليكون الإنسان محفوظاً من الاثنتين: فتنة الدنيا، وفتنة الشيطان اللعين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها، والمراد بالساعة مجيء يوم القيامة، فلا يعلمه أحد إلا الله، عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله» وتلا هذه الآية[1]. يحكى أن أبا جعفر المنصور رأى في منامه صورةَ مَلَك الموت، فسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها له المعبِّرون بخمس سنوات، وبخمسة أشهر، فاستدعى أبا حنيفة رحمه الله وسأله عن الرؤيا، فقال له: هو يشير إلى هذه الأشياء الخمس في الآية التي لا يعلمها إلاَّ الله، وتلا قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة..﴾ الآية. ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في أيامه المقدرة له وبالكمية التي يريدها الله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي يعلم سبحانه أذكرٌ أمْ أنثى؟ أتام أم ناقص؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٩٥ وفي الاستسقاء.

﴿مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ من خير أو شر، ربما تعزم على شيء فتفعل خلافه ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ كما لا تدري في أي وقتٍ تموت[1]، ونسبةُ العلم إلى الله، والدراية إلى العبد، للإيذان بأنه وإنْ بذل وسعه في التعرف لم يعرف، لأنه لم ينصب له دليل، ثمَّ لما في معنى الدراية من معنى الحيلة، والمعنى: إنها لا تعرف وإن أعملت حيلتها، يُقال: دريتُ الشيء أي عرفتُه وعلمتُه، أمَّا المنجِّم الذي يخبر بوقت الغيث، والموت، فإنه يقول ذلك بالقياس، والنظر، وهو كذاب في هذا، ولهذا ورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عَرَّافاً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ يعلم بواطنها، كما يعلم ظواهرها، لا تخفى عليه سبحانه خافية.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان»

* * *

(١) فإن قيل: لماذا لم يقل: «وما تدري نفس بأي وقتٍ تموت» وإنما قال: ﴿بأي أرضٍ تموت﴾ مع أن البحث عن وقت موت الإنسان؟ فالجواب: أن وجود الإنسان في مكانٍ ما في وُسع الإنسان واختياره، واعتقاد علم مكان موته أقرب، ومع ذلك لا يعرف الإنسان موطن موته، ولا المكان الذي ستكون منيّته فيه، فكيف يعرف وقت وفاته، هذا من باب أولى مستحيل، وإذا كانت وفاة إنسان في بلدٍ ما قدَّره الله له، جعل الله إليه حاجة في ذلك البلد، حتى يتم القضاء المبرم، والله تعالى أعلم.



مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الحروف الهجائية المقطَّعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما وضحناه في أول سورة البقرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيل بمعنى المُنْزِل، أنزله عليك ربُّ العزة والجلال، أي هذا القرآن العظيم، لا شك أنه من عند الله، أنزله عليك يا محمد ربُّ العزة والجلال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون يعني كفار مكة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه؟ وقد ردَّ الله عليهم ذلك، حيث جيء بأم المنقطعة، إنكاراً له وتعجباً منه، لغاية ظهور بطلانه، واستحالة كونه مفترى، ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكروه، فقال سبحانه ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بإضافة اسم

الرب إلى ضميره ﷺ تشريفاً له، ثم أيّد ذلك ببيان غايته فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن بيان غاية الشيء وحكمته، مما يقرِّب وجود الشيء ويؤكّده، وقد كانت قريش أضل الناس، وأحوجهم إلى الهداية، بإرسال الرسل، حيث لم يُبعث إليهم رسول قبله، أو قبل زمانه، إذ كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي كي يهتدوا إلى الدين الحقّ، والترجي معتبر من جهته ﷺ، أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي ما لكم إذا جاوزتم رضاءه، أحد ينصركم أو يشفع لكم ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ينجيكم ويخلصكم من بأسه وعذابه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فتتذكرون بها فتؤمنون؟. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الأخبار الموهمة للتشبيه، من الصورة، واليد، والنزول، والاستواء على العرش، وما يجري مجراها، إن الحق فيها هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين، ومن بَلَغه حديثٌ من هذه الأحاديث يجب عليه سبعة أمور: التقديسُ، ثم التصديقُ، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساكُ، ثم الكفُّ، ثم التسليمُ لأهل المعرفة. أما التقديسُ فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها، وأما التصديقُ فهو الإيمان بما قيل، وأنه حقٌّ على الوجه الذي قاله سبحانه وأراده، وأما الاعترافُ بالعجز فهو أن يُقرَّ بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من حرفته، وأمّا السكوتُ فأن لا يسأل عن معناه، ويعلم أن سؤاله بدعة، وأن في خوضه مخاطرة في دينه، وأما الإمساك فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف

والتبديل، والزيادة فيه والنقصان، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وأمَّا الكفُّ فأن يكفَّ عنه البحث والتفكر فيه، وأما التسليم لأهله فإن لا يعتقد أن ذلك خفيَ على الأنبياء والعلماء، كما قال الإمام أحمد: آيات الصفات وأحاديث الصفات، تُمرُّ كما جاءت، نؤمن بالآية والخبر، ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم علام الغيوب.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٥).

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يدبر أمر الدنيا، وينزل ما دبَّره وقضاه، بأسباب سماوية، من الملائكة وغيرها، نازلة بآثارها وأحكامها إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أي يصعد ذلك الأمر إليه ليحكم فيه ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي برهة من الزمان، والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث، وحدوثها من الزمان وقيل: يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة، ثم يعرج الأمر كله إليه عند قيامها في يوم كان مقداره ألف سنة، وسئل عنها ابن عباس رضي الله عنه فقال: «أيام سمَّاها اللهُ تعالى، لا أدري ما هي! والله أعلم بمراده».

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٦).

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الله عز وجل، باعتبار اتصافه بما ذُكر من الخلق، والاستواء والتدبير، أي ذلك العظيم الشأن ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أي هو العالم للآخرة والدنيا، ولما هو غائب عن الخلق ومشاهد لهم، فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على عباده، يدبِّر لهم شؤون الحياة.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ أي أتقن وأحكم كلَّ مخلوقٍ خلقه، إذ ما من مخلوقٍ خلقه الله، إلاَّ وهو مرتَّبٌ على ما اقتضته الحكمةُ، وأوجبته المصلحةُ، وقيل: أحسن بمعنى ألهم، فالمعنى: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه، فيؤول إلى معنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] ﴿ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ على وجه بديع تحار العقول في فهمه، حيث برأ آدم عليه السلام، على فطرةٍ عجيبة، منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً إجمالياً، فخلقه من تراب مجبول بالماء حتى صار طيناً، ويبس هذا الطين فصار صلصالاً له رنَّةٌ وصوت، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ ﴾ أي ذريته ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي حقير وضعيف، وهو المنيُّ والممتهنُ، السّلالةُ: النَّسلُ والولدُ، سُمّيت به لأنها تنسل منه أي تنفصل.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ أي عدَّله بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرها على ما ينبغي ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ إضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشريفٍ، كبيت الله، والنصارى يفترون على الله الكذب، ويقولون: بأن عيسى روح الله، فهو ابن الله، ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله، أي ونفخ فيه

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

من روحه التي هي ملكه اختص بها علام الغيوب ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي خلق لمنفعتكم تلك الحواس، لتعرفوا أنها مع كونها في أنفسها نِعَماً جليلة، وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية، الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تصرفوا كلاً منها إلى ما خُلق له، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم، على أن القلة بمعنى النفي، أي لا تشكرون ربكم على نعمه الجليلة، التي تتقلَّبون فيها.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي منكرو البعث، والقائل «أبيُّ بن خَلَف» رأسُ الطغيان، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً وغبنا فيها بالدفن ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؟ استفهام إنكاري أي أنبعث ويُجدَّد خلقنا؟ ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ انتقال إلى بيان ما هو أبلغ، وهو كفرهم بلقاء ربهم، وبجميع ما يكون في العاقبة.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ قُلْ بياناً للحق، وردّاً على زعمهم الباطل: يقبض مَلَك الموت أرواحكم، ويستوفي نفوسكم، هو وأعوانه فلا يترك منكم أحداً، لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان، بموجب الجبلِّيَّة، أي يقبض أرواحكم ملك الموت ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بقبض أرواحكم، قال مجاهد: جُعلت له الأرض مثل الطشت يتناول منها حيث يشاء، وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الآمر، وهذا وجه الجمع بين هذه الآية،

وبين قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾[1] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد سامع ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون. ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا﴾ أو جنس المجرمين الذين ارتكبوا صنوف الجرائم في الدنيا ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي مطرقو رؤوسهم من الحياء والخزي، عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا ﴿رَبَّنَآ﴾ أي يقولون يا ربَّنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي صرنا ممن يبصر ويسمع، وكنا من قبلُ عمياً وصماً، لا ندرك شيئاً ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما تقتضيه أوامرك الإلٓهية، ونعبدك ولا نشرك بك أحداً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا، وكلّ ذلك طمعاً للإجابة إلى ما سألوه من الرجعة، وأنَّى لهم ذلك؟.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي لو تعلقت مشيئتنا بأن نعطي كلَّ نفس ما تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح، لفعلنا ﴿لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ لأعطيناها إياه في الدنيا، التي هي دار الكسب إلى الإيمان، والعمل الصالح، لكنْ

(١) لا تعارض بين هذه الآيات ولا منافاة، فالله تبارك وتعالى هو المتوفّي، ومَلَك الموت «عزرائيل» يتولى قبضها بنفسه، ومعه أعوانه يساعدونه في الأمر، فصحت الإضافاتُ كلها إلى الله سبحانه، وإلى ملك الموت، وإلى أعوانه.

لم نعطهم ذلك، لمَّا علمنا منهم اختيار الكفر[1] ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأن جهنمَ بالعصاة المجرمين من الجنِّ والإنس جميعاً، وفي تخصيص الإنس والجن، إشارة إلى أنه عصم ملائكته من العصيان، ودخول النيران.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ الباء للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد، بل هو بسبب نسيانهم الدار الآخرة، وعدم العمل لها، أي ذوقوا هذا العذاب المخزي الأليم في دار الجحيم، بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب، ترك المنسيِّ بالمرة ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد، أي وذوقوا العذاب الخالد الدائم، بسبب ما كنتم تعملونه من فنون الكفر والمعاصي، وتكذيبكم بآيات الله.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي إنما يصدّق بآياتنا، ويعتقد بها، المؤمنون الصادقون المتقون، لا الكفرة المجرمون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ أي وُعظوا بها ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي سقطوا على وجوههم سجداً خوفاً من عذاب الله

---

(١) توضيح معنى الآية الكريمة: لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا، ولكنَّ ذلك ينافي حكمتنا، لأنّا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار، ولذلك لم نجبر أحداً على الإيمان!!.

﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي نزهوه عن كل ما لا يليق به، متلبسين بحمده تعالى على نعمائه، التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات، والتوفيق للاهتداء بها ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ أي والحال هم خاضعون لجلال الله تعالى، لا يستكبرون عن السجود والتسبيح، والتحميد عن ابن عمر قال: «كان رسول الله يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته، في غير وقت الصلاة»(١) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد لها، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلتي أُمر ابنُ آدم السجدة، فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فليَ النَّارُ»(٢).

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ أي ترتفع، وتتنحّىٰ ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي عن الفُرُش ومواضع النوم، وهم المتهجدون بالليل، وقال عطاء: هم الذين يصلُّون العشاء والفجر في جماعة، بدليل قوله ﷺ: «من صلَّى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلَّى الليل كله»(٣) وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل، لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»(٤) ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي داعين له تعالى ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير والحسنات.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٤٥٩ ومسلم رقم ٥٧٥ باب سجود التلاوة.
(٢) أخرجه مسلم رقم ٨١ في كتاب الإيمان.
(٣) أخرجه مسلم رقم ٦٥٦ في المساجد وأبو داود رقم ٥٥٥ في الصلاة.
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصوم.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس، لا مَلَك مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسل، فضلاً عمن عداهم ﴿ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم ﴾ أي لأولئك المتقين الصالحين ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ممَّا تَقَرُّبهِ أعينهم ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، وَلا خطر على قلب بشر، واقرؤوا ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لَهُمْ﴾» الآية[1].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ ﴾؟ أي أبعد ظهور ما بينهما من التَّبايُن، يُتوهَّم كونُ المؤمن الذي حُكِيت أوصافه الفاضلة، كالفاسق[2] الذي حكيت أوصافه القبيحة؟ ﴿ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ أي لا يتساوون عند الله في الشرف والمثوبة، والمآل والجزاء.

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ تفصيلٌ لمراتب

---

(١) أخرجه البخاري ٦/٢٣٠ في بدء الخلق ومسلم رقم ٢٨٢٤ وانظر جامع الأصول ١٠/٤٩٤.

(٢) المراد بالفاسق هنا: الكافر، لأنه تعالى قابل به المؤمن، وأخبر أيضاً أنه يُخلَّد في النار، ولا يستحقُّ التخليد فيها إلا الكافر: ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النارُ﴾ وأمَّا الفسقة من المؤمنين العصاة، فلا يخلدون في نار الجحيم، ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟ المراد بالمجرمين الكفار لمقابلتهم بالمسلمين.

الفريقين في الآخرة، وإضافة الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وقيل: هي جنة من الجنات تأوي إليها أرواح الشهداء ﴿نُزُلًا﴾ أي ثواباً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي منزلهم ومسكنهم ﴿النَّارُ﴾ نار جهنم، مكان الجنة للمؤمنين ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ اللفظ عبارة عن الخلود فيها، فلا خروج ولا عودة في الحقيقة، وكلمة «في» للدلالة على أنهم مستقرون فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم إهانة لهم، وزيادة في غيظهم ذوقوا عذاب جهنم الدائم ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بعذاب النار على الاستمرار في الدنيا، وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر، إذ التكذيبُ يُقابل الإيمانَ.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا، وهو ما عُوقبوا به من القتل، والأسر، والقحط ونحو ذلك، وقيل: العذابُ الأدنى عذابُ القبر ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة، لأنه شديد ومديد، بخلاف عذاب الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل الذين يشاهدون ممن بقي منهم، يتوبون عن الكفر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾؟ استفهام إنكاري أي هو أظلم من كل ظالم، لأنه عرف الحقَّ ثم صدَّ عنه ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل من اتصف بالإجرام، وإن هانت جريمته ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾ فكيف ممن هو أظلم؟.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي التوراة، وعبر عنها باسم الجنس ﴿ الْكِتَابَ ﴾ لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أن إيتاءه لرسول الله ﷺ كإيتائه لموسى عليه السلام، واختار من بين الرسل «موسى» لقربه، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للاستدلال، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته، وأمَّا النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام، فتمسَّك بالمجمع عليه ﴿ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ أي من لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن﴾ والمعنى: إنا آتيناك من الكتاب، مثل ما آتيناه لموسى، فلا تكن في شك من أنك لقيتَ مثله ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه لموسى ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي هداية لبني إسرائيل من الضلالة والجهالة.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ ﴾ أي جعلنا منهم قادة يقتدى بهم في فعل الخيرات، ويُهتدى بهم إلى طريق الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ أي بأمرنا إياهم بذلك، وبتوفيقنا لهم إلى الطاعة ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ أي لمَّا صبروا جعلناهم أئمة، والمراد صبرُهم على مشاقِّ الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصرة

الدين ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناك هدىً لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيميز بين المحقّ وبين المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؟ أي أولم يبين الله لأهل مكة؟ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكناهم من القرون الماضية، مثل: عاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي يمرون في متاجرهم على ديارهم، ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؟ هذه الآيات، سماع تدبر وتفكر؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾؟ أي التي جُرز نباتها، أي قطع ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء من تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من ذلك الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتبن، والعصف، والورق، وبعض الحبوب المخصوصة

بها ﴿وَأَنفُسُهُمۡ﴾ كالحبوب التي يقتات بها الإنسان والثمار ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾؟ أي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك؟ ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾ كان المسلمون يقولون: إن الله تعالى سيفتح لنا على المشركين، وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون تكذيباً واستهزاءً ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾ أي النصر علينا أي في أيّ وقت يكون؟ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟ في أن الله ينصركم علينا؟.

﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾ تبكيتاً لهم، وتحقيقاً للحق ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو يوم الفصل، والعدولُ عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم، للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه، لكونه أمراً بيناً، وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان، كأنه قيل لا تستعجلوا، فكأني بكم قد آمنتم، فلم ينفعكم إيمانكم في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بك حوادث الزمان، رُوي عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ و ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ﴾»[1] وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٨٧٩ في الجمعة، وأبو داود رقم ١٠٧٤ في الصلاة.

كـانَ لا ينـام حتـى يقـرأ: ﴿الٓـم تَنـزِيـلُ الكِتَـابِ﴾ و ﴿تَبَـارَكَ الَّـذِي بِيَـدِهُ المُلْكُ﴾[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه.



سورة الأحزاب

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ناداه بالنبي تعظيماً له، ولتعليم الناس بأنه رسول الله ﴿ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ والمراد بالتقوى الثبات عليه، والازدياد منه، فإن له ﷺ باباً واسعاً في تقوى الله ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المجاهرين بالكفر ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ المضمرين له، ولا تساعدهم على شيء، واحترز منهم، فإنهم أعداء الله والمؤمنين، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، فهو تحذير للمؤمنين كافة من طاعة أهل الكفر والنفاق. وروي أن أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور، قدموا المدينة بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فنزلوا على «عبد الله بن أبيّ ابن سلول» وجاء معهم ابن أبيّ فقالوا لرسول الله ﷺ وعنده عمر: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تشفع وتنفع، وندَعك وربك، فشقّ ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله ائذن لي في قتلهم!! فقال ﷺ: «إني أعطيتهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله، فأمره النبي ﷺ أن يخرجهم من

المدينة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم في فعله وصنعه، إلا بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اعمل بما يوحيه إليك ربك، من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الخطاب للرسول ﷺ والجمعُ للتعظيم، وقيل: الخطاب له وللمؤمنين، والجملة تعليلٌ للأمر، أي لا تخفى عليه خافيه من أعمالكم، يعلم المطيع من العاصي، والبَرَّ من الفاجر، وسيجازيكم عليها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوِّضْ جميع أمورك إليه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به حافظاً، موكولاً إليه كل الأمور.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى، تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرون مِنهنَّ أُمَّهاتِكُمْ﴾ الآية وتنبيهاً على أن كون المظاهر منها أمّاً، وكون الدَّعيّ ابناً أي بمنزلة الأم والابن، في الآثار والأحكام في الاستحالة بمنزلة اجتماع القلبين في جوف واحد، وقد كانت العرب تزعم أن اللبيب الأديب الأريب، له قلبان في جوفه، ولذلك قيل لأبي معمر ذو القلبين، فردَّ الله

سبحانه هذا الزعم الكاذب، أي ما جمع الله تعالى قلبين في رجل واحد، وذكر الجوف لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي ما جمع الزوجية والأمومية في امرأة واحدة، ولا التبني والبنوّة في رجل واحد، بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجية، وأحكام الأمومة، ونفي الجمع بين حقيقة الدعوة، وأحكام البنوّة، لإبطال ما كانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها، وإجراء أحكام البنوّة على الولد المتبنى ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما يفهم من الظهار، والتبنّي ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الأعيان، إذ الابن والأم يكون بالولادة حقيقة، لا بالقول قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي باطل ليس له حقيقة ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي المطابق للواقع ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي طريق الحق والاستقامة.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أي انسبوهم إلى آبائهم الذين ولدوهم حقيقةً ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعدلُ، أي الدعاء لآبائهم بالغ في العدل والصدق في حكم الله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه، فادعوهم بالأخوّة الدينية ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي فيما فعلتم مخطئين، بالسهو أو النسيان، أو سبق اللسان، ومثلُه قولُ القائل لغيره: يا

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

بنيَّ بطريق الشفقة، أو يا أبي بطريق التعظيم ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الجناح والإثم فيما تعمدت قلوبكم بعد النهي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لعفوه عن المخطىء ورحمته بالعباد. روى الشيخان عن ابن عمر قال: إنَّ «زيدَ بن حارثة» مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلاَّ «زيد بن محمد»[1] حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ..﴾ الآية، فصرنا نقول بعد ذلك: زيد بن حارثة. ورُوي عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: «من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنةُ عليه حرام»[2].

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد به الإطلاق، فيجب عليهم أن يكون ﷺ أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقّه آثر لديهم من حقوقها لأنه ﷺ لا يأمرهم ولا يرضى منهم، إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، وفي قراءة ابن مسعود «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» أي في الدين، فإن كل نبي أب لأمته، من حيث إنه أصل فيما فيه الحياة الأبدية، ولذلك صار المؤمنون إخوة، وسبب النزول أن النبي ﷺ كان يخرج إلى الجهاد، ويأمر أصحابه بالخروج، فيقول البعض: نستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٥١٧، ومسلم في فضائل الصحابة، رقم ٢٤٢٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٢/٤٦ في الفرائض ومسلم رقم ٦٣ في الإيمان.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي منزَّلات منزلة الأمهات في التحريم، واستحقاق التعظيم، وأمَّا فيما عدا ذلك، كالإرث، والخلوة، والنظر، فهنَّ كالأجنبيات، ولهذا لم يتعدَّ التحريم إلى بناتهن ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوراث، وهو ناسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة، والموالاة في الدين ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه، فيما أنزله وفرضه الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي أولى بالميراث من المؤمنين بحقِّ الدين، ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم، من الفقراء المهاجرين، فلا حرج فيه، وقيل: المراد بفعل المعروف: الوصيةُ، أي إلا أن توصوا إليهم عند الموت ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي مكتوباً ومسطَّراً في اللوح المحفوظ أو القرآن العظيم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم، بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين الحق ﴿وَمِنكَ﴾ أي ومنك يا محمد ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وتخصيصُهم بالذكر، للإيذان بمزيتهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأولو العزم من الرسل، وتقديم نبينا ﷺ عليهم للإبانة عن فضله الجليل وإمامته لجميع الرسل ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً مؤكداً موثَّقاً أن يلتزموا بتبليغ الرسالة، وإنما فعلنا ذلك.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي يوم القيامة، ووضع «الصادقين» موضع ضميرهم، للإيذان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سُئلوا عنه،

وإنما السؤالُ لحكمة تقتضيه، أي ليسأل الأنبياء، الذين صَدَقوا عهودهم، عما قالوه لقومهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[1] ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وهيَّأ الله للكافرين الفجار، عذاباً مؤلماً موجعاً، يذوقونه في نار جهنم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي الأحزاب وهم قريش، وغطفان، ويهود بني قريظة، والنضير، كانوا زُهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة، بإشارة «سلمان الفارسي» رضي الله عنه، فضرب معسكره، والخندقُ بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام، واشتد الخوف ونَجَمَ النِّفاقُ، حتى قال «معتّب بن قُشير» المنافق: «كان محمد يَعِدنا كنوز كسرى، وقيصر، وأحدُنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط» ومضى على الفريقين قريبٌ من شهر، لا حرب بينهم إلاَّ الترامي بالنَّبْل والحجارة، واشتد الأمر والخوف على المؤمنين، بالغاً ما بلغ، حتى بعث الله على المشركين ريحاً باردة، في ليلة شاتية، فأقعدتهم، وسفَّت الترابَ في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقلعت خيامهم، وماجت الخيل بعضُها في بعض، فقال «طُليحة بن خُوَيْلد الأسدي»: أمَّا محمد فقد بدأكم بسحر، فالنَّجاة النَّجاة، فانهزموا، وفرُّوا من غير قتال، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي ريحاً شديدة عاصفة مدمّرة ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، وقذف في قلوبهم الرعب ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وترتيب مبادىء الحرب ﴿بَصِيرًا﴾ إشارة إلى أنه تعالى علم التجاءكم إليه، ولذلك فعل ما فعل.

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي من أعلى الوادي، من جهة المشرق، وهم بنو غطفان ومن تابَعهم من أهل نجد، وانضمَّ إليهم يهود بني قريظة وبني النَّضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي من أسفل الوادي من جهة المغرب، وهم قريش ومن شايَعهم من أوباش العرب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي مالت عن سَنَنها، وانحرفت عن مستوى نظرها، حَيْرةً لشدة الرَّوْع ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع، أي زالت عن أماكنها حتى كادت تبلغ الحناجر، والآية تمثيلٌ لاضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقةً ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ أي تظنون بالله أنواع الظنون، حيث ظنَّ المخلصون بالله أنه ينجز وعده، في إعلاء دينه، كما يعرب عنه قولهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ والمنافقون خافوا وزلزلوا، وظنُّوا ما حكى عنهم مما لا خير فيه.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الزمان الهائل ﴿ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي عوملوا معاملة من يُختبر، فظهر الراسخ من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من الهول والفزع، والابتلاء ليس لاستبانة الأمر له تعالى، بل لإظهاره لغيره.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي ضعفُ اعتقاد، وهم قومٌ لا بصيرة لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليه ﴿ مَّا

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بإعلاء الدين، والظفر على الأعداء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وَعْد غرور، والقائل «معتّب بن قُشير» وإخوانه في النفاق والضلال، وهم طائفة كانوا يتظاهرون بالإيمان، وهم يبطنون الكفر، ولهذا صدر عنهم مثل هذا الكلام.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هم أوس بن قيظي وأتباعه، وعبد الله بن أُبيّ وأشياعُه ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يثرب اسم المدينة المنورة، أي يا أهل المدينة وقد نهى ﷺ أن تسمى بيثرب كراهة لها، وقال هي: طيبة أو طابة، كأنهم ذكروها بذلك مخالفة له ﷺ ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لاموضع إقامة لكم، يريدون معسكر النبي ﷺ ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم بالمدينة، مرادهم الأمر بالفرار، لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالهم ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ﴾ وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة، معرَّضة للعدوِّ والسرَّاق، والعورةُ في الأصل: الخللُ، أطلقت على المحلِّ مبالغةً ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ والحال إنها ليست كذلك، بل هي حصينة ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أي إلى بيوتهم ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي من جميع جوانب المدينة وأطرافها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ أي طُلب منهم ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الرِدَّة، والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين، مكان ما سئلوا من الإيمان والطاعة ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾ أي لأعطوها من أنفسهم، غير مبالين بالإسلام وأهله

﴿ وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ ﴾ بإجابتها يعني الفتنة وما أخّروها ﴿ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان.

﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ ﴾ هم قوم من المنافقين غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدر من الكرامة، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ أي مسؤولاً عن الوفاء به، وجديراً بالوفاء.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف، أو قتل سيف، في وقت معيّن سبق به القضاء ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً، فتمتعتم بالتأخير، لم يكن ذلك التمتع إلا زماناً قليلاً، لأن الموت مآل كل حيٍّ.

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ ﴾؟ أي من يَستطيع أن يمنعكم من الله عزَّ وجل، سواءً قدَّر هلاككم ودماركم، أم قدَّر بقاءكم ونصركم؟ ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا ﴾ ينفعهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يدفع عنهم الضرر.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ أي المثبّطين للناس عن رسول الله ﷺ، وهم المنافقون ﴿ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ من منافقي المدينة الذين كانوا يقولون للأنصار: لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون عن المعسكر ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ ﴾ أي الحرب والقتال ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إتياناً قليلاً، أو زماناً قليلاً، لأنهم يخرجون مع المؤمنين رياء، يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلاَّ شيئاً قليلاً، إذا اضطروا إليه..

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء عليكم بالمعاونة، والشفقة، والنفقة في سبيل الله ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشي عليه، من معالجة سكرات الموت، حذراً وخوفاً ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ ﴾ وحُرزت الغنائم ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ أي آذوكم ونالوا منكم ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي خاطبوكم مخاطبة شديدة، وقالوا أعطونا قسمتنا، فإنا ساعدناكم، وقاتلنا معكم، والسَّلْقُ: البسطُ بقهر اليد، أو باللسان، وسَلَقه بلسانه خاطبه بما يكره ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ على المال والغنيمة، يعني إنهم قليلو الخير في الحالتين، كثيرو الشر في الوقتين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذُكر من صفات السوء ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ﴿ وَكَانَ

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيِّناً وسهلاً على الله، لأنها فقدت عنصر الإخلاص لأنها كبناء على غير أساس.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي هؤلاء لجبنهم، يظنُّون أنَّ الأحزاب لم ينهزموا ولذلك فرُّوا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرَّة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي تمنَّوا أنهم خارجون إلى البدو، حاصلون بين الأعراب ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عما جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء أو خوفاً منكم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي خصلةٌ حسنةٌ حقها أن يُؤْتَسَىٰ بها ويقتدى -في جهاده، وإخلاصه، وصبره ﷺ-، كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، بل هو في نفسه قدوة يحقُّ أن يتأسَّى به ﷺ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي ثوابه أو لقاءه، والرجاءُ يحتمل الأمل والخوف ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي أكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه، في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ بيان لما صدر عن خُلَّص المؤمنين، بعد حكاية ما صدر عن المنافقين، أي ولمَّا شاهدوهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه من كثرة الأعداء، وشدة البلاء ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ الآية، وقوله ﷺ: «سيشتدُّ الأمرُ باجتماع الأحزاب عليكم» ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ظهر صدقهما في البلاء والنصرة، والثواب، وإظهار الاسم الجليل للتعظيم، وهو في مقابلة قول المنافقين: ﴿مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً﴾ وقولهم: ﴿وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ﴾ ليس إشارة إلى ما وقع، فإنهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله، قبل الوقوع، وإنما هي إشارة إلى بشارة صدق الله تعالى لهم، في جميع ما وعد، مثل فتح مكة، وفتح الروم، والانتصار في بدر، فيقع الكل ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي ما رأوه من كثرة الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره، ومقادره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ في الحروب، والمقاتلة لأعداء الله، وطلب الشهادة، ومعنى ﴿صَدَقُوا﴾ أتوا بالصدق، وهم رجال من الصحابة رضوان الله عليهم ثبتوا وقاتلوا مع الرسول ﷺ حتى استشهدوا ﴿فَمِنْهُم﴾ تفصيل لحال الصادقين ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي مات أو قتل في سبيل الله، والنَّحْبُ: النَّذر، استُعير للموت، لأنه كنذرٍ لازم في عُنق المسلم، كحمزة، ومصعب بن عُمير، وأنس بن النضير رضي الله عنهم، فإنهم قد قضوا نذورهم واستشهدوا ﴿وَمِنْهُم﴾ أي بعضهم ﴿مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي ينتظر الشهادة كعثمان، وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك، فإنهم مستمرون على نذورهم وهو الثبات مع الرسول ﷺ والجهاد حتى الموت ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ عطف على صدقوا، أي ما

بدلوا عهدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ بل ثبتوا على العهد، مراعين فيه عزة المسلم، وفيه تعريضٌ بأهل النفاق، ومرضى القلوب.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمضمر كأنه قيل: وقع جميع ما وَقَع ليجزي الله ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي بما صدر عنهم من الصدق والوفاء، قولاً وفعلاً ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل اليأس من إيمانهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لمن تاب وأناب، وفيه بعث إلى التوبة.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ شروع في حكاية بقية القصة، وتفصيل تتمة النعمة، أي وردَّ الله الأحزاب خائبين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي غير ظافرين بخير القتال ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي لم يحوجهم إلى القتال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كل ما يريد ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كل شيء.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوا الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم العتيدة، وهي ما يُتحصن به

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي الخوف الشديد، بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهلهم وأولادهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ من غير أن يكون من جهتهم حِراك، فضلاً عن المخالفة، روي أنَّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فقال له: أتنزع السلاح أنت وأمتك، والملائكةُ ما وضعوا السلاح!! إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ إليهم فمزلزل بهم الحصون فأذّن في الناس أن لا يصلُّوا العصر إلاَّ ببني قريظة، فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال ﷺ: تنزلون على حكمي، فأبوا، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، فقال له ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماواته»!!. فذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ يعني وأورثكم أرضاً لم تقبضوها بعدُ، وهي خيبر لأنها فُتحت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ أي قادراً على كل ما أراد، فقد شاهدتم بعض مقدوراته جلَّ وعلا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي السعة والتنعم فيها ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ وزخارفها ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ أي أقبلن باختياركن لأحد الأمرين ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أعطكن المتعة، وتستحب لكل مطلقة ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ أي

أطلقكُنَّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي طلاقاً من غير ضِرار وبدعة، روي أنهن سألن النبي ﷺ ثياب الزينة، وزيادة النفقة، فنزلت، وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له، فوجد رسول الله ﷺ جالساً وحوله نساؤه واجماً ـ ساكتاً ـ فقال: لأقولن شيئاً أضحك به النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: لو رأيتَ بنت خارجة ـ يعني زوجة عمر ـ سألتني النفقة ـ أي طلبت مني التوسعة في الإنفاق ـ فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ فقال: هنَّ حولي كما ترى يسألن النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها، وكلاهما يقولان: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ قلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً حتى نزلت هذه الآية، فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرِض عليك أمراً، أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية قالت: أفيك أستشير أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة»[1].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي تردن الرسول ﷺ، وذكرُ الله للإيذان بجلالة قدره ﷺ عنده تعالى ففي مرضاة الرسول رضي الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي نعيمها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بمقابلة إحسانهن ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره وهي الجنة التي فيها ما لا عين

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطلاق رقم ١٤٧٨.

رأت ولا أذن سمعت، و«مِنْ» للتبيين، لأنهن كلهن محسنات رضوان الله عليهن[1].

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ ﴾ بكبيرة ﴿ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ظاهرة القبح، والمراد منها كل ما اقترفن من الكبائر، وقيل: عصيانهن لرسول الله ﷺ، ونشوزهن وطلبهن منه ما يشقُّ عليه ﷺ، والغرض مجردُ التحذير لا أن منهنَّ من أتت بفاحشة، فإنَّ الله تعالى صان أزواجَ الرسول ﷺ عن القبائح ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أي يعذَّبْنَ ضعفي العذاب لغيرهن، أي مثليه، لأن الذنب منهن أقبح، فإن زيادة القبح تابعة لزيادة فضل المذنب، والنعمة عليه، ولذلك جُعل حدُّ الحر ضعف حدّ الرقيق، وعُوتب الأنبياء عليهم السلام بما لا يعاتب به الأمم، وكون ذلك يسيراً على الله، أي لا يمنعه عن التضعيف كونها من نساء النبي ﷺ، بل يدعوه إليه لمراعاة حقه ﷺ.

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أي ومن يدم على

---

(١) سبب نزول آية التخيير أن النبي ﷺ لما نصره الله في غزوة الأحزاب، وفرّق عنه جموع المشركين، وفتح عليه قريظة والنضير، ظنَّ أزواجه أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم، وخشين أن يوزعها بين المسلمين، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله: بنات كسرى وقيصر في الحُليِّ والحُلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق!! وآلمن قلبه ﷺ بهذه المطالبة وبهذه الكلمات، فنزلت آية التخيير.

الطاعات ﴿ نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ مرة على الطاعة والتقوى، ومرة على طلبهنَّ رضاء رسول الله، بالقناعة، وحسنِ المعاشرة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ في الجنة، زيادة على أجرها المضاعف، أي رزقاً مرضياً جليل القدر.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، في الفضل والشرف ﴿ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ﴾ أي اتصفتنَّ بالتقوى كما هو اللائق بحالكنَّ ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ أي لا ترققن الكلام أمام الرجال، ولا تجبن بالكلام الرقيق الليّن، على سنن المريبات الفاجرات[1] ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ أي فجور وريبة ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ أي بعيداً عن الريبة بجدٍّ وخشونة.

﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

---

(١) إذا كان القرآن الكريم يمنع المسلمة، أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب، لئلا يطمع بها الفُسّاق والفُجّار، فكيف بمن تثير الغرائز والكوامن، بالغناء الماجن الخالي من العفة، الذي كله ميوعة وانحلال، ودعوة إلى العهر والفجور، وتختلط فيه أصوات المغنّين والمغنّيات مع آلات الموسيقى والطرب، في الحفلات الساهرة الداعرة، وتنقله الإذاعة والتلفاز، ثم نسمع من بعض أدعياء العلم من يبيح ذلك، بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة، وأن غناء المرأة ليس بحرام!! إذاً فما هو الحرام في نظرهم؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان، الذي فسق فيه كثير من الشبان، وطغت فيه النساء وجاوزن حدَّ الاحتشام، وأصبح فيه المنكر معروفاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمْنَ بيوتكن يا نساء النبي، ولا تتسكعن في الطرقات، وأصله اقرَرْنَ، يقال: قرَّ الشيءُ أي استقرَّ بالمكان وثبت فيه ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي لا تتبخترن في مشيكنَّ، وهو التكسُّرُ والتغنُّج، والتبختر، وإظهار الزينة والمحاسن للرجال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أي مثل تبرج نساء الجاهلية قبل الإسلام، فقد كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق، تعرض نفسها على الرجال ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ أمَر بهما لفضلهما على غيرهما، وكونهما أصليْ الطاعات البدنية، والمالية ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل الأمور والأحوال، لا سيما فيما أُمرتنَّ به، ونُهيتنَّ عنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي الذنب المدنِّس لعرضكم، وهو تعليلٌ لأمرهنَّ ونهيهنَّ ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي يا أهل بيت النبي ﷺ، مراداً بهم من حواهم بيت النبوة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من أوضار الأوزار والمعاصي ﴿تَطْهِيرًا﴾ بليغاً، فعِرضُ المقترف للإثم يتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وهذه الآية ـ كما ترىٰ ـ آيةٌ بينة، على كون نساء النبي ﷺ أهل بيته، وقاضية ببطلان رأي الشيعة في تخصيصهم «أهل البيت» بفاطمة وعلي، وابنيهما رضي الله عنهم، وما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غَدَاة، وعليه مِرْطٌ مُرَجَّلٌ [1] من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه، ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء الحسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إنما يدلُّ على كونهم من أهل البيت، لا على أن ما عداهم ليسوا كذلك، والنصُّ في القرآن قاطع.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

(١) أي كساء أسود فيه بعض النقوش، والحديث أخرجه مسلم.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ أي اذكرن للناس بطريق العِظَة والتذكير ﴿مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله للدلالة على صدق النبوة، وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع، وهو تذكير لهنَّ بما أنعم الله عليهنَّ، حيث جعلهن أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي، وما شاهدنه من أنوار الوحي، مما يوجب قوة الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بحقائقها، وبواطنها، يعلم ما يصلح في الدين، ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ الداخلين في الإسلام، المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ المصدِّقين بما يجب أن يُصدَّق به من الفريقين ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾ أي المداومين على الطاعات، القائمين بها ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات وعن المعاصي ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعين بقلوبهم، وجوارحهم ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما يجب في مالهم ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصوم المفروض فرضاً، ونفلاً ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لما اقترفوا من الصغائر،

لأنهن مكفرات بها ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على ما صدر عنهم من الطاعات، والآية وعدٌ لهن، أي لنساء النبي ﷺ ولجميع المؤمنين والمؤمنات، عن أم عُمارة الأنصارية قالت: «أتيتُ النبي ﷺ فقلت: مالي أرى كلَّ شيء إلى الرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآية»[1].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وما صحَّ وما استقام لرجل من المؤمنين، ولا لمرأةٍ من المؤمنات ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي إذا قضى رسول الله، وذكرُ الله للتعظيم وللإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاءُ الله تعالى، نزلت هذه الآية في «زينب بنت جحش» بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، فأبت هي وأخوها عبد الله فنزلت، فلما سمعا الآية رضيا، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، فأنكحها زيداً وساق رسول الله ﷺ إليها مهراً عشرة دنانير، وخماراً، ودِرْعاً، وملحفة ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر من الأمور، ويعمل برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريق الحق والسعادة ﴿ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ بين الانحراف عن سنن الصواب، لأن ردَّ أمر النبي ﷺ ضلال وفسق.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٢٠٩ في كتاب التفسير وقال: حديث حسن غريب.

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي اذكر وقت قولك ﴿لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ من فنون الإحسان، التي من جملتها تحريره وعتقه وهو «زيد بن حارثة» تبناه رسول الله ﷺ قبل النبوة، ثم أعتقه وزوَّجه بزينب رضي الله عنها فكانت تتكبر عليه فجاء ذات يوم إلى الرسول ﷺ وقال له: أريد أن أفارق صاحبتي، فقال ﷺ له: مَا لَكَ أرابك منها شيء؟ قال: لا واللهِ، ما رأيتُ منها إلاَّ خيراً، ولكنها لشرفها تتعظَّم عليَّ فقال له ﷺ: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها فلا تطلقها تعللاً بتكبرها ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ أي وتضمر في نفسك ما سيظهره الله من رغبة الزواج بها بعد أن يطلقها؟ وأصحُّ ما في هذا الباب ما رُوي عن سفيان بن عُيَيْنة عن علي بن زيد قال: سألني زين العابدين «علي بن الحسين» قال: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ﴾ الآية فقال علي بن الحسين إن الله عزَّ وجلَّ قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال ما قال، وقال ﷺ لزيد: ﴿أَمسِك عَلَيكَ زَوجَكَ﴾ فعاتبه الله تعالى، وقال: لم قلت: أمسكْ وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك؟ وهذا أولى وأليق لشأن الرسول ﷺ، وهو مطابق للتلاوة أيضاً، لأن الله تعالى أعلم أنه سيبدي ويُظهر ما أخفاه، ولم يُظهر غير تزويجها منه، فقال تعالى: ﴿زَوَّجناكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره ﷺ إرادة طلاقها وتزويجها منه، كما قيل لكان يظهر ذلك، لأنه لا يجوز أن يُخبر أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره، فدلَّ على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته، وإنما أخفى ذلك رسول الله ﷺ حياءً، لأنه كم من شيء يتحفظ الإنسان منه، ويستحي من اطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباحٌ وحلال!! وكم من أمرٍ لا عيب فيه عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سُلَّماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين، كإبطال حكم التبنّي وهو إنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبي ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبني، وإبطال تشريعه الجاهلي كما قال الله تعالى: ﴿لكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾

وأما ما ذكره بعض الجهلاء في تفسير هذه الآية، من وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ، عندما رآها، وإرادته طلاق زيد لها، فيه أعظم الخطأ، ونسبة ما لا يليق بمنصبه ﷺ من مدِّ عينيه لما نُهي عنه من زهرة الحياة الدنيا ﴿لا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ وإقدامٌ عظيم من قائله، وقلةُ معرفته بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، والحال أنها رضيت له ﷺ قبل تزويج نفسها لزيد، ولو أعجبته لتزوجها في هذا الوقت، ولم يزوجها لزيد، فدعوى وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ دعوى باطلة مكذوبة، وهي من دسائس أعداء الإسلام، والله عزَّ وجلَّ فعل كما أراد، وكان كما يشاء، ولا رادَّ لأمر الله وحكمه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرهم إياك بنكاح مطلقة دعيِّه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وحده، ليس هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ خشي الناس، ولم يخشَ الله، بل المعنى: اللهُ أحق أن تخشاه وحده، ولا تخشَ أحداً معه، وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً، فاجعل الخشية له وحده كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ ولاَ يَخْشَوْنَ أَحَدَاً إلاَّ اللهَ﴾ قال عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آيةٌ هي أشد عليه من هذه الآية، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لو كَتَم رسولُ الله ﷺ من الوحي شيئاً لكتم هذه الآية»(١) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي حاجةً، فإذا بلغ البالغُ حاجته من شيء له فيه هِمَّة، قيل: قضى منه وطره، والوَطَرُ: الحاجةُ، والمعنى: فلمَّا لم يبق لزيد فيها حاجةٌ، أي طلَّقها وانقضت عدَّتُها، وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنَّىٰ تحلُّ بعد الدخول بها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ المراد بتزويجها منه ﷺ جعلها زوجته بلا واسطة عقد، ويؤيد هذا ما روي أنها كانت تقول لنساء النبي ﷺ: إن الله تولَّى نكاحي، وأنتن زوجكُنَّ أولياؤكنَّ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ومشقة ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٠٥.

في حقِّ تزوجهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، وفيه دلالة على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء، وإشارة إلى أن هذا التزويج منه ﷺ لم يكن لقضاء الشهوة، بل لبيان حكم من أحكام الشريعة الغراء بفعله عليه السلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور ﴿مَفْعُولًا﴾ محتَّماً مكوَّناً لا محالة، فقد زوَّجك الله بها، وأبطل حكم التبنِّي بهذا التشريع الإلهي.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام في الحكمة، أن يكون على الرسول ضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي فيما قسم له وأمر له وقدَّر، من قولهم فرض له في الديوان كذا، وفرض القاضي النفقة: قدَّرها، والمراد به هو نكاح زينب، وتعدد النساء، وغيره ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي سنَّ الله ذلك سنة، والسُنَّةُ: الطريقة والسيرةُ الحميدة جمعها سُنَن، مثل غُرْفة وغُرَف ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء عليهم السلام، حيث وسَّع عليهم في باب النكاح وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي قضاءً مقضيّاً، وحُكماً مبتوتاً.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي يخافونه في كل ما يأتون وما يذرون، لا سيما في أمر التبليغ، حيث لا ينقصون حرفاً، ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي ولا يخافون أحداً سواه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي كافياً للمخاوف، فينبغي أن لا يُخشى غيرُه.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي على الحقيقة، حتى يثبت بينَه وبينَه ما يثبت بين الأب وولده، من حرمة المصاهرة وغيرها، نزلت لما تزوج رسول الله ﷺ زينب، قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية تأكيداً لإبطال شريعة التبني ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي ولكنْ كانَ رسولَ الله، وكلُّ رسولٍ أبٌ لأمته، لكنْ لا حقيقةً بل مجازاً، بمعنى أنه شفيقٌ، ناصح لهم كالوالد، وسبب لحياتهم الأبدية، لا ولادة بينهم وبينه ﷺ، وزيد منهم، وليس للتبني حكم شرعي كحكم الأبناء ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي كان آخرهم الذي ختموا به، فهو خاتمهم وأفضلهم على الإطلاق، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي، كمَثَل رجلٍ بنى بنياناً، فأحسنه وأجملَه، إلا موضع لَبِنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون، ويقولون: هلاَّ وُضعت هذه اللَّبنة؟ فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتم النبيين»[1] ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بما هو أهله من التهليل، والتحميد،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٤٠٧ ومسلم رقم ٢٢٨٧.

(٢) فإن قيل: كيف يكون خاتم النبيين، وعيسى عليه السلام سينزل بعده كما ثبت في الصحيحين؟ فالجواب أن عيسى نبيٌّ قبله، وحين ينزل في آخر الزمان يحكم بشريعة محمد ﷺ لا بشريعته، فيبقى نبينا خاتم النبيِّين، ومعنى الآية لا يتنبأ نبي بعده ولا ينزل الوحي على أحد بعده، والله أعلم.

والتقديس ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يعم الأوقات والأحوال، فالذكر يحي القلوب، كما تحيا الأرض بالمطر.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ نزّهوه عما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي أول النهار، وآخره، واللفظ إشارة إلى المداومة على الذكر، كأنه قال: سبحوا ربكم دائماً وأبداً، في الليل والنهار، والصباح والمساء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي يعتني بكم بالمغفرة، والتزكية، والرحمة، وهو استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله، وتحريض للمؤمنين على الذكر والتسبيح، فإن صلاته تعالى ـ مع عدم استحقاقهم لها ـ ممّا يوجب عليهم المداومة من ذكره تعالى، وتسبيحه ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ ومَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤمِنُونَ به وَيَسْتَغْفِرُونَ للَّذِينَ آمَنُوا..﴾[1] الآية. والمراد بصلاة الله والملائكة معنى عام مجازي، هو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاحهم، ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي يعتني بأموركم هو وملائكته، ليخرجكم من ظلمات الكفر والعصيان، إلى نور الإيمان والعرفان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي كان بكافة المؤمنين رحيماً، وفيه بشارة لجميع المؤمنين، وإشارة إلى أن الآية غير مختصة بالسامعين وقت الوحي.

---

(١) سورة المؤمن، آية: ٦.

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية الله لهم ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي يوم لقائه عند البعث، أو عند دخول الجنة ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ تسليم من الله عزَّ وجلَّ، تعظيماً لهم، أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] الآية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي هيأ لهم جزاءً حسناً، وهو دخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم الخالد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم، وتؤديها يوم القيامة فيما لهم وما عليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة للأبرار ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار للكفّار الفُجّار.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إلى الإقرار به، وبوحدانيته، وبسائر ما يجب الإيمان به ﴿ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بتيسيره وأمره سبحانه وتعالى، لا من تلقاء نفسك ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يستضاء به في ظلمات الجهل، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبشِّر المؤمنين منهم خاصة ﴿ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على مؤمني سائر الأمم، في الرتبة والشرف.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الجاحدين وحدانية الله المتظاهرين بالإسلام كذباً وزوراً، لا تطعهم فيما يدعونك إليه، من المساهلة والملاينة في أمر الدين ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، والمسامحة في الإنذار ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أي لا تبال أذيتهم لك، بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار، فالله يصرف عنك ضررهم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ في كل ما تأتي وما تذر فإنه تعالى يكفيك ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ موكولاً إليه الأمور، في كل الأحوال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أي تجامعوهنَّ، والخلوة الصحيحة كالجماع ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ بأيام يتربصن فيها بأنفسهن ﴿ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ أي تستوفون عددها، والإسناد إلى الرجال، للدلالة على أن العدة حق الأزواج، كما أشعر به قوله: ﴿فما لكم﴾ وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن لا ينكح إلا مؤمنة، وأن يتخير لنطفته امرأة صالحة ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أي إن لم يكن مفروضاً لها في العقد، فإن الواجب لها حينئذٍ نصف المفروض دون المتعة، فإنها مستحبة عندنا، وقيل: إنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾ أي أخرجوهنَّ من منازلكم ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ من غير ضرار، ولا منع حق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن فإنها أجور الأبضاع، وإيتاؤها ليس لتوقف الحل عليه، لأنه يصح العقد بلا تسمية، ويجب مهر المثل، بل لإيثار الأفضل والأولى له ﷺ ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ أي وأبحنا لك النساء اللاتي تملكهن بطريق الغنيمة «المملوكات» في الحرب ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه ﷺ خاصة، ويعضده قول أم هانىء بنت أبي طالب: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى هذه الآية، فلم أحلَّ له لأني لم أهاجر معه» ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً ﴾ أي وأحللنا لك أيضاً امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك ﴿ إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ أي إن ملّكته نفسها بطريق الهبة، وأراد الرسول ﷺ نكاحها بدون مهر، وهذه من خصائصه ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ أي خاصة لك يا محمد، فلا تصح الهبة في النكاح لغيرك ﴿ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ﴾ أي إن الإحلال المذكور، غير متحقق في حقهم، وإنما المتحقق في حقهم الإحلال بمهر المثل ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي على المؤمنين ﴿ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ أي في حقهن من شرائط العقد وحقوقه، ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له، أي قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهم ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين بالشراء وغيره من وجوه الملك، وخَصَصناك

ببعض الخصائص توسعةً عليك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسُر التحرُّز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾ ولذا وسَّع الأمر في الحرج.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخّرها وتترك مضاجعتها ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ أي تضمُّ ﴿إِلَيْكَ﴾ أو تطلّق من تشاء منهن، وتمسك ﴿مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي طلبت بالرَّجْعة ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء ممَّا ذُكر، وهذه قسمة جامعة، لأنه ﷺ إما أن يُطلّق أو يمسك، فإذا أمسك ضاجع أوِ ترك، وإذا طلَّق فإما أن يخلي أو يبتغيها. وقد كانت التسوية بينهنَّ في القسْم، واجبة عليه ﷺ، فلما غار بعضهن على النبي ﷺ، نزلت هذه الآية وسقط عنه الوجوب، وصار الاختيار إليه فيهن، يفعل كيف يشاء، وكان ذلك من خصائصه ﷺ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من التفويض إليه ﷺ ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي أقرب إلى قرَّة عيونهن، ورضاهنَّ، فإن سوَّيْتَ بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك، وإن رجَّحت بعضهنَّ، علمن أنه بحكم الله تعالى، فتطمئن نفوسُهنَّ به ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الضمائر والخواطر فاجتهد في إحسانها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فيعلم ما تُبدونه وتخفونه ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي من بعد هؤلاء التسع، اللاتي خيرتهن

فاخترنك، ورضاهن بما آتيتهن ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أي تتبدل ﴿بِهِنَّ﴾ أي بهؤلاء التسع، بأن تطلق واحدة منهن، وتنكح مكانها أخرى ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي لا بأس أن تبادل بجاريتك ما شئتَ، فأمَّا الحرائر فلا، وأراد الله بذلك لهن كرامة، وجزاءً على ما اخترن ورضين، عندما نزلت آية التخيير وهن التسع اللاتي توفي ﷺ عنهن، وهنَّ «عائشة بنت أبي بكر» و «حفصة بنت عمر» و «أم حبيبة بنت أبي سفيان» و «سودة بنت زمعة» و «صفية بنت حُيَيّ»، و «ميمونة بنت الحارث»، و «زينب بنت جحش» و «رملة بنت أبي سفيان» و «جويرية بنت الحارث» رضوان الله عليهن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظاً ومهيمناً وهو تحذير عن مجاوزة حدوده تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس، من حقوق النبي ﷺ، إثر بيان ما يجب مراعاته من الحقوق المتعلقة بهنَّ ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات، أي لا تدخلوها في وقت من الأوقات، إلاَّ وقت أن يؤذن لكم ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي إلا أن تدعوا إلى طعام، وفيه إشعارٌ بأنه لا ينبغي المجيء على الطعام بغير دعوة، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نُضجه وإدراكه ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾

أي إذا دعيتم إلى وليمة وأُذن لكم في الدخول فادخلوا، وفيه دلالة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أي فتفرَّقوا ولا تمكثوا فتثقلوا على أهل المنزل، وهو خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي وغير جالسين بعد الطعام، ليستأنس بعضكم لحديث بعض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلك الاستئناس واللبث الذي تفعلونه ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ بتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وصده عن الاشتغال بما يعينه ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أي من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا يترك تأديبكم، وهذا أَدَبٌ أَدَّبَ الله به الثقلاء، فوردت الآية جامعة لآداب الضيافة والوليمة، روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل، وكان أول ما نزل في متبنَّى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، حين أصبح النبي ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي رهطٌ عند النبي ﷺ، فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي ﷺ ومشيت معه، حتى جاء عَتَبَة حجرة عائشة رضي الله عنها، ثم ظنَّ أنهم قد خرجوا فرجع ورجعتُ معه حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوسٌ لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظنَّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الله آية الحجاب[1]، وهي هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبي ﷺ المدلول عليهن بذكر بيوته ﷺ ﴿مَتَاعًا﴾ أي شيئاً يُتمتَّع به ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ أي المتاع ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي سترٍ، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله متنقبة كانت أو غير متنقبة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي سؤال المتاع من وراء

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٤٠٥ ومسلم رقم ١٤٢٨ في النكاح، باب زواج النبي ﷺ بزينب.

الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أي أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية ﴿وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي وما صحَّ وما استقام لكم ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي أن تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ويؤذيه ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ الآية ردٌّ عن من قال: لئن مات محمد، لأتزوجنَّ فلانة يعني إحدى زوجاته، فنزلت ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر، من إيذائه، ونكاح أزواجه من بعده ﷺ، ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي أمراً عظيماً وخطأً جسيماً، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله، وإيجاب حرمته حياً وميتاً، ما لا يخفى.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم على المعاصي البادية والخافية، وفيه مزيد تهويلٍ، ومبالغةٌ في الوعيد.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ روي أنه لما نزلت آية الحجاب، قال الآباء والأبناء يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب، فنزلت وإنما لم يذكر العم الخال لأنهما بمنزلة الوالدين، ولذلك سمي العم وأباً في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ والمراد من ﴿نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات، وإنما قال نسائهن لأنهن من أجناسهنَّ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد، والإماء، وقيل: من الإماء خاصة ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما

أمرتنَّ به ونُهيتُنَّ عنه، لا سيما عند العبيد، وفيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لا تخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ أي يعتنون بإظهار شرفه، وتعظيم شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أي اعتنوا أنتم أيضاً بذلك، فإنكم أولى به ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أي قائلين: اللهمَّ صلِّ على محمد وسلِّم، أو نحو ذلك، والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً، من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه، وقيل: يجب ذلك كلَّما جرى ذكرُه، والمعتمد قولُ الكرخي قال: إنها واجبة مرة، وأمَّا كلما ذُكر فمستحبة، أفاده في مجمع الأنهر. وأما في الصلاة في التشهد فهي واجبة، وقد سأل بعض الصحابة الرسول عن كيفية الصلاة والسلام عليه فقال: قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وإفراد الغير بالصلاة من أهل البيت فمكروه، وهو من شعائر الروافض، كقولهم: عليٌّ عليه الصلاة والسلام، لأنه شعار ذكر الرسول ﷺ، ولذا كُره أن يقال: محمدٌ عزَّ وجلَّ، مع كونه عزيزاً وجليلاً، بل يكتفى بقول محمد ﷺ أو عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ٥٧﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أريد بالإيذاء في حق الله تعالى، وصفُه

بما لا يليق به جلَّ وعلا، كنسبة الزوجة والولد، وفعل ما يكرهه من الكفر، والمعاصي، لاستحالة حقيقة التأذي في حقه تعالى، وقيل هو كقول اليهود: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وقول المشركين: الملائكة بناتُ الله، والأصنام شركاؤه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأمَّا إيذاء الرسول فهو قولهم: شاعر، مجنون، ساحر، وطعنهم في نكاح صفية، وزينب، والنيل منه ﷺ بالقدح والذم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ بحيث لا ينالون فيهما شيئاً من الرحمة والهداية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينهم ويذلهم مع الإيلام الشديد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي يقولون فيهم ما يتأذَّون به، من قول أو فعل، وتقييده بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذية، للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حقٍّ، وأما أذى هؤلاء، فمنه ما هو حقٌّ كالحدِّ والتعزير، ومنه ما هو باطل ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي ظاهراً بيناً، نزلت في أهل الإفك، وقيل: في الفساق الذين يتبعون النساء، إذا برزن للحاجة، والظاهر العموم، وإذا كان لا يحل لك أن تؤذي كلباً، أو خنزيراً، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

بعدما بيّن سوء حال المؤذين أمر النبي ﷺ بأن يأمر زوجاته وبناته وسائر نساء المؤمنين، بالتستر والاحتشام، ليدفع عنهن ألسنة الفسقة اللئام، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يغطّين بها وجوههن، والجلباب هو الرداء الذي يستر جميع بدن المرأة، كالملحفة والعباءة التي تشتمل بها المرأة، وكل ما يُستتر به، أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن، إذا برزن لداعية من الدواعي ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من التغطي ﴿أَدْنَىٰ﴾ أي أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي يعرفن أنهن حرائر وعفائف، فلا يتبعهن الفجار، ويمكن أن يقال: المراد يعرفن أنهن لا يزنين، لأن من تستر وجهها، مع أنه ليس بعورة، لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها، فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن الزنا بهن ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم بتشريع ما يحفظ كرامتهم.

> ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي فجور وهم الزناة ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ من الفريقين من نشر أخبار السوء، وغير ذلك من الأراجيف الملفّقة المستتبعة للأذية ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، ولنحرضنَّك على ذلك ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ أي ثم لا يساكنونك ولا يعودون إلى مجاورتك ﴿فِيهَا﴾ في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً ريثما يتأهبوا للخروج.

> ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم أي مطرودين من رحمة الله عزَّ وجل

﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ أي أينما وُجدوا وأدركوا قُتِّلوا تقتيلاً، لكفرهم ونشرهم أخبار السوء والفساد.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾ في الأمم الماضية، وهي أن يقتل الذين نافقوا وعادَوُا الأنبياء، وسعوا في توهين أمرهم، بالإرجاف ونحوه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي ولن تتغير سنة الله أو تتبدَّل، بل يجريها بمجرى واحد في الأمم، وفي جميع الأزمان.

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ أي عن وقت قيامها، كان المشركون يسألونه استعجالاً واستهزاءً ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا يطلع عليه ملكاً مقرَّباً، ولا نبياً مرسلاً ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أيْ أيَّ شيء يعلمك بوقت مجيئها؟ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؟ أي شيئاً قريباً، وفيه تهديد للمستعجلين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي أبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾ مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاتقاد، يقاسونها في الآخرة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ ﴾ أي مقيمين في نار جهنم أبد الآبدين، وهذا يردُّ على من زعم فناء النار، فإن قوله تعالى: ﴿أبداً﴾ يدل على الدوام والاستمرار ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحفظهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يخلصهم من عذاب الله.

﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ ﴾ أي يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة، كاللحم المشويّ يقلب على النار، وتخصيص الوجوه بالذكر، لما أنها أكرم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع، فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده، أو يطأطىء رأسه كي لا يصيب وجهه، ولذلك ذكر هنا الوجه تفظيعاً وتشنيعاً ﴿ يَقُولُونَ ﴾ متحسرين على ما فاتهم ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ فلا نبتلى بهذا العذاب.

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ عطف على يقولون وهو ضرب اعتذار للتشفي من الزعماء ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا ﴾ يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر، والتعبير عنهم بعنوان السيادة لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ﴿ وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ بما زينوا لنا من الأباطيل، وزيادة الألف لإطلاق الصوت وفائدتها الوقف.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ لأنهم ضلُّوا أو أضلوا، أي اجعل عذابهم مثل العذاب الذي نحن فيه مرتين ﴿ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ أي شديداً وعظيماً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من مقالة الناس ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ ﴾ أي فأظهر براءته مما قالوا في حقه ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ ذا وجاهة ومنزلة عظيمة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ أي صدقاً وصواباً، قاصداً إلى الحق.

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾.

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ بالقبول، ويوفقكم للأعمال الصالحة ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ أي يجعلها مكفَّرة، باستقامتكم في القول والعمل ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ ﴾ في الدارين ﴿ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ يعيشُ في الدنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً.

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾.

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا ﴾ لمَّا بيَّن الله تعالى عِظَم طاعة الله ورسوله، عقب ذلك ببيان عظم شأن التكاليف الشرعية بطريق التمثيل، وعبَّر عنها بالأمانة، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها وأدائها، وعبَّر عن

اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذُكر من السماوات والأرض، بالعرض عليهنَّ لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها، بالإباء والإشفاق منها، لتهويل أمرها وكأنها من الأجسام الثقيلة، التي تستعمل فيها القوى الجسمانية والمعنى: إن تلك الأمانة في عظم الشأن، بحيث لو كُلفت هاتيك الأجسام العظام، التي هن مَثَلٌ في القوة والشدة مراعاتها، وكانت ذوات شعورٍ، لأَبَيْنَ قبولها، وأشفقن منها، والأمانة جميع ما أُمروا به ونُهوا عنه، وكان العرض تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلُّها خاضعة لله، مطيعة لأمره، ساجدة له تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ عند عرضها عليه، أي تكلَّفها والتزمها، مع ما فيه من ضعف البنية، ورخاوة القوة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ﴾ حيث لم يف بها، ولم يراعِ حقها ﴿ جَهُولًا ﴾ بكنه عاقبتها، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار الأغلب.

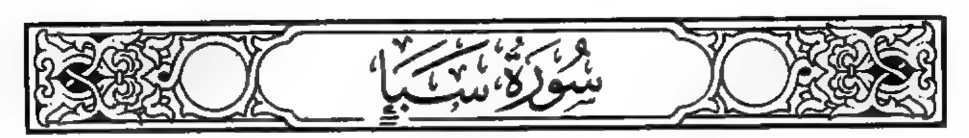
﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ أي ليعذب الكفرة من أهل النفاق، والمشركين والمشركات عبَّاد الأوثان، الذين ضيَّعوا الأمانة بعدما قبلوها ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ ﴾ أي ويرحم أهل الإيمان، ويعود عليهم بالتوبة والغفران، لأنهم حفظوا الأمانة، وراعوا حقها ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾ حيث تاب على فرطاتهم، وأثابهم على طاعتهم، فهو سبحانه الغفور الرحيم، البر الكريم، نسأله تعالى المغفرة والرضوان.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب»

* * *



سورة سبأ

مكية وهي أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي جميع الموجودات له خلقاً، وملكاً، وتصرفاً فهو الخالق والمالك لكل ما في السموات والأرض. الجميع ملكه وتحت تصرفه وسلطانه، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي وله الحمد بأجمعه في الآخرة، لا يستحقه أحد سواه، لأنه المنعم المتفضل على عباده بأنواع النعم الجزيلة، والفرق بين الحمدين، مع كون نعمتي الدنيا والآخرة بطريق التفضل، الأول على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذذ، وإنما يحمد أهل الجنة ربهم سروراً بالنعيم، بقولهم: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وعْدَهُ﴾ و ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين والدنيا، ودبرهما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿الْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء ومكنوناتها.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعلم سبحانه ما يدخل فيها من الغيث، والكنوز، والدفائن، والأموات والحبوب، ونحوها ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي وما يخرج من الأرض من الزروع، والنباتات، والثمار، والمعادن، ومياه العيون والآبار ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الأمطار، والملائكة، والكتب الإلٰهية ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي وما يصعد إليها من الملائكة، والأعمال الصالحات، والأرواح الطاهرات ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ﴾ للحامدين على ما ذكر من نعمه ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾ للمفرطين في ذلك بلطفه وكرمه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ ﴾ أي وقال المشركون من كفار مكة: لا قيامة ولا بعث ولا نشور، وإنما عبروا عنه بقولهم ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ ﴾ لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها فاستبطأوا مجيئها بطريق الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الوَعْدُ﴾؟ ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ رد لكلامهم، أي قل لهم يا محمد مؤكداً ومحذِّراً ﴿ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ أي أقسم لكم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، وهو تأكيدٌ له على أتم الوجوه ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ ﴾ أي هو سبحانه العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، وفائدة اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلاً، فإنهم يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدّقوه، عناداً ومكابرة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي لا يغيب عن الله ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي كائنة فيهما ﴿ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾

أي منه ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ هو اللوح المحفوظ والغرض أن الله سبحانه لا تخفى عليه ذرة في الكون، فكيف تخفى عليه أحوال البشر؟.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ أي ليثيب المؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدار الدنيا، ويجزيهم أحسن الجزاء، وهي علة لقوله تعالى: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لما فَرَط منهم، فلما يخلو عنها البشر ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تعب فيه، ولا منَّ عليه، ولا تنغيص ولا كدر.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقدح فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي مسابقين كي يفوتونا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ﴾ أي من سيِّىء العذاب ﴿أَلِيمٞ﴾ شديد الإيلام والإيجاع.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي يعلم أولو العلم من علماء الأمة المحمدية، أو ممن آمن من علماء أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي القرآن العظيم الموحى إليك يا محمد ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، الذي هو التوحيد، والتدرع بلباس التقوى.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ هم كفار قريش، قالوا مخاطباً بعضُهم لبعض ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، وإنما قصدوا بالتنكير: السخرية، قاتلهم الله ﴿ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي يحدّثكم بأعجب العجائب ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي إذا متم، ومُزِّقت أجسادكم كل تمزيق، بحيث صرتم تراباً ورُفاتاً، ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ أي مستقرون فيه، يعني أنكم تبعثون خلقاً جديداً؟.

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ ﴾.

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾؟ أي أهو مفترٍ على الله كذباً، فيما ينسب إليه تعالى من ذلك؟ ﴿ أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ أي جنون يوهمه ذلك؟ قال الله تعالى رداً عليهم: ليس بالرسول ﷺ من الافتراء والجنون شيء ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يعني منكري البعث ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ أي بل هم في اختلال العقل، وغاية الضلال، لأن من يسمي المهتدي ضالاً فهو الضال، ومن يسمي الهادي مجنوناً فهو الأجنُّ، والرسول عليه الصلاة والسلام في غاية العقل والكمال.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ استئناف مسوقٌ لتهويل ما اجترؤا عليه، من تكذيب آيات الله، واستعظام ما قالوا في

حقه ﷺ، وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العذاب من غير تأخير، أي فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل، المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم، بحيث لا مفر عنه ولا محيص ﴿إِن نَّشَأْ﴾ على موجب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي قطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة بما ارتكبوه من الجرائم، وإنا لقادرون على عذابهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من السماء والأرض، من حيث إحاطتهما بالناظر، وما تدلان عليه من قدرة الله، وعظمته ﴿لَآيَةً﴾ واضحة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ شأنه الإنابة إلى ربه، فإنه إذا تأمل فيما يراه، وتأمل قدرة الله، ينزجر عن القبائح، وفيه حث لهم على الإنابة.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي آتيناه لحسن إنابته، وصحة توبته ﴿فَضْلًا﴾ أي نوعاً من الفضل على سائر الناس فيندرج فيه النبوة، والكتاب، والمُلْك، والصوت الحسن ﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدل من آتينا بتقدير قلنا ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ من التأويب، أي رجِّعي معه التسبيح إذا سبَّح، فكان كلما سبّح عليه السلام، يُسمع من الجبال ما يسمع من المسبِّح، معجزةً له ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على فضلاً، بمعنى وسخّرنا له الطير، فعكفت من فوقه تسبِّح معه، وفي تنزيل الجبال والطير، منزلة العقلاء، مطيعين لأمره تعالى، من الفخامة المعبرة عن عظمة شأنه تعالى ما لا يخفى، وإنما ذكر الجبال والطير، لأن الصخور للجمود، والطير للنفور، يستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقاه فغيرُها أولى، ثم إن من الناس من لن يوافقه وهم القاسية قلوبهم، التي هي أشدُّ قسوة من الحجارة ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي جعلناه ليناً في نفسه كالشمع، يصرّفه في يده كيف يشاء، من غير إحماءٍ

بنار، ولا ضرب بمطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناه إياها ليناً كالشمع، بالنسبة إلى سائر القوى البشرية، وهو في قدرة الله تعالى يسير، فإن الحديد يلين بالنار، وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به فأي عاقلٍ يستبعد ذلك من قدرة الله؟ قيل: إنه عليه السلام طلب من الله تعالى، أن يغنيه عن الناس، فألان له الحديد، وعلمه صنعة اللبوس، وهي الدروع.

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)﴾.

﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أي أمرناه فقلنا أن أعمل ﴿سَابِغَاتٍ﴾ أي الدروع الواسعة، وهو أول من اتخذها، وكانت قبل ذلك صفائح ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ السَّرْدُ: نَسْجُ الدروع، أي اقتصد في نسجها، بحيث تتناسب حِلقها ومساميرها ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي وأكثروا من فعل الخيرات، وعموم الخطاب لعموم التكليف له ولأهله، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها، ومن يعمل للملك شُغلاً، ويعلم أنه بمرأى من المَلِك، يحسن العمل ويتقنه.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢)﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح، وكانت ريحاً مخصوصة، لا هذه الرياح المعهودة فإنها لمنافع عامة، ويدل عليه أنه لم يُقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر، وبالعشي كذلك، وعن الحسن رحمه الله كان

يغدو من دمشق فيَقِيلُ بإصطخر، ثم يروح بكابل ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي النحاس المذاب، وكان ذلك باليمن، أي أذبنا له عين النحاس، أذاب الله النحاس لسليمان، كما ألان الحديد لداود عليهما السلام، ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي وسخرنا له من الجن ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي بأمره تعالى وتسخيره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به، من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، وقيل: في الدنيا، فمن زاغ منهم يُحرقه الله تعالى.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لما ذكر من عملهم ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ بيان لما يشاء أي من قصور حصينة، ومساكن رفيعة شريفة، سُمِّيت بذلك لأنه يُحارب عليها ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ ما يكون في المحاريب من النقوش، وفيها تماثيل وصور لأنواع من المخلوقات، على عادة الملوك والعظماء، قال الحسن: لم تكن يومئذٍ محرَّمة، وقد حرمت في شريعتنا سدّاً للذريعة[1]، لئلا تُعبد من دون الله ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي قصاع ضخمة جمع جفنة، وهي آلة الأكل ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي كالحياض الكبيرة جمع جابية، وهي الحوض الكبير الواسع قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل لكثرة جنده ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات لعظمتها، ذكر في حق داود آلة الحرب، وفي حق سليمان عليهما السلام آلة السلم، وهي المساكن، والمآكل وذلك لأن داود قتل الملوك الجبابرة، وهيأ لابنه الملك، وجمع له المال فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية لما قيل لهم

---

(١) انظر كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» حول حكم التماثيل والصور ٢/ ٣٧٩ ففيه بحث نفيس مفصَّل.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر، بقلبه ولسانه وجوارحه، ومع ذلك لا يوفي حقه، لأن التوفيق للشكر نعمة أخرى تستدعي شكراً آخر، روي أن داود عليه السلام جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات، إلاَّ وإنسان من آل داود قائم يصلي، خاشعاً متضرعاً إلى الله.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان عليه السلام بالموت، وأمتناه فعلاً، وإنما حكى تعالى أمر موته، بعد أن حكى عظمة سليمان، وتسخير الريح، والجن، لينبِّه أنه لم ينج من الموت، مع ما أعطي من الملك الباهر، وعلى أن الموت لا بد منه لكل حيّ ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ أي على موت سليمان عليه السلام ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ هي دويبة تنخر الخشب وتأكله وهي السُّوسة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علماً بيّناً بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون، لعلموا موته، حيثما وقع، ولم يلبثوا بعده حولاً وهم لا يدرون موته روي أنه لمَّا حان أجله، سأل ربه أن يُعَمِّي عليهم موته، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض الله روحه، وهو متكئ عليها، فبقي كذلك، والجنُّ فيما أُمروا به من الأعمال الشاقة، حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً، وكان عمره عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي لأولاد سبأ بن يشجب بن قحطان ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ وهي باليمن، يقال لها «مأرب» بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة دالة على وجود الخالق جلّ وعلا وقدرته، المجازي لكل محسن ومسيء ﴿جَنَّتَانِ﴾ المراد بهما روضتان من البساتين ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي جماعة عن يمين بلدهم، وجماعة عن شمالها، كل واحدة كأنها جنة واحدة، أو بستان كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم، تكميلاً للنعمة، وتذكيراً لحقوقها حيث لم يمنعهم من أكل ثمرها خوف ولا مرض ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ كانت أطيب البلاد هواءً، وأخصبها تربة، ليس فيها بعوض ولا ذباب، ولا ما يعكِّر الصفو ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي وربكم الذي رزقكم ما فيها، رب غفور، يغفر زلة من يشكره.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر، بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه، قيل: أرسل الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى، وأنذروهم فكذبوهم، وقالوا ما نعرف لله علينا نِعمة، فقولوا لربكم فليحبسْ هذه النعمة عنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي السيل، المدمِّر المخرّب، الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فغرّق بساتينهم ودورهم، وذلك بثقب السد الذي كان يحبس عنهم السيول الذي بنته الملكة «بلقيس» بين الجبلين بالصخر والقار، فلما هدم السدُّ جاء السيل وعلا على دورهم وأموالهم فغرَّقها ومُزِّقوا كل ممزَّق، حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي أذهبنا جنيتهم وآتيناهم بدلهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأُكُل: الثمرُ، والخَمْطُ: المرُّ البشع أي ثمر بشع، فإن الخمْط كل نبت أخذ طعماً من مرارة، لا يمكن أكله ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

الأثلُ: شجر لا ثمر له، ووصف السدر بالقلة لما أن جناه لا يؤكل أصلاً وهو عارٍ عن النفع، أي وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها، كشجر الأثل والسِّدر، وحاصله كانت أشجارهم خير الأشجار، فصيرها الله تعالى من شر الأشجار، بسبب أعمالهم الخبيثة، وتسمية البدل بجنتين للتهكم، بيّن الله به دوام الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس، تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة، وإذا تُركت سنين تصير كالغيضة والأجمة، وتنبت فيها المفسدات، ولا خير فيها.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من التبديل ﴿ جَزَيْنَٰهُم ﴾ أي بذلك الجزاء الفظيع ﴿ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدها ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ أي ما نجازي هذا الجزاء، إلا للمبالغ في الكفر، الجاحد لفضل الله.

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ حكاية لما أوتوا من النعم البادية، في أسفارهم ومتاجرهم، تكملة لقصتهم، وإنما لم يُذكر الكلّ معاً، لما في التكرير من زيادة تنبيه وتذكير، وهو عطف على ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لا على ما بعده، أي جعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم، من فنون النعم ﴿ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي القرى الشامية ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أي متواصلة يُرى بعضُها من بعض، لتقاربها، ظاهرة للمسافرين، فكانوا في متعة في أسفارهم، كما كانوا في رغد من عيشهم، وهي أربعة آلاف قرية من سبأ إلى الشام ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين، يليق بأبناء السبيل، فقد كان الغادي يقيل في بلدة، والرائح منها

يبيت في الأخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل ونهار ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون عدواً، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدة سفركم، ولا تحتاجون إلى حمل زاد ولا ماء، لكثرة الخيرات والمياه، فكانوا يسيرون آمنين مطمئنّين لا يخافون شيئاً.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي بطروا النعمة، وسئموا طيب العيش، فطلبوا الكدَّ والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل، مكان المنِّ والسلوىٰ، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً، ليركبوا فيها الرَّاوحل، ويتطاولوا على الفقراء، فعجل الله لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعاً لا يُسمع فيها داع ولا مجيب ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرَّضوها للسخط والعذاب ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم، متعجبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ أي فرقناهم كلَّ تفريق، وشرَّدناهم في البلاد، قيل: لما غرقت بلادهم، تفرقوا في البلاد، حتى لحقت «غسان» بالشام، و «أنمار» بيثرب، و «حزام» بتهامة، و «الأزد» بعمان، وفي عبارة التمزيق من تهويل الأمر، وشدة الإيلام والتأثر ما لا يخفى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من قصتهم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي شأنُه الصبرُ على البلاء، والشكر على النعماء.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي حقّق على أهل سبأ ظنه أنه يغويهم، كما قال اللعين: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾

بيان لذلك، أي فاتبعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة. وكفروا نعمة الله ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إلاَّ فريقاً هم المؤمنون، فإنهم لم يتبعوه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾ أي لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقاً ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي إلا لحكمة جليلة، هي أن نظهر علمنا للعباد، ليعلموا المؤمن من الكافر، والخبيث من الطيب، وليميزوا بينهما، والمراد بقوله: ﴿إلاَّ لنعلم﴾ أي لنظهر للخلق علمنا، وإلاَّ فالله عزَّ وجلَّ عالم بما كان وما سيكون ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي يؤمن بالآخرة، ممن هو شاك فيها، والمراد من حصول العلم، حصول متعلقه مبالغة ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ أي محافظ عليه، رقيب على العباد، لا تخفى عليه خافية من أفعالهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِين﴾[2] واعلم أنَّ عِلمه تعالى من الأزل إلى الأبد، محيط بكل معلوم، وعلمه لا يتغير، ولكنْ هو كاشف يكشف ما خفي على البشر، ولذلك يُقال: هو علم إظهار لا علم بداء أي بداية، فالله يبتلي العباد ليظهر لهم الحقائق، مثاله: إن المرآة يظهر فيها صورة زيد، ثم إذا قابلها عمرو تظهر صورته، والمرآة لا تتغير في ذاتها، ولا تتبدل في صفاتها، وإنما التغير في الخارجات، فكذلك ههنا وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجىء، وإنما هو علامة خلقها الله، ليتبين للعباد ما هو في علمه تعالى.

---

(١) سورة الحِجر، آية: ٤٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٣.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿قُلِ﴾ لما بيّن الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين، عاد إلى خطاب أهل مكة، أي قل للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتموهم آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع، أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم، إن صحّ دعواكم؟ ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب فقال ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أمر من الأمور، في السموات ولا في الأرض، وليسوا بقادرين على شيء في الكون بأجمعه ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي من شركة، لا خلقاً، ولا مِلْكاً، ولا تصرفاً ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي لله تعالى ﴿مِنْهُم﴾ من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه في تدبير أمرهما، يريد أنهم في هذه الصفات من العجز، فكيف يصحُّ أن يُدْعَوْا كما يُدعى، ويُرْجَوْا كما يُرجى؟.

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ قاله تكذيباً للكفار، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب الشفعاء، من الملائكة، والرسل، والتفزيعُ: إزالةُ الفَزَع، كأنه قيل: يتربصون في موقف الاستئذان، ويتوقفون على وَجَلٍ وفزع، حتى أزيل الفَزَعُ عن قلوبهم وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿قَالُوا۟﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ في شأن الإذن ﴿قَالُوا۟﴾ أي الشفعاء ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي قال ربنا القولَ الحق، وهو الإذن للمستحقين لها ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي وهو المنفرد بالعلوّ والكبرياء جلَّ وعلا.

﴿ ۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ ﴾.

﴿ ۞قُلۡ ﴾ أمر ﷺ بتبكيت المشركين، بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما، وأن الرزاق هو الله تعالى، وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً مخافة الإلزام، قيل له ﴿ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ﴾؟ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً، فهم مقرُّون به بقلوبهم. كما أنهم عند الضُرّ يقولون ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهُمْ﴾ وأمَّا عند الراحة فهم غافلون عن الله، فلذلك قال لرسوله ﴿قُلِ الله﴾ ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى المناظرات العلمية، وذلك لأن أحد المتناظرين، إذا قال للآخر: هذا الذي تقول خطأ، أو أنت مخطىء يغضبه، وعند الغضب يكون عنادُ الفكرِ، وأما إذا قال له: أحدنا لا يُشكُّ أنه مخطىء، والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن، فإنه لا يغضب، ويجتهد في النظر ويترك التعصب، وهذا أبلغ من التصريح، لأنه في صورة الإنصاف، المسكت للخصم الألد، وقد ذكر تعالى في الهدى كلمة (على) وفي الضلال كلمة (في) لأن المهتدي كمن ركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في الظلام لا يرى شيئاً [1].

---

(١) هذا نهاية الإنصاف مع الخصم، فمن المعلوم أنَّ من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً، ففي قوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ غاية التلطف في الدعوى، والإنصاف مع المعاند، وفيه تعريض بضلالهم، وهو أبلغ من الردّ بالتصريح، وكذلك في الآية بعدها ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، حيث أسند الإجرام لنفسه، والعمل إلى المشركين المجادلين، ولله در التنزيل!!.

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ في الإخبات، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، والعمل إلى المخاطبين، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر. فذكره بلفظ العمل، لئلا يحصل الإغضاب، وقوله: ﴿لا تُسْأَلُونَ وَلاَ نُسْأَلُ﴾ زيادة حثّ على النظر.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة، عند الحشر والحساب ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ثم يحكم بيننا بالعدل، بأن يُدخل المحقين الجنة، والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ﴾ أي الحاكم الفيصل في القضاء، الذي لا يظلم أحداً، والفتح حقيقة في فتح المغلق، ومجاز في فتح الحُكْم المغلق ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما ينبغي أن يقضي به.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ﴾ أي أعلموني ﴿ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم ﴾ أي ألحقتموهم ﴿ بِهِۦ ﴾ بالله تعالى ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ أريد بأمرهم ذلك إظهار خطئهم العظيم، أي أرونيها لأنظر بأيِّ صفةٍ ألحقتموها شركاء بالله، الذي ليس كمثله شيء، في استحقاق العبادة؟ وفيه مزيد تبكيت لهم، بعد إلزام الحجة عليهم ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن المشاركة ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الموصوف بالغلبة القاهرة، والحكمة الباهرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسُّ الأشياء من هذه الرتبة العالية!؟.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ لمَّا بيَّن مسألة التوحيد، شرع في بيان الرسالة، أي وما أرسلناك يا محمد إلا لعموم البشر ﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغي والضلال.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرط جهلهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾؟ بطريق الاستهزاء، يعنون به العذاب الموعود، الذي كان يخوفهم به سيد الخلق ﷺ ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ مخاطبين لرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ ﴾ أي وعدُ يوم ﴿ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ ﴾ عند مفاجأته ﴿ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ وفي هذا الجواب مبالغة في التهديد.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ ﴾ من الكتب القديمة الدالة على البعث، قيل: إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا فقالوا

ذلك ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موقف المحاسبة، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يتخاصمون ويتحاورون، كما يكون عليه حال جماعة، أخطأوا في أمر، يقول بعضهم لبعض: «كان ذلك بسببك». ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي يقول الأتباع، بدأ بهم لأن الضال أولى بالتوبيخ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستبقوهم في الغي والضلال ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباع الرسول ﷺ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين من الأتباع: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾؟ منكرين لكونهم هم الصادون عن الإيمان ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي راسخين في الإجرام لاختياركم، وإيثاركم الضلال على الهدى، ولم تضلوا بسببنا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي لم يكن إجرامنا هو الصادّ لنا عن الإيمان، بل صدَّنا مكركم الدائم بالليل والنهار ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ أي وقت أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي حين دعوتكم لنا إلى الكفر بالله، وأن نجعل له شركاء، وزينتم لنا ذلك، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي أضمر

الفريقان النَّدامة، على ما فعلا من الضلال والإضلال، وأخفاها كل منهما عن الآخر، مخافة التعيير ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وجعلنا السلاسل الحديدية في أعناق الكفرة الفجار، زيادة على تعذيبهم بالنَّار، فتركوا الندم والمحاورة، ودفعوا في نار الجحيم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟ أي لا يجزون إلا بما كانوا يعملونه من القبائح وسوء الأعمال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي متنعّموها ورؤساؤها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هذا تسلية لرسول الله ﷺ، ممَّا مُنِيَ به من قومه، وتخصيص المتنعمين، مع أن غيرهم أيضاً قالوا ذلك، لأن الأغنياء المستكبرين، هم الأصل في ذلك، ولأن الداعي إليه التكبرُ والمفاخرةُ، ألا ترى أن المستضعفين قالوا للمستكبرين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾؟.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي وقال الطغاة المترفون من أغنياء مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين، ولن يعذبنا الله، لأنه أكرمنا في الدنيا، فلا يهيننا في الآخرة على تقدير وقوعها، وقاسوا أمور الآخرة على أمور الدنيا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيّق على من يشاء أن يضيقه عليه، من غير أن يكون لأحد دخل، فربما يوسع على العاصي، ويضيّق على المطيع، وربما يعكس

الأمر، وقد يوسّع على شخص تارة، ويضيّق عليه أخرى، حسبما تقتضيه مشيئته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيزعمون أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة، ومدار التضييق هو الهوان، وكثيراً ما يكون استدارجاً للكافر، كما قال سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي وليست أموالكم ولا أولادكم تقرّبكم عندنا قربة، وهو رد على قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأولَاداً﴾ فإن المال والولد لا يقرّبان إلى الله تعالى، ولا اعتبار بالتعزز به ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي لا تقرّب أحداً، إلاّ المؤمن الصالح، الذي أنفق أمواله في سبيل الله، وعلّم أولاده الخير، وربّاهم على الصلاح، ورشحهم للطاعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالإيمان والصلاح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ يعني تُضاعفُ حسناتُهم، الواحدة عشراً فما فوقها ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي في غرفات الجنة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من جميع المكاره، وفيه إشارة إلى دوام النعيم، فإن من تنقطع عنه النّعمة لا يكون آمنا.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي وأما الكفار الذين يسعون للصدّ عن سبيل الله، يظنون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، فهم في العذاب مخلّدون، لا يجديهم ما عوّلوا عليه نفعاً.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ أي يوسّع على من يشاء، ويضيّق على من يشاء ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله، قليلاً كان أو كثيراً، فإن الله سبحانه يعوِّضه عليكم، إما عاجلاً أو آجلاً، أمّا في الدنيا فبالمال، من حيث لا يحتسب الإنسان، أو بالقناعة وهي كنز لا يفنى، وأما في الآخرة فبالثواب الذي كل خلف دونه، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى: «أَنْفِقْ يُنْفَقْ عليك»[1] وقال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ومَلَكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ ممسكاً تَلَفاً»[2] ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي هو تعالى خير المعطين لعباده، فإن غيره وسط في إيصال رزقه، لا حقيقة لرازقيته، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً، فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سُمي المعطي، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط: فرسٌ، وإنسان.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي المستكبرين، والمستضعفين، وما عبد من دون الله ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركين على

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٨/ ٢٦٥ ومسلم في الزكاة رقم ٩٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ٣/ ٢٤١ ومسلم رقم ١٠١٠ في الزكاة أيضاً باب في المنفق والممسك.

نهج قوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة، من شفاعتهم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي أنت الذي نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله تعالى ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ الضمير الأول للمشركين، والثاني للجن، أي أكثر هؤلاء الكفار، مصدّقون بأقوال الشياطين، يزعمون أن الملائكة تشفع لمن عبدها، وما هو إلاَّ ظنٌّ وتخمين.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي ففي يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، إذ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله وحده ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ونقول للمشركين ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدّنيا، فحينئذ يكون من الأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ أي وإذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقيَّة التوحيد، وبطلان الشرك ﴿ قَالُواْ مَا هَٰذَآ ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ أي ليس إلا بشراً مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان عليه آباؤكم فيستتبعكم بما يستدعيه، من غير أن يكون هناك دينٌ إلهي، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لتحريك عرق العصبية منهم، مبالغة في تثبيتهم على الشرك ﴿ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ أي كلام مصروف عن وجهه، لا مصداق له في الواقع ﴿ مُّفْتَرًى ﴾ أي مكذوب بإسناده إلى الله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ ﴾ أي قال الكفرة المتمردون بجرائمهم على الله قالوا عن القرآن ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ من غير تدبر، ولا تأمل فيه ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هذا القرآن إلا سحر واضح ظاهر، لا يخفى على لبيب!! وكلامهم هذا عجيب، فلم يقولوه عن بصيرة، وإنما عن ظن وتخمين، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أي يقرؤون فيها ما يقولون ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذاب الله، ويعرِّفهم الحقيقة بوجهٍ من الوجوه، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الضال؟ وكيف حكموا هذا الحكم الظالم؟ وهذا غاية التجهيل لهم.

ثم هدَّدهم بقوله تعالى:

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المتقدمة كما كذبك هؤلاء الضالون ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة، وطول العمر، وكثرة المال والأولاد ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ

نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم بالهلاك والتدمير؟ ولم يغنِ عنهم ما كانوا عليه من القوة والبأس، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ أي ما أرشدكم إلا بخصلة واحدة؛ هي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ ليس المراد به القيام على القدمين، بل النهوض بالهمَّة أي أن تنصبوا للأمر وتهتموا به، خالصاً لوجه الله، وطلباً للحق، معرضين عن المماراة والتقليد، والحمية والعصبية ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ أي متفرقين، اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فإن الجمع الكبير يشوّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام، وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنه أوثقُ، وأقرب إلى الاطمئنان، لأنهما يتفكران، ويعرض كل واحدٍ منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه، نظر الصدق والإنصاف، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، والفردُ يتفكر في نفسه، بعدلٍ وإنصاف، ويعرض فكره على عقله، فعقله يؤديه إلى الحق، ثم ليفكر في نفسه، هل رأى في هذا الرجل أثر الجنون؟ أو جرَّب عليه كذباً قط؟ ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ في أمره ﷺ وما جاء به، لتعلموا حقيقته وحقّيته، وأنَّ مثل هذا الأمر العظيم، الذي تحته ملك الدنيا والآخرة، لا يتصدى لإعادته إلا مؤيَّد من عند الله، مرشح للنبوة، واثق بحجته، وإذ قد علمتم أنه ﷺ أرجح العالمين عقلاً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأفضلهم علماً، وأحسنهم عملاً، وأجمعهم للكمالات البشرية، وقد انضم إلى ذلك معجزات، تخرُّ لها صمُّ الجبال، وإذ علمتم ذلك تبين أنه ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي ما بمحمد الذي صاحبتموه، شيء من آثار الجنون، كما افتريتم عليه!! ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو ﴿ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم ﴾ أي ينذركم ويخوفكم بعذاب أليم ﴿ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وهو عذاب الآخرة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي أيَّ شيءٍ سألتكم من أجر على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأساً، كقول من لم تعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً فخذه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هو سبحانه مطَّلع على حقيقة الأمر، يعلم صدقي، وخلوص نيتي، وبأني لا أطلب، الأجر إلاَّ منه، وكفى به شهيداً!!.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٤٨﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي الوحي يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده، ويرمي به الباطل فيدمغه، كقوله سبحانه: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهق..﴾[1] ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي هو سبحانه العالم بخفيَّات الأمور.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي الإسلام والتوحيد ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي زَهَقَ الشركُ، بحيث لم يبق أثره، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ظهر، لأن كل ما جاء فقد ظهر، والباطلُ خلاف الحق، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبدِئُ ٱلبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا يفيد شيئاً في الأولى، ولا في الآخرة، فلا إمكان بوجوده أصلاً.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن طريق الحقّ كما زعمتم ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإن وبال ضلالي عليها، لأنه بسببها، لا يضرّ غيرها، وذلك لأن كفار مكة، كانوا يقولون له: إنك قد ضللتَ حين تركتَ دين آبائك!! ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ لأن الاهتداء بهدايته وتوفيقه، وفيه تقرير الرسالة، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فلنفسه﴾ وقال في حق الرسول ﷺ ﴿وإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وإذْ أوحى الله إليّ هذا القرآن، فأنا على الهداية التامة بفضل الله ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع قول كل من المهتدي والضال ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند البعث، وجواب «لو» محذوفٌ للتهويل، أي لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي لا مهرب ولا مخلص ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي من الموقف إلى النار.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ حين عاينوا العذاب ﴿بِهِۦ﴾ بالرسول ﷺ وبالقرآن، وقد مرَّ ذكره ﷺ في قوله تعالى: ﴿ما بصاحبكم﴾ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناوشُ: التناولُ السهل، أي ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً؟ ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد، فكيف يعودون إليها ليؤمنوا؟ وهو تمثيل حالهم، في الاستخلاص بالإيمان، بعدما فات عنهم، بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعيد، ويده لا تصل

إليه، وقد بعدت الدنيا عن الآخرة، بمفاوز، فكيف يصلون إلى الإيمان، وهم في عرصات الآخرة؟ والتوبة كانت تقبل في الدنيا وقد ذهبت؟.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالرسول ﷺ وبالحقِّ الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ذلك، في أوان التكليف في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ويرمون بالظنِّ في الأمور الغيبية، ويتكلمون بما لم يظهر لهم، في الرسول ﷺ ودعوته، من المطاعن حيث يقولون: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي من جهة بعيدة لا يرون ما يرمونه، وهو تمثيلٌ لحالهم في ذلك، بحال من يرمي شيئاً لا يراه، من مكان بعيد، فكيف يصيبه؟ والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف: هو يقذف ويرجم بالغيب، على جهة التمثيل، لمن يرمي ولا يصيب الهدف.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي وحيل بين الكفار وبين ما يشتهون، من نفع الإيمان، والفوز بالجنان، والعودة إلى الدنيا ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي كما فُعل بأشباههم وأمثالهم، من كفرة الأمم الدارجة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا في شك وارتياب، من أمر البعث والحساب، موقع لهم في الريبة والتهمة، وقوله: ﴿مريب﴾ من باب التأكيد، أي كانوا في شك واضح جلي، كما تقول: هذا شعر شاعر، وحكمة حكيم. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ»

* * *



سورة فاطر

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما، من الفَطْر بمعنى الشقّ، كأنه شقّ العدم بإخراجهما منه ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أي جاعلهم وسائط بينه تعالى، وبين أنبيائه، يبلّغون إليهم رسالاته، بالوحي، والإلهام، والرؤيا الصادقة ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أي ذوي أجنحة يطيرون ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي ذوي أجنحة متعددة، متفاوتة في العدد ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي يزيد سبحانه في خلق كلٍّ ما يشاء أن يزيده، بموجب مشيئته تعالى، والآية تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وحسن الوجه، والصوت، وحصانة العقل، وجزالة الرأي، وذلاقة اللسان، وما أشبه ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل للحكم المذكور، أي إنه تعالى قادر على كل شيء، له الخلق، والأمر، والسلطان، فلذلك لا يعجزه شيء أراده، من خلق الملائكة بهذه الصور العجيبة، والأجنحة العديدة.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ أيْ أيَّ شيء يمنحه الله تعالى، من خزائن رحمته من نعمة، أو صحةٍ، أو أمنٍ، أو علمٍ، أو نبوة إلى غير ذلك ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي لا يقدر أحد على منعها وإمساكها عن عباده ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ أي أيَّ شيء يمسكه الله ويحبسه عن عباده ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ ﴾ أي لا أحد يقدر على إرساله ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد إمساكه له جلَّ وعلا ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل ما يشاء ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة، والمصلحة، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطي لما منعت، ولا رادَّ لما قضيتَ ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجدُّ»[1] الجَدُّ: الغِنى، الحديث.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إنعامه عليكم، أي راعوها واحفظوها، بمعرفة حقها، والاعتراف بها وشكر المنعم عليها، ولما كانت نعم الله تعالى ـ مع تشعب فنونها ـ منحصرة في نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء، نفى أن يكون في الوجود شيء غيره تعالى، يصدر عنه إحدى النعمتين، بطريق الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؟ أي هل خالق مغاير له تعالى موجود ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي بالمطر والنبات ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله جلَّ وعلا، فاعبدوه واشكروا له

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة رقم ٤٧٨ والنسائي في الافتتاح ٢/١٩٨.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان، عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ومن أين تكذبون فتزعمون أنَّ الآلهة ترزقكم؟.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي وإن استمروا على أن يكذبوك، بعدما أقمت عليهم الحجة، فتأسَّ بأولئك الرسل، في المصابرة على ما أصابهم من قومهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتنكير الرسل للتفخيم، أي رسل أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلاًّ بما يستحقه، وهذا مبالغة في الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ تكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير، أي لا تخدعكم الدنيا بزخارفها ونعيمها، ولا يخدعكم الشيطان بوساوسه وأمانيه، فإنه كذَّاب خدَّاع ماكر.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي عداوته قديمة لا تكاد تزول ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له، وكونكم على حذر منه، فالطريق في عداوته الثبات على الجادة، والاتكال على العبادة ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير من طاعته، بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى

اتباع الهوى، ليس لتحصيل منافعهم الدنيوية، كما هو مقصد المتحابين في الدنيا، بل هو توريطهم وإلقاؤهم في العذاب المخلد.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي الذين أطاعوا الشيطان، وصاروا من حزبه ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ ﴾ لا يُقادر قدره ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا غاية له، لكبر جهادهم، وهو الجنة دار السعادة والخلود.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ ﴾ تقرير لما سبق أي أبعد كون حالهما كما ذُكر، يكون من زُيِّن له الكفر، من جهة الشيطان، كمن استقبحه واختار الإيمان، والعمل الصالح ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ﴾ بيان أن الكل بمشيئته تعالى فإنه يضل ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يضله، لصرف اختياره إليه، فيرده أسفل سافلين ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ أن يهديه، بصرف اختياره إليه، فيرفعه إلى أعلى عليّين ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ ﴾ أي فلا تهلك نفسك عليهم، حسرةً على عدم إيمانهم، وإصرارهم على التكذيب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ أي هو سبحانه العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح والجرائم، ومجازيهم عليها فلا تتأثر على عدم إيمانهم.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وقد ينشىء السحاب وقد لا ينشىء، وقد يكون نافعاً، وقد يكون ضاراً، فهذه الاختلافات دليل على مدبر ومقدر جليل ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي فتهيج وتحرّك السحاب ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ أي فنسوقه ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالمطر النازل منه ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ أي يبسها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي مثل إحياء الموات إحياء الأموات، رُوي عن أبي رُزين العُقيلي قال: قلت يا رسول الله: كيف يحيي الله الموتى؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك مُمحلاً، ثم مررتَ به يهتزُّ خِضَراً؟ قلت: نعم، قال كذلك يحيي اللهُ الموتى»[1].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ أي الشرف وعزة الدنيا والآخرة، ويريد أن يعلم أن العزة والقدرة والمنعة، لمن هي؟ ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي فلله وحده لا لغيره، فالكفار يتعزّزون بعبادة الأصنام، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[2] وكانوا يطلبون العزة عند الأصنام فقيل لهم: إن تطلبوا العزة في الحقيقة فهي كلها لله، وأما هذه الأصنام فلا عزة بها، بل عليها ذلة، فمن كان معبوده وربه حجارة أو خشباً، ماذا يكون هو؟ إنه ذليل، لأن ذلة السيد ذلة للعبد ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ بيان لما يطلب به العزة، وهو التوحيد والعمل الصالح، أي من

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وأحمد في المسند ٤/ ١٢.

(٢) سورة مريم، آية: ٨١.

أراد العزة، فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفع العبد ويشرفه ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ السيئات صفة لمصدر محذوف، أي يمكرون المكرات السيئات، ويحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، كما فعلوا في دار الندوة، حيث تآمروا على الرسول ﷺ بالحبس، أو القتل، أو الإخراج، كما قال تعالى: ﴿وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[1] الآية ﴿لَهُمْ﴾ بسبب مكراتهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم، للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد واشتهارهم بذلك، أي ومكر أولئك المفسدين ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي يبطل ولا ينقذ صاحبه ولقد أبادهم الله تعالى ببدر، فجمع عليهم مكراتهم، وحقّق فيهم قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[2].

> ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا مثبتة بعلمه، تابعة لمشيئته ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي وما يمد في عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي لا يجعل من الابتداء ناقصاً، وقيل الزيادة والنقصان في عمر إنسان واحد، مثل أن يكتب إن حج فلان فعمره ستون، وإلاَّ فأربعون، وعن قتادة: المعمَّر من يبلغ ستين سنة، والمنقوص من يموت قبل الستين ﴿إِلَّا فِي

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٠.
(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿كِتَٰبٍۚ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقيل: صحيفة كل إنسان ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ من الخلق وما بعده ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ مَثَلٌ ضُرب للمؤمن والكافر، أي كما لا يتساوى ماء البحر وماء النهر، فهذا ماء حلو شديد الحلاوة، وذاك ماء مالح شديد الملوحة، كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البرُّ مع الفاجر، والفراتُ: الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره، والأُجَاجُ: الذي يُحرق بملوحته ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي ومن كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والمراد بالحلية: اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي في كل منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع ماخرة، أي شواقّ للماء بجريها، يقال: مَخرت السفينةُ الماءَ أي شقته ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من فضل الله بالسفر والتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لتشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله، بتسخير ذلك لكم.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ هو يوم القيامة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، أي ذلكم العظيمُ الشأن، الذي أبدع هذه الصنائع

البديعة الله ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم وموجدكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي له المُلْكُ، والسلطانُ، والتصرف الكامل في الخلق ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير، وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، فإذا كان له الملك كلُّه، فلا معبود إلا هو لذاته جلَّ وعلا.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي إن دعوتم هذه الأصنام، لم يسمعوا دعاءكم، ولم يستجيبوا لندائكم، لعجزها عن ذلك، لأنها جمادات ليس من شأنها السماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ بالفرض والتقدير ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لعجزهم عن السمع والقدرة لأنها جمادات ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يجحدون بإشراككم وعبادتكم إياهم بقولهم: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا ينبئك أيها المخاطب إلا اللهُ الخبير، والمعنى: إن هذا الذي أخبرتكم به، من حال الأوثان، هو الحق، لأني خبير بما أخبرت به.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أنتم الفقراء على الحقيقة في أنفسكم، المحتاجون إلى الله على الدوام، في جميع أحوالكم، وفي حركاتكم وسكناتكم، وتعريف الفقراء للمبالغة، كأنهم لكثرة افتقارهم، هم الفقراء فحسب ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاق، المنعم على سائر الموجودات، حتى استحق عليهم الحمد.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيان لغناه، وفيه بلاغة كاملة، وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته، سبحانه بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقال فيه: إن يشأ فلانٌ هدم داره، ثم زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ أي ويأتي بقوم آخرين خير منكم، ليسوا على صفتكم، بل مستمرون على العبادة.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ليس بصعب، ولا متعسر، لأنه على كل شيء قدير.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي إثم نفسٍ أخرى، كما يأخذ جبابرةُ الدنيا الوليَّ بالولي، والجارَ بالجار، بل إنما تحمل كل منهما وزرَها، ألا ترى كيف كذَّب الله المشركين في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] وأما في قوله تعالى: ﴿وليَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وأثْقالاً مَعَ

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٢.

﴿أَثْقَالِهِمْ﴾[1] فهو حمل أثقال إضلالهم، مع أثقال ضلالهم، وكلاهما أوزارهم، ليس فيها أوزار غيرهم ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي نفس أثقلتها الأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي لحمل بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي لم تُجب بحمل شيء منه ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعوُّ المستغاثُ به ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة من الداعي، كأخ، أو ابن، أو عم، فكل إنسان يريد نجاة نفسه، حتى إن الأمَّ لتتعلق بالابن فتقول: يا بنيَّ احملْ عني بعضَ أوزاري، فيقول: لا أستطيع، نفسي، نفسي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي إنما تنذر بهذا القرآن والذكر ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو عن الناس في خلواتهم ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي راعوها كما ينبغي، أي إنما ينتفع من إنذارك هؤلاء من قومك، دون من عداهم من أهل التمرد والطغيان ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهَّر من أوضار الأوزار والمعاصي، بالتأثر من هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ لاقتصار نفعها عليها، كما أن من تدنَّس بها، لا يتدنس إلا عليها ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره، فيجازيهم على أعمالهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ أي ولا الباطل ولا الحق، وجمعُ «الظلمات» مع إفراد النور، لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ ﴾.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ أي ولا الثواب ولا العقاب، أو الجنة والنار وإدخال لا على المتقابلين لتأكيد نفي الاستواء، والحَرُورُ من الحرِّ، غلب على السموم، وقيل: السموم ما يهبُّ نهاراً، والحَرُور ما يهبُّ ليلاً.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ ﴾.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين، أبلغ من الأول، فإن الأعمى قد يكون فيه بعض النفع، بخلاف الميت، فإنه لا نفع فيه مطلقاً، فشبه تعالى المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات، لأنهم مثل الأموات لا يسمعون ولا يستجيبون [1]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يسمعه، ويوفقه لفهم آياته، والاتعاظ بعظاته ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتمثيل المصرّين على الكفر بالأموات، وإقناطه ﷺ من إيمانهم.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ ﴾.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي ما عليك إلا الإنذار، وأما الإسماع والهداية فليس من وظائفك، ولا حيلة لك إليه، في المطبوع على قلوبهم.

---

(١) ورد تمثيل المؤمن بالحي، والكافر بالميت، في مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وقوله سبحانه: ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ وقوله عزّ وجل: ﴿فإنك لا تسمع الموتى..﴾ الآية، فالميت لا نفع فيه، ولا خير يُرجى منه، كذلك الكافر لا يفقه ولا يفهم الغاية من وجوده، فهو بهيمة في صورة إنسان، وشبح ميت في صورة آدمي يمشي ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي بعثناك بالهدى والدين الحقّ ﴿ بَشِيرٗا ﴾ بالوعد الحق للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرٗاۚ ﴾ بالوعيد الحق للكافرين ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ ﴾ أي وما من أمة من الأمم الدارجة، في الأزمنة الماضية ﴿ إِلَّا خَلَا ﴾ أي مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ من نبي أو رسول، ينذر قومه، لئلا يبقى لأحد حجة بعد الرسل.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي استمروا على تكذيبك، فلا تبال بهم وبتكذيبهم ﴿ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ من الأمم العاتية ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات الظاهرات، الدالة على نبوتهم ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ كالتوراة، والإنجيل، والفرقان.

﴿ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ ﴾ أي أخذتهم بأشد أنواع العقاب، جزاء كفرهم وتكذيبهم ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري بالعقوبة عليهم؟ ألم يكن شديداً فظيعاً؟ وفيه مزيد تهويل للعقاب.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ ﴾ أي مختلفة الأشكال، والألوان، والطعوم، من تفاح، وعنب، وتين ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ

﴿جُدَدٌ﴾ أي طرقٌ مختلفة اللون، ذات حجارة متنوعة ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ بالشدَّة والضعف والحمرة، والبياض، والسواد ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ كأنه قيل: من الجبال طرق وحجارة مختلفة اللون، ومنها ما هو لون واحد، ولفظ «غرابيب» تأكيد لمضمرٍ، يفسِّره ما بعده، فإن غربيب تأكيد للأسود، كالفاقع للأصفر، والقاني للأحمر، يقال أسود غربيب أي شديد السواد، والآية إشارة إلى علم طبقات الأرض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض البشرة، وهذا أحمر، وهذا أسود ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي إنما يخشاه تعالى العالمون به عزَّ وجل، لما أن مدار الخشية، معرفة المخشي، والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى، كان أخشى منه، ولهذا قال ﷺ للمتنطعين، المتشددين في أمر الدين: «أَمَا واللهِ إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»[1] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل للخشية، أي أنه تعالى معاقبٌ للمصرِّ على الطغيان، وغفورٌ للتائب عن العصيان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في النكاح ١١/٤ ومسلم رقم ١٤٠١ باب استحباب النكاح.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ١٣/١٢٥ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٦.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي يداومون على قراءة القرآن، ومتابعة ما فيه، حتى صارت سمةً لهم وعنواناً ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ حثٌّ على الإنفاق كيفما يتهيأ، وقيل: السرُّ في المسنونة، والعلانيةُ في المفروضة ﴿ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ ﴾ تحصيل ثواب الطاعة ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ أي لن تكسد، ولن تهلك بالخسران، جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات، الدائرة بين الربح والخسران، لأنه اشتراء باق بفان، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين، عدَةٌ قطعية بحصُول مرجوّهم.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ ﴾.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ ﴾ أي أجور أعمالهم المذكورة ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾ تعليل لما قبله، أي إنه غفور لفرطاتهم، شكور لطاعتهم ومجازيهم عليها.

﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ الذي لا شك فيه أنه كلام رب العزة والجلال، فإنه حق وصدق وتاليه محقٌّ وصادق ﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ أي محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة، لم يُوح إليك مثل هذا الحق، وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي ثم أورثنا القرآن العظيم هذه الأمة المحمدية، التي اخترناها على سائر الأمم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ بالتقصير في العمل به ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو الذي عمل عملاً صالحاً، وآخر سيئاً ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي سبَّاق إلى الخيرات، وعمل الصالحات بتيسره تعالى، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وفي المراتب الثلاثة أقوال: ١ ـ الظالم لنفسه: من رجحت سيئاته وزادت على حسناته، والمقتصد: هو الذي تساوت سيئاته وحسناته، والسابق بالخيرات من كثرت حسناته ورجحت على سيئاته، ٢ ـ وقيل: الظالم صاحب الكبيرة، المقتصد صاحب الصغيرة، والسابق المحفوظ بحفظ الله عن المعاصي، ٣ ـ وقيل: الظالم التالي للقرآن غيرُ العامل به، والمقتصدُ: الذي يتلو القرآن في بعض الأوقات، ويقصّر في بعض الصالحات، والسابق بالخيرات هو المتمسك في العمل بكتاب الله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى السبق بالخيرات ﴿ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي لا ينال إلا بتوفيقه تعالى أو إشارة إلى الميراث، والاصطفاء.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة ينعَّمون فيها بأنواع النعيم ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمع الضمير لأن المراد بالسابقين: الجنسُ، وقيل الداخلون

هم الفرق الثلاث، لما روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «هؤلاء كلُّهم في الجنة»[1] والقولُ الأول أقوى، لقرب ذكر السابقين، ولأنه ذكر إكرامهم، فالمكرَّمُ هو السابقُ وتخصيص حال السابقين بالذكر، وإن لم يدلَّ على حرمان الفريقين الآخرين، من دخول الجنة، لكنْ فيه تحريضٌ على السعي في إدراك شأو السابقين ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي يزينون في الجنة بأنواع الحلي والزينة، من الذهب، واللؤلؤ، والحرير.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو ما أهَمَّهم من خوف سوء العاقبة، أو من حزن الموت، وأهوال يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ أي للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من إنعامه إذ لا واجب عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي كلال وملل، إذ لا تكليف فيها، والفرق بينهما أن النَّصب نفسُ المشقة والكُلفة، واللغوبُ: ما يحدث منه من الفتور والكلال.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد في المسند، وانظر الأحاديث الواردة في تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿ فَيَمُوتُوا ﴾ ويستريحوا ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر والإجرام، حتى يتمنون الموت ولا يُجابون كما قال تعالى: ﴿ونَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[1].

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ والاصطراخ من الصراخ، وهو صياح المعذب بجهد ومشقة، استعمل في الاستغاثة، لجهر المستغيث بصوته ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ بإضمار القول، أي يقولون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً، يقولونه للتحسر على ما عملوه من غير الصالح ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾؟ جواب من جهته تعالى، والهمزة للإنكار، أي ألم نمهلكم ونعمّركم عمراً طويلاً، يتذكر فيه من تذكّر قيل: هو أربعون سنة، وقيل ستون سنة، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله، حتى بلغ ستين

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٧.

سنة»[1] ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: الشيب والأول هو الأظهر ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنكم، وهو أمر إهانة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا تخفى عليه خافية فيهما ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى ما يكون، كان أعلم بغيرها، فلو قال قائل: الكافرُ ما كفر إلاَّ أياماً معدودة، فكان ينبغي أن لا يُعذَّب إلاَّ مثل ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كان يعلم أن في قلب الكافر تمكُّنَ الكفر، بحيث لو دام إلى الأبد، لما أطاع الله وبقي على كفره، فلذلك يستمر عذابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ قاله تعالى تقريراً لقطع حجتهم، أي نبَّهكم بمن مضى، وأمركم على لسان الرسل بما أمركم به، وجعلكم خلائف تخلفون من سبقكم، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأباح لكم منافعها، لتشكروا الله بالتوحيد، والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي وبال كفره لا يتعداه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ بيان لوبال الكفر، وهو مقت الله تعالى إياهم أي بغضه الشديد لهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي خساراً في الآخرة، لأنه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٦٤١٩.

خسر سعادته، والتكرير لزيادة التقرير، فإنَّ العمر كرأس مال، من اشترى به رضاء الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي آلهتكم، والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، من غير أن يكون له أصلٍ ما ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ أيَّ جزء خلقوا من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي شركة مع الله تعالى، في خلق السماوات، ليستحقوا بذلك شركة الألوهية؟ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنَّا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب، وفيه إيماء أن الشرك أمر خطير، لا بد في إثباته من تعاضد الدلائل ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لمَّا نفى أنواع الحجج، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع، بأنهم شفعاء يشفعون لهم يوم القيامة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استئناف مسوق بيان غاية قبح الشرك، أي يمسكهما كراهة زوالهما، ويمنعهما أن تزولا، لأن الإمساك المنعُ ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ غير معاجل بالعقوبة للكفرة

والعصاة، مع استحقاقهم للعقاب ﴿غَفُورًا﴾ يغفر لمن تاب وأناب منهم، ورجع إلى ربه بالصدق واليقين.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، أنه لو جاءهم رسول ليكونن أسبق الناس إلى الإيمان به، وذلك أنه بلغ قريشاً قبل مبعث الرسول ﷺ أن أهل الكتاب كذَّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذَّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم، أي من أهل الكتاب الذين كذبوا رسلهم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو أشرف الرسل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعداً عن الحق، لأنهم قبل الرسالة، كانوا كافرين بالله، وبعدها صاروا كافرين بالله والرسول، وكانوا يقولون: لو جاءنا رسول لآمنا به، فلما جاءهم أفضل الرسل كذبوا برسالته.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي للاستكبار في الأرض ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ وهو جميع ما كان يصدر منهم، من القصد إلى إيذائه، ومنع الناس من الدخول في الإيمان ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي لا يحيط ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكر، وقد حاق بهم، وفي المثل: «من حَفَر لأخيه جُبّاً، وقع فيه منكبّاً» فإن قال قائل: كثيراً ما نرى أن الماكر يمكر، ويغلب الخصم بالمكر، والآية تدل

على عدم ذلك، والجواب أن الأمور بعواقبها، فالممكور به في الحقيقة هو الفائز، والهالك هو الماكر، وذلك مثل راحة الكافر، ومشقة المسلم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأن يضع موضع العذاب الرأفة والرحمة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى العابدين المتقين، فالمعنى: إن سنة الله تعالى، هي الانتقام من مكذبي الرسل، لا يبدّلها في ذاته، ولا يحوّلها عن أوقاتها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى من أهل مكة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ أي ليسبقه ويفوته شيء ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي مبالغاً في العلم والقدرة، يعلم أعمالهم فيعاقبهم بموجبها.

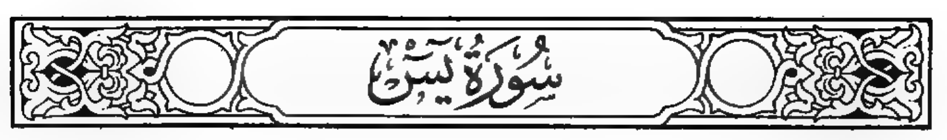
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي من نسمة تدب عليها، من بني آدم من شؤم معاصيهم ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم عند ذلك

بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي قوله تعالى: ﴿ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ تسليةٌ للمؤمنين، يعني إذا جاء الهلاك، فالله بعباده بصير، لا يهلك جميع الخلق، بل يعلم من يستحق العقوبة والجزاء، ومن يستحق الكرامة والنجاة، والله أعلم بمراده، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

* * *



سورة يس

مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

﴿يسٓ﴾ اسم للسورة، وعن ابن عباس أن معناه يا إنسانُ[1]، قالوا المراد به رسول الله ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، ومعنى ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي المتضمن للحكمة، والمحكم الذي أُحكم في نظمه ومعانيه، لأنه كلام الحكيم جلَّ وعلا.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسم، والجملة للرد على قول الكفرة في حقه ﷺ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ وهذه الشهادة من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى في جوابهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[2].

---

(١) قدمنا في أول سورة البقرة، أن الحروف المقطعة إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن.

(٢) سورة الرعد، آية: ٤٣.

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (٤).

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ عبارة عن الشريعة بكمالها، أي أنت يا محمد على شريعة واضحة، ودين قويم، هداك ربك إليه، فاثبت على هذا الدين.

﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (٥).

﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ التنزيل مصدر بمعنى المفعول، أي منزَّل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه، فهو منزَّل من عند الله، لا كما زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به.

﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ (٦).

﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ ﴾ أي لم ينذر آباؤهم الأقربون، لتطاول مدة الفترة ﴿ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ عن الإيمان والرشد.

﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (٧).

﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي والله لقد ثبت وتحقَّق عليهم، لكن لا بطريق الجبر، بل بسبب إصرارهم على الكفر، والمراد بالقول قوله تعالى لإبليس ﴿لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ (٨).

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر، بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ ﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يطأطئون رؤوسهم له، لأن المغلول تكون يداه مجموعة في الغل إلى عنقه ﴿ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ رافعون

رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ تتمة للتمثيل، أي وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك، فغطينا بهما أبصارهم، بحيث لا يبصرون شيئاً، فالآية إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يتساوى عندهم إنذارك لهم أو عدمه، لأن قلوبهم ميّتة، فلا يؤثّر فيها تذكير ولا تخويف.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه، ولم يصر على اتباع الشيطان ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي خاف عقابه وهو غائب عنه، أو خاف في سريرته ولم يغتر برحمته، فإنه منتقم قهار، كما أنه رحيم غفار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾[1] ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لا يُقادر قدره.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٤٩ ـ ٥٠.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي نبعثهم بعد مماتهم، وعن الحسن: إحياؤهم: إخراجهم من الشرك إلى الإيمان، فهو حينئذٍ عِدَةٌ كريمة بتحقق المبشَّر به ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ أي ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ التي أبقوها من الحسنات، كعلم علّموه، أو كتاب ألفوه، أو بناء بنوه كالمسجد، والرباطات، والقناطر، وغير ذلك من وجوه البر، ومن السيئات، كتأسيس قوانين الظلم، وترتيب مبادىء الشر، والفساد بين العباد، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] وقيل: هي آثار خُطى المشّائين إلى المساجد، ولعل أنها من جملة الآثار ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ أي بيِّنْ لأهل مكة ﴿ مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ أي اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو والكفر، أي طبّق حالهم بحالهم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٠١٧ في قصة الضعفاء العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ يلبسون أكسية من الصوف البالية، ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى تقديم العون لهم، فتسارعوا في عمل الخير فقال ﷺ «من سنَّ في الإسلام..» الحديث.

والقرية أنطاكية على المشهور ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ نسبة إرسالهم إليه تعالى، بناءً على أنه كان بأمره تعالى، وهما يوحنا وبولس، وقيل غيرهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي قوينا، يقال عزَّز المطر الأرض إذا لبَّدها ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار، وذلك أن أهل أنطاكية كانوا عبدة أصنام فأرسل عيسى عليه السلام اثنين من الحواريين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب النجار، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا نشفي المريض!! وكان له ولد مريض فمسحاه، فبرىء فآمن حبيب، وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير، وبلغ حديثهما إلى المَلِك، فقال لهما: ألكما آلهة سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك؟ فحبسهما، ثم بعث عيسى عليه السلام «شمعون» فدخل متنكراً، وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به، وأوصلوه إلى الملك، فآنس به، فقال له يوماً: سمعت أنك حبستَ رجلين، قال: فهل سمعتَ ما يقولانه؟ قال لا، فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما قالا: الله الذي خلق كل شيء، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام أكمه ـ أي أعمى ـ فدعوا الله فأبصر الغلام، فقال له شمعون: أرأيت لو سألتَ إلَهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله شرف؟ فقال الملك: إنَّ إلَهنا لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فدعاه إلى الإيمان، لكنه لم يؤمن، واستمر على تعذيب المؤمنين هو وزبانيته فصاح عليهم جبريل فهلكوا.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾ أي أهل أنطاكية مخاطبين للثلاثة ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه، جعلوا كونهم بشراً دليلاً على عدم الإرسال، وهذا عام من المشركين ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ مما تدعونه من الوحي والرسالة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى رسالته، وفيما تزعمونه.

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى، وهو يجري مجرى القسم، وفيه إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب، لم يسأموا ولم يتركوا، بل أعادوا ذلك.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ما علينا إلا تبليغ رسالة الله، وخرجنا عن عهدته، فلا مؤاخذة علينا بعد ذلك، وهذه تسلية لأنفسهم، وحث لهم على النظر والاستدلال.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ لما ضاقت عليهم الحيل ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم، جرياً على ديدن الجهالة، حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم، وإن كان مستجلباً لكل شر، ويتشاءمون بما لا يوافقها، وإن كان مستتبعاً لسعادة

الدارين، وقد روي أنه حُبس عنهم القطر، فقالوا: أصابنا ذلك بشؤمكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لنقتلنكم رمياً بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع أليم.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الرسل ﴿طَائِرُكُم﴾ سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ لا من قبلنا، وهو سوء عقيدتكم، وقبحُ أعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي وعظتم بما فيه سعادتكم، وجواب الشرط محذوف أي أإن ذكرتم تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والتعذيب ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في الكفر والعصيان، ولذلك توعدتم، وتشاءمتم بمن يجب إكرامه.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو «حبيب النجار» وكان في غار يعبد الله، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، فلمَّا بلغه أن قومه كذبوا الرسل، وقصدوا قتلهم جاءهم مسرعاً وقال أتسألون عمَّا جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ تعرضَ لعنوان الرسالة حثاً على اتباعهم، كما أن خطابهم «بيا قوم» لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصحه.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة، وصَفَهم بما يرغّبهم

في اتباعهم، من التنزه عن الغرض الدنيوي ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ تلطُّف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإخلاص النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما اختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم، إلى عبادة غيره، كما ينبىء عنه قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغة في التهديد، ثم عاد إلى النصح والتذكير فقال:

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾؟ إنكار ونفيٌ لاتخاذ الآلهة، على الإطلاق وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإلّه، وقوله: ﴿أَأَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى نفي غيره، فتحقق معنى لا إله إلا الله ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا تنفعني شفاعتهم شيئاً من النفع ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ بالمظاهرة والنصرة.

﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع، ولا دفع الضر، بالخالق المقتدر، الذي لا قادر غيرُه، ضلالٌ بيِّنٌ لا يخفى.

﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ خطاب منه للرسل، بطريق التلوين، وإنما أكّده لإظهار صدوره عنه، بكمال الرغبة، والنشاط، كأنه قال: ربكم الذي أرسلكم آمنت به ﴿ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ أي اسمعوا إيماني، واشهدوا لي به عند الله تعالى، وقيل: الخطاب للكفرة، شافههم بذلك، إظهاراً للتصلب بالدين، وعدم المبالاة بالقتل أي آمنت بربكم أيها السامعون فأنا لا أخافكم ولا أخشاكم.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه، إكراماً له بدخولها حينئذ، كسائر الشهداء، وقال الحسن: لمَّا همُّوا بقتله رفعه الله إلى الجنةِ، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ ما أكرمني الله به من النعيم الخالد، في جنة الفردوس الأعلى.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ وإنما تمنى علم قومه بحاله، ليحملهم ذلك على اكتساب مثله، بالتوبة عن الكفر، والدخول في الإيمان والطاعة، جرياً على سَنَن الأولياء، في كظم الغيظ، والترحم على الأعداء، قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته.

ثم إنه تعالى لما بيَّن حاله، بيَّن حال المخالفين له، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ أي من بعد قتله، أو رفعه ﴿ مِن جُندٖ

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم بل اكتفينا أمرهم بصيحة مَلَك، وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي وما صح في حكمتنا أن نُنزل جنداً لإهلاك قوم حبيب، لأنهم أذل وأهون من أن يرسل الله الملائكة لإهلاكهم.

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾.

﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي ما كانت ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاح بها جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ أي ميتون هالكون، وفيه إشارة إلى سرعة الهلاك، أي ميتون خامدون كما تخمد النار، شُبِّهوا بالنار الخامدة، لأن الحيَّ كالنار الساطعة، والميت كالرماد الذي انطفأت ناره فأصبح خامداً، قال لبيد:

وَمَا المَرْءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ يَحُـوْرُ رَمَـاداً بعـد إذْ هـو سَـاطِعُ

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أي يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسل الله، وهذا نداء عليهم كأنما قيل لها: تعالَيْ يا حسرة، فهذه من الأحوال التي حقها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين، أحقاء بأن يتحسَّر عليهم المتحسِّرون، وذلك لأن من جاءه مَلِكٌ في بادية، وعرَّفه نفسه، وطلب منه أمراً هيناً فكذَّبه، ولم يجبه إلى ما دعاه، ثم أُتي به بين يديه، وهو على سرير ملكه، فعرَّفه أنه ذلك الملك، فكيف تكون ندامته؟ فكذلك الرسل، هم ملوكٌ وأعظم منهم، بإعزاز الله تعالى إياهم، جاؤوا وعرفوا أنفسهم، وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً، نفعُه عائد إليهم، ثم يوم القيامة عند ظهور البأس، تظهر عظمتهم، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة، وكيف لا وهم لم يقنعوا بالإعراض، حتى آذوا واستهزؤوا واستهانوا!!.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ ألم يعلموا ويُخبروا، والخطاب لأهل مكة الذين كذبوا سيد الرسل ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ أي كثرة إهلاكنا لمن قبلهم، من المذكورين المكذبين لرسلهم ومن غيرهم من الضالين ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي كونهم غير راجعين إليهم بعد الهلاك، فكما أنهم مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا، فكذلك هؤلاء يهلكون وينقرضون ثم لا يعودون إلى الدنيا، ألا ينتبهون ويتعظون!!.

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي محضرون يوم القيامة للعقاب والجزاء، و«لما» بمعنى «إلاّ» والمعنى: ما كلكم إلا مجموعون لدينا، محضرون للحساب والجزاء، فالكل يفيد معنى الإحاطة، والجميع معنى الاجتماع، ولما بيَّن الله الإهلاك، بيَّن أنه ليس من أهلكه الله تَرَكه، بل بعده جمعٌ وحساب، ونعم ما قيل:

وَلَـو أَنَّـا إذا مِتْنَـا تُـرِكْنَـا ... لَكَـان المَـوْتُ رَاحَـةَ كُـلِّ حَـيّ
وَلَكِنَّـا إِذَا مِتْنَـا بُعِثْنَـا ... وَنُسْـأَلُ بعـدَهُ عَـنْ كـلِّ شَـيِّ

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ للكفرة ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ أي اليابسة، وهي أدلة تدل على كمال قدرته تعالى على إحياء الموتى ﴿ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ بالمطر ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ جنس الحبوب، يعني الحنطة، والشعير، والعدس، وما أشبههما ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ وتقديم الصلة للدلالة، على أن الحب معظم ما يُؤكل ويُعاش به، وإذا قلَّ جاء القحط.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ أي من أنواع النخيل والعنب ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ أي وأخرجنا فيها ينابيع من الماء العذب، والتفجير كالتفتيق، شقُّ الشيء شقاً واسعاً ﴿ مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ أي بعضاً من العيون.

﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر من الجنات التي فيها من أنواع الحبوب والفواكه ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي وليأكلوا من الذي عملته أيديهم، وهو ما يتخذ منه كالعصير، والدبس ونحوهما ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾؟ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة، والفاء للعطف على مقدَّر، أي أيتنعمون بها ولا يشكرونها؟.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى ﴾ تنزيه لله جلَّ وعلا، أي تنزَّه وتقدَّس الله العلي الجليل، الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان، والأشكال، والطعوم، وفي لفظ «سبحان» استعظام لما ذكر، من بدائع آثار قدرته، وتشنيع على المشركين حيث تركوا شكر المنعم، ولم يقنعوا بالترك، بل عبدوا غيره، وأتوا بالشرك فقال: سبحان الذي ﴿ خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي الأصناف والأنواع[1] ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ المراد به كل ما ينبت فيها، من

---

(١) لقد جاء القرآن بالمعجزة الكونية الباهرة، وكشف لنا الستار عن أمرٍ لم يكن يعرفه =

الأشياء المذكورة وغيرها ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مما لم يطلعهم الله تعالى بعد عليه، لعدم قدرتهم على الإحاطة به، ولما لم يتعلق بذلك شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية، وفي الآية معنى لطيفٌ، وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً، لينزِّه الله تعالى عن الشريك، فإنَّ المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق، فعلى هذا فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون، فإنكم تعلمون أنه مخلوق، ومما لا تعلمون فإنها عنده تعالى مخلوق أيضاً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ تدل على قدرتنا ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي نزيله عن مكانه ونكشفه، مستعار من سلخ الجلد، وهو إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال، والأغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: سلخت الإهاب من الشاة، ولما استدل الله بأحوال الأرض، استدل في هذه الآية بالليل والنهار، وفي الليل سكون الناس، وهدوء الأصوات، وفيه النوم كالموت، ويكون بعده طلوع الشمس، كالنفخ في الصور، فيتحرك الناس كما قال تعالى في الأرض: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ﴾ فذكر من الزمانين

= البشر إلا حديثاً، وهي أن الزوجية منبثة في كل ذرات الكون، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والذرة، والكهرباء، وغير ذلك، وليست قاصرة على الإنسان والحيوان كما هو المعروف، فقد ثبت أن بين النبات أعضاء مذكَّرة، وأعضاء مؤنثة، وأن الذرة مؤلفة من زوجين من الإشعاع الكهربائي، وكذلك الكهرباء فيه الموجب والسالب، وهذا لم يُعرف إلاَّ حديثاً في عصر النهضة العلمية، وقد سبق القرآن إلى هذا حين قال: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ وهو لفظ يفيد العموم، وهنا قال: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ فسبحان من أنزل كتابه المعجز، السابق للإكتشافات الكونية، على النبي الأمي، المؤيد بالحجج القاطعات، والمعجزات الباهرات، الدالة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

أشبههما بالموت، وهما: الأرض الميتة، والليل المظلم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام مفاجأة، وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام، والنورُ عارض.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّن ينتهي إليها دورها وجريانها، وهو يوم القيامة، فشبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الجري البديع، المنطوي على الحِكَم الرائعة، التي تحار في فهمها العقولُ والأفهام ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿الْعَلِيمِ﴾ أي المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل ليلة في واحدٍ منها، لا يتخطاها ولا يتقاصر عنه، فإذا كان في آخر منازله وهي الثامنة والعشرين، يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ كالشمراخ المعوج، من الانعراج وهو الاعوجاج ﴿الْقَدِيمِ﴾ العتيق وهو العود الذي عليه شماريخ العذق إلى منبته من النخلة، والقديم الذي أتى عليه الحول، فإذا قدم يبس، وتقوَّس، واصفرَّ، فشبَّه القمر به في ذبوله، ونحوله، واصفراره.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا﴾ لا يصحُّ لها ولا يتسهل ﴿أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة السير، فإن ذلك يخلُّ بتكون النباتات، وعيش الحيوانات، ولا في

المكان بأن تنزل في منزله أو في سلطانه، فتطمس نوره، وإيلاء حرف النفي ﴿لا الشَّمْسُ﴾ للدلالة على أنها مسخرة، لا يتيسر لها إلا ما قُدِّر لها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر يسيران بانبساط وسهولة، وفق نظامٍ دقيق، وضعه العليم الحكيم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝٤١﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم وتخصيصهم بالذكر، لما أن استقرارهم في السفن أشق، ولأن منافع ذراريهم نفعٌ لهم، مثالُه من أحسن إلى ولدِ إنسان وفرَّحه، فرح بفرحه أبوه، وقيل المراد سفينة نوح عليه السلام، وحمل الله ذرياتهم فيها إنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم ذرياتهم، وهو أدخل في الامتنان وأدخل في التعجيب، أما إن قلنا: إن المراد جنس الفلك، فهو أظهر، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم، ولم يعلموا من حُمل فيها، وأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾[1] ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي المملوء والشحنُ يدل على كمال المنفعة، وعلى عظم القدرة والإرادة، لأن الفلك المشحون أثقل الثقال، ليس حفظه فوق الماء إلا إرادة الله تعالى.

﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ۝٤٢﴾.

﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البرّ، ومما يماثل الفلك من السفن والزوارق، وجعلها أي السفن مخلوقة لله تعالى، مع كونها من مصنوعات البشر، لأن الله علّم الإنسان

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

صنعها، وأصلها بقدرته تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[1].

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ أي لو أردنا لأغرقناهم في البحر، فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2] الآية. وفي الآية إشعارٌ بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم، ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي فلا مغيث لهم يحرسهم وينجيهم من الغرق، أو يدفعه عنهم قبل وقوعه ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي ينجون بعد وقوعه.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي لا يُغاثون ولا يُنقذون لشيء من الأشياء، إلاّ لرحمة عظيمة من قبلنا، داعيةٍ إلى الإغاثة والانقياد ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي وتمتيعاً لهم إلى زمان انتهاء آجالهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي وإذا قيل لهم بطريق الإنذار ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي احذروا سخط الله وعذابه، واعتبروا بما حلَّ بالمكذبين من الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم، والعذاب المعدّ في الآخرة!! وجواب «إذا» محذوف تقديره: وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دلَّ عليه قوله

(١) سورة هود، آية: ٣٧.
(٢) سورة لقمان، آية: ٣٢.

تعالى بعده: ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ ومن أُخبر بعذاب وإن لم يقطع بصدق المخبر، يتقيه احتياطاً، ومن لم يتق ذلك فهو في غاية الجهل، ونهاية الغفلة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا، فتنجوا بذلك من عذاب الله الشديد.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي و«مِنْ» الأولى مزيدةٌ لتأكيد العموم، والثانية تبعيضية، وإضافة الآيات إلى اسم الرب، لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها، والمراد بالآيات، الآيات التكوينية، الشاملة للمعجزات، وغيرها، فالمعنى: ما تظهر آية من الآيات، الشاهدة بوحدانيته تعالى، إلاَّ كانوا عنها معرضين، ومن كذَّب بالبعض هان عليه تكذيب الكل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لأهل مكة ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بعض ما أعطاكم الله من فضله على المحتاجين، فإن ذلك يرد البلاء، ويدفع المكاره، عبر عنها بذلك ترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1] فيه إشارة إلى أن البخل قبيح، وأبخل البخلاء من يبخل بمال الغير ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالصانع عزَّ وجل، وهم الطغاة الزنادقة، كانوا بمكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ تهكماً بهم، وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ﴿أَنُطْعِمُ﴾ حسبما تعظوننا به ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي على

---

(١) سورة القصص، آية: ٧٧.

زعمكم، إيهاماً بأن الله لما كان قادراً أن يطعمهم، ولم يطعمهم، فنحن أحقُّ بذلك، ولم يقولوا «أننفق» بل قالوا ﴿أنطعم﴾؟ للمبالغة في المنع، كما يقول القائل لغيره: أعطِ زيداً ديناراً فيقول: لا أعطيه درهماً فضلاً عن الدينار، فكذلك ههنا، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله، وأن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى إنجازه فيما تعدوننا به، من قيام الساعة، مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى في الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي تعمُّهم بالأخذ، تصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها مفاجأة ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم، لا يخطر ببالهم شيء من أمرها، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً﴾ فلا يغتروا بعد ظهور علاماتها، ولا يزعموا أنها لا تأتيهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم، إن كانوا بين أهليهم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إن كانوا خارج بيوتهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ولتقومنَّ الساعةُ، وقد نَشَرَ الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه،

ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجل بلبن لقْحَته فلا يَطْعَمُه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[1].

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ هي النفخة الثانية كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2] أي ينفخ فيه، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وبين الأولى والثانية أربعون سنة، لما روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون.. الحديث قالوا يا أبا هريرة أربعين يوماً، أو شهراً، أو سنة؟ قال: أبيتُ»[3] ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أي من القبور جمع جدث ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ مالك أمرهم ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون الخُطى بطريق الإجبار، دون الاختيار.

﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ في ابتداء بعثهم من القبور ﴿ يَٰوَيْلَنَا ﴾ احضر فهذا أوانك ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ أي مضجعنا وفيه رمزٌ وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم، يظنون أنهم كانوا نياماً، وعن ابن عباس أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون، فإذا بعثوا وشاهدوا من أهوال القيامة ما

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن وأشراط الساعة، ١٣/ ٨٢ ومسلم رقم ٢٩٢٢ في الفتن أيضاً، ومعنى اللَّقحة بفتح اللام: الناقة القريبة العهد من النتاج، ويُليط بمعنى يصلحه ويدهنه بالطين.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري ٨/ ٥٥١ في تفسير سورة الزمر، ومسلم ٢٩٥٥ في الفتن.

شاهدوا دعوا بالويل والثبور ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هو جواب من قبل الملائكة تذكيراً لكفرهم، وتنبيهاً على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث، دون الباعث أي قالوا: بَعَثكم الرحمن الذي وعدكم في كتبه، وأرسل إليكم الرسل يخبرونكم عنه، ولكنكم كذبتم به وكفرتم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت النفخة التي حكيت آنفاً ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي جميع الخلائق ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ من غير إمهالٍ طرفةَ عين، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر، والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس، بَرَّة أو فاجرة ﴿شَيْـًٔا﴾ من الظلم ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا ما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهذه حكاية لما سيقال لهم، حين يرون العذاب، تحقيقاً للحق، وتقريعاً لهم.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي متنعمون بنعيم دائم خالد من الفكاهة بمعنى النعيم، وهم مشغولون عن أهوال القيامة، باللذة والسرور، لا بالويل والثبور، والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداهم بالكلية، لا يفكرون في أهل النار، لئلا يتنغص

نعيمهم، قال ابن عباس: «شغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار، عن أهليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنغّصوا»[1].

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، متكئون على السرر المزينة بالستائر الحريرية وهو بيانٌ لكيفية شغلهم وتفكههم، وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم لهم، فيما هم فيه من الظل والأرائك.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ أي لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون، من أسباب البهجة والسرور، وقال الزجاج: هو من الدعاء أي ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾.

﴿سَلَـٰمٌ﴾ أي ولهم سلام يقال ﴿قَوْلًا﴾ أي قولاً كائناً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي يُسلم عليهم من جهته تعالى، وهو أكمل الأشياء، لا شيء فوقه، وذلك مطلوبهم ومتمناهم.

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾.

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي تميّزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٤٢.

المجرمين عن عبادي المؤمنين، امتازوا عنهم أيها المجرمون إلى مصيركم المشؤوم، قال الضحاك: «لكل كافرٍ بيتٌ من النار، يكون فيه، لا يَرَى ولا يُرَىٰ» وهذا على خلاف ما للمؤمنين، من الاجتماع بالإخوان، ولا عذاب فوق الفراق، وقيل: يُميَّزون بسيماهم، كما في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ المُجْرِمون بِسيمَاهُمْ﴾.

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ هذا من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع، والعهدُ: الوصيةُ بأمر فيه خير ومنفعة، والمراد هنا ما كلفهم الله تعالى به على ألسنة الرسل عليهم السلام، من الأوامر والنواهي، والمراد بعبادة الشيطان: طاعتُه فيما يوسوس به، عبَّر عنها بالعبادة للتحذير ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، تعليل للمنع عن عبادته.

﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾ أي اعبدوني وحدي، ولا تشركوا بعبادتي أحداً، وتقديم النهي على الأمر لما أن حقَّ التخلية التقديم على التحلية، كما أن الطبيب يقول للمريض: لا تأكل من ذا، ثم يقول له: تناول الدواء الفلاني ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾ وقوله: ﴿لأقعدنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيم﴾ والتنكير للتفخيم.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ الجِبِلُّ: الخلقُ الكثير، والمعنى: وبالله لقد أضل منكم خلقاً كثيراً، عن ذلك الصراط المستقيم، فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبة ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون؟.

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يخاطبون به عند إشرافهم على شفير جهنم، أي كنتم توعدونها على ألسنة الرسل، بمقابلة إطاعة الشيطان الذي أغواكم.

﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيم﴾ أي ادخلوها وقاسوا فنون عذابها ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بكفركم المستمر في الدنيا.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ختماً يمنعها عن الكلام، وذلك أنهم حين يسمعون قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكفرون﴾ ينكرون كفرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين﴾ فيختم الله على أفواههم، فلا يقدرون على الإنكار ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بإنطاقها كما ينطق من كان في المهد، لأن ذلك في قدرة الله يسير، أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضوٌ متحرّك بحركة مخصوصة، فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها، لأن الله تعالى قادرٌ على

الممكنات، وقد جعل الله الكلام للأيدي، والشهادة للأرجل، لأن الأفعال تستند إلى الأيدي قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الأيدي كالعاملة، والشاهد ينبغي أن يكون غيره، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود على الإنسان، واللسان هو الناطق وقال تعالى: ﴿نَخْتِمُ﴾ ولم يقل: نُنْطِق أيديهم، لئلا يكون النطقُ بالإجبار، وقال: ﴿وتُكَلِّمُنَا﴾ أي باختيارها بعدما يقدِّرها الله تعالى على الكلام، روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند الرسول ﷺ، فضحك فقال: هل تدرون ممَّا أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم!! قال: من مخاطبة العبدِ ربَّه، فيقول: يا ربِّ ألم تُجِرني من الظلم؟ قال يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلاَّ شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُختم على فيه، ويقال لأركانه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كنت أناضل»[1] قوله لا أجيز أي لا أقبل شاهداً سوى نفسي.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ أي لو نشاء أن نطمس على أعينهم لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم ﴿ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ أي فبادروا إلى الطريق ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾؟ أي لا يبصرونه فكيف إذا لم يكونوا على الصراط.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وانظر جامع الأصول.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي مكانهم، أي لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم، لا يقدرون أن يبرحوه، بإقبال ولا إدبار، ولا رجوع، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ولا رجوعاً، فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة، وقدَّم الطمس على المسخ، ليكون الكلام بالتدريج، كأنه قال قائل: الأعمى قد يهتدي إلى الطريق، بأمارات عقلية أو حسية، فارتقى وقال: ﴿وَلَو نَشَاءُ لَمَسَخْنَٰهُم عَلَىٰ مَكَانَتِهِم﴾ وليس الغرض مجرد بيان قدرته تعالى، على ما ذُكر من الطمس والمسخ، بل لبيان أنهم أحقاء بأن يُفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة، وأن المانع من ذلك ليس إلاَّ عدم تعلق المشيئة الإلَهية به، كأنه قيل: لو نشاء عقوبتهم بما ذُكر لفعلناها، ولكنّا لم نشأها جرياً على سنن الرحمة، والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي نطل عمره ﴿ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ التنكيسُ: جعل الشيء أعلاه أسفله، أي نقلبه فيه، ونخلقه على عكس حالته، فلا يزال يتزايد ضعفه، وتتناقص قوتُه، ويتغير شكله وصورته، حتى يعود إلى حالة شبيهةٍ بحال الصبي، في ضعف الجسد، وقِلة العقل ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أفيرون ذلك، فلا يعقلون أن من قدر على تنكيس الإنسان، وإعادته إلى حالة الطفولة، يقدر على ما ذُكر من الطمس والمسخ، وإن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما.

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ﴾ رد لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ من أنه شاعر، وما يقوله شعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، على معنى أن القرآن ليس بشعر، فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقالٌ مزخرف مصنوع،

منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل، المنزَّه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحِكَم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومن أين اشتبهت عليهم الشؤون، واختلطت بهم الظنون، قاتلهم الله أنى يؤفكون؟ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ وما يصح له الشعر، ولا يتأتَّىٰ له لو طلبه، لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض، وأما قوله ﷺ: «أنا النبيُّ لا كَذِبْ: أنا ابنُ عبدِ المُطّلِبْ» وقوله: «هَلْ أَنْتِ إلاَّ أُصْبُعٌ دَمِيتِ، وفي سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيتِ» فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد، كما يتفق في كثير في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة، ولا يسميها أحد شعراً، لأن صاحبه لم يقصد الوزن ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى، وإرشاد للثقلين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي كتاب سماوي، بيِّنٌ كونه كذلك، فارق بين الحق والباطل، يُنال بتلاوته والعمل بما فيه فوزُ الدارين[1].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لينذر الرسول بهذا القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي من كان مؤمناً عاقلاً متأملاً في خلق الله، فإن الكافر الغافل بمنزلة الميت، فإن الحياة الأبدية بالإيمان ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى

(١) كم بين القرآن وبين الشعر من فارق؟ فالشعر أعذبه أكذبُه، وهو قرآن إبليس وكلامُه كما يقولون، وقد كان ﷺ يحب من الشعر ما كان مشتملاً على حكمة، أو وصف جميل من مكارم الأخلاق، أو نصرة الإسلام والدين، أو ثناء على الله ونصيحة للمسلمين، وكان أبغض الحديث إليه الشعر، أي ما كان فيه كذب وهجوٌ وقبح، وأمَّا ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام كان يضع لحسان في المسجد منبراً فيقوم عليه يهجو من كان يهجو رسولَ الله والمؤمنين، فذلك من قبيل المجاهدة لأعداء الله، لأنه كان أشدَّ عليهم من وقع النبل.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي المصرين على الكفر والعناد، وجعلُهم في مقابلة من كان حياً إشعارٌ بأنهم ـ لكفرهم وعدم تأملهم ـ أمواتٌ في الحقيقة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة، تفيد مبالغةً في التفرد في الإحداث والخلق ﴿أَنْعَٰمًا﴾ الأنعامُ: هي الإبل، والبقرُ، والغنم، وهي الحيوانات المأكولة، وخصَّها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة، وكثرة المنافع، ولأنها أكثر أموال العرب ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي فهم مالكون لها بتمليكنا إياها لهم، حيث خلقناها لمنافعهم ومصالحهم.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ أي صيرناها منقادة لهم، بحيث لا تستعصي عليهم، في شيء مما يريدون بها، حتى الذبح ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي فبعضٌ منها مركوبُهم وعليها تحمل أثقالهم ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أخر غير الركوب، والأكل، كالجلود، والأصواف، والأوبار، والحراثة بالثيران ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللَّبن ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي أيتمتعون بها، فلا يشكرون المنعم بها عليهم؟.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، الذي شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة، وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة ﴿ ءَالِهَةً ﴾ من الأصنام، أشار تعالى إلى زيادة ضلالهم، وكان الواجب عليهم عبادة الله، وشكر النعمة، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة؟ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاءَ أن ينصروا من جهتهم، فيما حلّ بهم من مصائب.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ يشيعونهم عند مساقهم إلى النار كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[1] وهؤلاء المشركون كالجند والخدام للأصنام، يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم.

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي فلا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، وسخريتهم بك، واتهامهم لك بأنك شاعر أو ساحر، وهذه تسلية للرسول ﷺ يسلّيه بها ربه، تخفيفاً عن الآلام والأحزان التي كان يكابدها ﷺ من المشركين والمراد بـ ﴿قَولُهُم﴾ الإلحاد في الدين، أوفيك بالتكذيب ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ في ضمائرهم من المكر، والخيانة،

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٨.

والعداوة ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الأذى، أي نجازيهم بجميع جناياتهم، الخافية والبادية، التي لا يعزُب عن علمنا شيءٌ منها.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ﴾؟ أي ألم يتفكر الإنسان، ولم يعلم علماً يقينيّاً، أنا خلقناه من نطفة قذرة، خسيسة خارجة من قناة النجاسة، وقوله: ﴿مِن نُّطفَةٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة، كأن يقال: العظمُ خُلق من جنس صلب، واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، لَمَا كان خلقه من نطفة متشابهة الأجزاء، وهو مختلف الصور؟ فدلَّ هذا على الاختيار والقدرة، وإذا قال الجاهل إنه استحال وتكوَّن جسماً آخر، لكنْ من أين جاءت القوة الناطقة «اللسان» والقوة الفاهمة «العقل»؟ ومن أين تقتضيهما النطفة القذرة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أي بيِّنُ الخصومة، أي فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدى لمخاصمة ربه، وينكر قدرته على إحياء الميت، بعدما رُمَّت عظامه؟ روي أن «أُبيَّ بنَ خَلَف» أتى النبي ﷺ بعظم بالٍ يفتته بيده، وقال أترى يا محمد الله يحيي هذا بعد ما رُمَّ؟ فقال ﷺ له: نعم ويبعثك ويدخلك النار. وهذا وإن كان سبب النزول، لكنَّ الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فكل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ هو بعدما كان ماءً مهيناً، رجلٌ مميز، ناطقٌ عاقل، قادرٌ على الخِصام، فهو حينئذ معطوف على ﴿خَلقناهُ﴾ ويكون من تتمات شواهد صحة البعث[1].

---

(١) القول الأول أظهر، بدليل قوله تعالى بعده ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ﴾ فإنه دليل المكابرة والخصومة، والمجادلة بالباطل.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أي أورد في شأننا قصة عجيبة، هي في الغرابة والبعد عن العقول، كالمثل، وهي إحياؤنا العظام، استبعدها وعدَّها من قبيل المثل، وأنكرها أيّما إنكار، وقاس قدرتنا على قدرته ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي خلقنا إياه على الوجه المذكور ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾؟ أي قال منكراً له أشد الإنكار، مؤكداً له بقوله ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾؟ أي بالية أشدَّ البلاء، بعيدة من الحياة!! والمنكرون للحشر، لم يذكروا فيه دليلاً ولا شبهة، واكتفوا بالاستبعاد، وقالوا: ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ إلى غير ذلك، فكذلك ههنا قالوا: ﴿مَن يُحيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فبدأ الله الردَّ على استبعادهم بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد، فهلاَّ يستبعدون خلق الإنسان الناطق العاقل، من نطفة قذرة، لم تكن محل الحياة أصلاً؟ ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محلٍ كانا فيه؟.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل يا محمد لهذا الكافر الفاجر، توبيخاً له وتسكيتاً: يخلقها ويحييها الذي أوجدها أول مرة من العدم، وأبدع خلقها من غير شيء، يعني: كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً. وأما استبعادهم لمن تفرقت أجزاؤه، في مشارق العالم ومغاربه، وصار بعضه في أبدان السباع، كيف يجمع؟ فقال تعالى في الرد على هذا الاستبعاد: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو سبحانه مبالغ في العلم، بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد، إنشاءً وإعادة، محيطٌ بجميع الأجزاء المتفتة المتبددة، لكل شخصٍ من الأشخاص، أصولها وفروعها، وأوضاع بعضها من بعض، من الاتصال

والانفصال، والاجتماع والافتراق، فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل. ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدَّم من دفع استبعادهم فقال:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ أي الذي خلق لأجلكم ومنفعتكم من الشجر الأخضر ناراً، وهو المرخُ والعُفار، يقطع الرجلُ منهما غصنين، مثل السواكين، وهما خضروان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فتنقدح النار بإذن الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية المضادة لها، كان أقدر على إعادة الغضاضة، إلى ما كان غضاً فطراً عليه اليبوسة والبلاء، فالنار في الشجر تناسب الحياة في البشر، فبان لطف قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ ثم قال تعالى:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي أليس الذي أنشأها أول مرة؟ وأليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴿ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ ﴾ فإن بديهة العقل، قاضيةٌ بأن من قدر على خلقهما، فهو على خَلق الناس أقدر، كما قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[1] ﴿ بَلَىٰ ﴾ جواب من الله تعالى،

---

(١) سورة غافر، آية: ٥٧.

وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغُ في الخلق والعلم.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الله إلى أكثر من أن يقول للشيء كن فيكون، وهذا إظهار لفساد تمثيلهم، حيث ضربوا لله مثلاً، وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا، فقاسوا قدرة الخالق على قدرة المخلوق، عجباً يضربون لله المثل الأدنى وله المثل الأعلى!!.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيهٌ له تعالى عما وصفوه، وتعجِيبٌ مما قالوا في شأنه تعالى معللاً بكونه مالكاً للملك كله، والمَلَكوتُ: مبالغةٌ في الملك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى. وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا على موتاكم يسٓ»[1] ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يسٓ»

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه.



مكية وهي مائة وثنتان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)﴾.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه الأوصاف الثلاثة، صفاتٌ لموصوف واحد، وهم الملائكة الأبرار الأطهار، وصفوا بالصافات لأنهم يقفون صفوفاً لأداء العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ وكما قال ﷺ في حديث جابر بن سمرة «ألاَ تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصُّون في الصف»[1] وأما وصفهم بالزاجرات فإنهم يزجرون السحاب، أو يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم، أو عن استرقاق السمع، وأما وصفهم بالتاليات فالمراد به التلاوة على الأنبياء وغيرها من التسبيح، والتحميد، والتقديس. أقسم تعالى بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، التاليات لآيات الله، على أن الله واحد لا شريك له، وفي الحلف بالشيء تعظيم للمحلوف به،

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وانظر جامع الأصول ٦١٥/٥.

والحكمة في القسم بهذه الأشياء، التنبيه على شرف ذواتها، فإن قيل: الحلف إن كان لإثبات المطلوب عند المؤمن، فهو مقرٌّ به، وعند الكافر لا يقرُّ به، فهذا الحلف عديم الفائدة؟ فالجواب: أنه تعالى قرَّر التوحيد، وصحة البعث بالدلائل اليقينية، فذكَر القَسَم تأكيداً لما تقدم، لا سيما أنَّ إثبات القضية بالحلف، طريقة مألوفة عند العرب، ولما أقسم على التوحيد، ذكر عقيبه ما هو الدليل وهو قوله: ﴿رب السماوات﴾ الآية كبرهان على قدرته ووحدانيته.

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسم، والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد.

﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾.

﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ هو البرهان الناطق، فإن وجودها وانتظامها، على هذا النمط البديع، من أوضح دلائل وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، ووحدته، والمراد بالمشارق مشارق الشمس في السنة، وهي ثلاث مائة وستون، تشرق كل يوم في واحد، وبحسبها تختلف المغارب، ولذا اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة، وأبلغ في النعمة، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فالمراد بهما مشرقا الصيف والشتاء، ومغرباهما.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي القريبة منكم ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ فإن الكواكب بأنفسها، وأوضاع بعضها من بعض زينة، والإنسان إذا نظر في الليلة

المظلمة إلى السماء، ورأى هذه الكواكب، مشرقة متلألئة على سطح أزرق، أبصر غاية الجمال والزينة.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾.

﴿وَحِفْظًا﴾ معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قيل: إنا خلقنا الكواكب، زينةً للسماء، وحفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ أي خارجٍ عن الطاعة متمرِّد على ربه، وهو أخبثُ الجنِّ وأشرسُه، لأن الجن فيهم المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، والمارد أخبث أقسام الجن.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أصل «يسَّمَّعون» يتسمعون، فأدغمت التاء في السين وشدّدت، والتسمع ضُمّن معنى الإصغاء، يقال سمعتُ حديثه، وإلى حديثه، المعدّىٰ بنفسه يفيد الإدراك، والمعدَّى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك، والملأ الأعلى الملائكة، لأنهم يسكنون السماوات، والإنسُ والجنُّ هم الملأ الأسفل، لأنهم سكان الأرض، أي لا يطلبون السماع والإصغاء إليهم ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء، إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾.

﴿دُحُورًا﴾ أي للدحور، وهو الطرد عن السماع مع الإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي عذاب شديد دائم، وهو عذاب الآخرة، ففي الدنيا الرجمُ، وفي الآخرة السعير.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ الخطف : الاختلاس، والمراد اختلاس كلام

الملائكة مسارقة، يعني أخذ شيء من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ أي تبعه ولحقه، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض من السماء ﴿ثَاقِبٌ﴾ أي مضيء في الغاية، كأنه يثقب الجوَّ بضوئه، ولا يقال: إن الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصِّرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي سل أهل مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي أقوى خلقة أو أصعب خلقاً وأشقه؟ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾؟ من الملائكة والسماء والأرض؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ لاصق، لزج، وهذه شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يصنع من الطين، غير موصوف بالصلابة والقوة، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه، لاعترافهم بقصة آدم عليه السلام، وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب، وهما باقيان، وقدرة الفاعل ذاتية، لا تتغير، فمن أين استنكروا أن يُخلقوا من تراب مثله، حيث قالوا: ﴿أَإِذَا كُنا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى، على خلق هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم البعث، وقيل: عَجَبُ النبي ﷺ أنه كان يظنُّ أن كلَّ من يسمع القرآن، يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن وسخروا منه، عجب من ذلك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجبك وتقريرك للبعث والنشور.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ أي دأبهم المستمر أنهم إذا وُعِظُوا بشيء من المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتّعظون، لغاية بلادتهم، وقصور فكرهم، والقومُ كانوا

يستبعدون الحشر، إلى حيث كانوا يسخرون ممن يصدّق به، فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين: أحدهما أن يُذكر الدليل الدال على صحة الحشر، فذُكِر الدليلُ، ولكنهم لشدة بلادتهم وجهلهم، لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان، والوجه الثاني: أن يثبت الرسول ﷺ رسالته بالمعجزات، لأولئك المنكرين، ولم ينتفعوا بهذا الطريق أيضاً، ولهذا عقَّبه بقوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً ﴾ أي معجزة تدل على صدق القائل بالبعث ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها، لأنهم أَلِفُوا السخرية والتكذيب.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا الذي نراه من الآيات الباهرة ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر سحريته، واضح أنه عمل ساحر، لا يخفى على أحدٍ أمره.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ أي كان بعض أعضائنا تراباً، وبعضها عظاماً نخرة ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي أنبعث بعد موتنا وفنائنا؟ وتكرير الهمزة والتصدير بإن واللام، لتأكيد الإنكار.

﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي أيبعث أيضاً آباؤنا الأولون؟ أي الأقدمون، فمرادهم زيادة الاستبعاد، بناءً على أنهم أقدم، فبعثهم أبعد على زعمهم.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ۝١٨﴾.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿نَعَمْ﴾ ستبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون وإنما اكتفى به في الجواب، لقيام المعجزات على صدق المخبِر عن وقوعه، فكان قوله: ﴿نَعَمْ﴾ دليلاً قاطعاً على الوقوع.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي تستصعبون البعثة، وما هي إلا صيحة واحدة، ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور، من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة، لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قائمون من مراقدهم أحياء ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي يبصرون كما كانوا قبل الموت.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي المبعوثون ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي يا هلاكنا أُحضُرْ فهذا أوان حضورك ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي اليوم الذي نُجازى فيه بأعمالنا.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ هو كلام الملائكة جواباً لهم، بطريق التوبيخ، أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي كنتم تسخرون منه وتكذبون به.

﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢﴾.

﴿۞ احْشُرُوا﴾ اجمعوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا بالله، وهو خطاب من

الله تعالى للملائكة ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشباههم، ونظراءهم، كعابد الصنم مع عبدته، وأهل الخمر مع أهل الخمر، والزاني مع الزناة﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ونحوها، زيادةً في تحسيرهم، وتخجيلهم، وفيه دليل على أن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم المشركون ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي عرفوهم طريق جهنم، ووجِّهوهم إليها، وفيه تهكم بهم، لأن الهداية تكون إلى السعادة والنعيم، لا إلى دركات الجحيم!!.

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف، عند صراط الجحيم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أي سَيُسْأَلون عن جرائمهم والوقوف ليس لعفوٍ عنهم، ولا ليستريحوا، بل ليسألوا عما ينطق به قوله تعالى:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي يقال لهم بطريق التوبيخ: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً، كما كنتم تزعمون في الدنيا؟ وهو وقت إنجاز العذاب، وشدة الحاجة إلى النصرة.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون، خاضعون لظهور عجزهم، وانسداد الحيل عليهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ هم الأتباع والرؤساء، ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، سؤال توبيخ بطريق الخصومة.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي الأتباع للرؤساء ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا ﴾ في الدنيا ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي عن أقوى الوجوه بالقوة والإجبار، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الهدى، كأنكم تنفعوننا، فتبعناكم.

﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الرؤساء أوالقرناء ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لم نمنعكم عن الإيمان، بل لم تؤمنوا باختياركم مع تمكنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ﴾ من قوة وتسلط عليكم، نسلبكم به اختياركم ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ أي مختارين للطغيان.

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا ﴾ أي ثبت علينا ﴿ قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ أي العذاب الذي ورد به الوعيد.

﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة ص، آية: ٨٥.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي فدعوناكم إلي الغيِّ، فاستجبتم لنا باختياركم ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فلا عتاب علينا في تعرضنا لإغوائكم.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي الأتباع والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية والضلالة، الجميع في نار جهنم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤)﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، وهذا يدل على أن لفظ «المجرم» المطلق، مختص في القرآن الكريم بالكافر، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بالدعوة والتلقين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن القبول، وعن قول «لا إله إلا الله» ويعظم عليهم أن يتركوا الأصنام والأوثان.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (٣٦)﴾.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، قاتلهم الله أنى يؤفكون، قال الله تعالى رداً عليهم:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾.

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون، بل جاءهم محمد عليه السلام بالتوحيد، والإسلام، الذي هو الحقُّ القاطع، الذي أجمع عليه كافة الرسل عليهم السلام، فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة؟.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم من الإشراك والتكذيب والاستكبار ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والالتفات لإظهار الغضب عليهم.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، من الشرك والتكذيب.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا، والمعنى: إنكم لذائقوا العذاب، لكنَّ عباد الله المخلصين ليسوا كذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم، للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص، عمن عداهم ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، ونحوها من نعوت الكمال.

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَوَٰكِهُ﴾أي ذلك الرزق فواكه، وتخصيصها بالذكر، لأن أرزاق أهل

الجنة كلها فواكه، أي ما يؤكل فيها لمجرد التلذذ، لا لدفع الجوع، لأنهم مستغنون عن القوت، لكون خلقتهم محكمة، محفوظة من التحلل، المحوج إلى البدل ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى لا يلحقهم الهوان، ويصل إليهم رزقهم بغير تعب ولا نصب.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في جنات ليس فيها إلا نعيم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي متواجهين، ينظر بعضُهم إلى وجوه بعض، لدوام الأُنس والسرور.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ في الخدمة ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمر، فإن الكأس تطلق على نفس الخمر، وعن الأخفش «كل كأس في القرآن فهي الخمر» ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي كائنة من شراب معين، وهو الجاري على وجه الأرض، تراها العيون، وصف تعالى به الخمر، لأنها تجري في الجنة في أنهار، كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾[1].

﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿بَيْضَاءَ﴾ خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ وصفها بلذة للمبالغة، كأنها نفس اللذة، لأن من شربها يلتذُّ بها لَذَّةً غامرة.

---

(١) سورة محمد، آية: ١٥.

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي غائلة كما في خمور الدنيا، ومن مفاسد خمر الدنيا صداع الرأس، والقيء، ووجع المعدة، وكثرة البول، والسكر ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله، أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله، لما أنه من معظم مفاسد الخمر.

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يَمْدُدْنَ طرفاً إلى غيرهم ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون، والنَّجَلُ: سعة العين أي حسان الأعين عظامها، مع غاية الحسن والجمال.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي مصون ومستور، شبهن ببيض النعام، لأنها تكنها بالريش من الريح والغبار، فيكون لونها أبيض مخلوطاً بأدنى صفرة، ويقال: هذا أحسن ألوان الأبدان[1].

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) أخبر تعالى عن نساء أهل الجنة، أنهن عفيفات، قصرن أعينهنَّ عن النظر إلى غير أزواجهن، وهنَّ مع العفة واسعات العيون، جميلات اللون، كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، وهذا قول ابن عباس، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ والغرضُ أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّرِّ في أصدافه، مع رقة، ولطف، ونعومة، اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة، ومتعنا بالحور العين، يا أرحم الراحمين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يعني أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتحادثون عمَّا جرى لهم وعليهم في الدنيا، كما قال القائل:

ومـا بَقِيـتْ مـن اللَّـذَاتِ إلاَّ أحـادِيـثُ الكِـرَامِ عَلـىٰ المُـدَامِ

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاوراتهم ﴿إِنِّى كَانَ لِى﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ أي صاحب لا يؤمن باليوم الآخر.

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَقُولُ﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان، والتصديق بالبعث ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؟ أي بالبعث، ويقول تعجباً.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ أي لمبعوثون ومجزيون؟ من الدِّين بمعنى الجزاء، يقول هذا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائل، بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه، بمعنى هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين؟.

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينه ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي في وسطها.

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي القائل لقرينه شامتاً به ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ أي والله لقد قاربتَ أن تهلكني بإغوائك لي.

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ بالهداية والعصمة ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي من الذين أحضروا العذاب، معك في النار، ثم يخاطبه مستهزئاً ساخراً، كما كان الكافر يسخر منه في الدنيا فيقول له:

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾؟ أي هل لا تزال على اعتقادك، بأننا لن نموت إلا موتة واحدة، وأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء؟ وهو أسلوب ساخر لاذع، يظهر فيه التشفِّي من ذلك الصديق الكافر، الذي كان يسخر منه في الدنيا.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي الأمر العظيم الذي نحن فيه ﴿ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي هو السعادة الكاملة، والفوز بالكرامة، التي لا يوازيها شيء من أمور الدنيا ونعيمها.

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أي يقول تعالى: لنيل هذا المرام الجليل، يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ أَذَٰلِكَ ﴾ أي أذلك الرزق المعلوم ﴿ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾ أي خير ضيافة وتكريماً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾؟ أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ والأسلوب أسلوب تهكم وسخرية، لأن النُّزُل في اللغة: الضيافةُ التي تقدَّم للضيف، وأي ضيافة لمن يكون طعامه الزقوم؟ والزقوم طعام أهل النار، وهي شجرة خبيثة مرة، كريهة الرائحة!؟.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً ﴾ أي محنة وعذاباً ﴿ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا، فإنهم لما سمعوا أنها في النار استهزؤوا، وقالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تحرق الشجر؟ وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر، ولم يعلموا أن من قدر على أن يخلق الزبانية ويمنع النار عن إحراقهم، أقدرُ على خلق الشجر فيها، وحفظه من الإحراق!! ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ طَلْعُهَا ﴾ ثمرها سمي طلعاً لطلوعه أول الإثمار ﴿ كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمخيَّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالمَلَك، وتشبيه القبيح الصورة بالشيطان، والعربُ إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه شيطانٌ، لما استقرَّ في الأذهان، من قبح صورة الشيطان.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ أي من الشجرة أو من طلعها ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ لغلبة الجوع، أو للقسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك باباً من العذاب.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش، وطال استسقاؤهم كما ينبيء عنه كلمة «ثم» ﴿ لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب اسم ما يشاب به أي لشراباً من غساقٍ، أو صديد، مشوباً بماء الحميم، يقطع أمعاؤهم، كما قال تعالى ﴿وسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ أي مصيرهم ﴿ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي إلى دركاتها، فإن الزقوم والحميم نُزُل يقدم إليهم قبل دخولها، وهذا يدل على أن الحميم خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم للاحتراق فيها.

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ﴾ أي وجدوا ﴿ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب بتقليد الآباء، أي وجدوهم ضالين في نفس الأمر.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق،

أو على الباطل، والإهراعُ: الإسراعُ، ولو لم يوجد في القرآن آية، غير هذه الآية، في ذمّ التقليد لكفى.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قومك ﴿ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ من الأمم السالفة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي أنبياء أولي عدد كثير، وذوي شأن خطير، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبته الوخيمة، ولكنَّ الضالين لم يلتفتوا إلى الإنذار.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ من الهول والفظاعة، والخطابُ لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم، أي ألم نهلكهم إهلاكاً فظيعاً، ونجعلهم عبرةً للعباد؟.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلاَّ الذين آمنوا، بتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، وأخلصوا لله دينهم، فأولئك نجوا من العذاب، وهذه الآية لتسلية النبي ﷺ، ليكون له أسوة بالرسل، حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعوة إلى الله.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ أي دعانا مستغيثاً، واللام جواب قسم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ أي وبالله لقد دعانا نوح، حين يئس من إيمانهم فأجبناه أحسن الإجابة، فوالله لنعم المجيبون نحن، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص، سبب لحصول الإجابة، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي من الغرق والطوفان، الذي عمَّ قومه الكافرين.

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ أي الذين ركبوا معه في السفينة من أولاده وأتباعه المؤمنين، وكل من سواهم هلكوا وفنوا، وعن سَمُرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾ قال: «هم سام، وحام، ويافث»[1].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي:

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾ أي أبقينا له ثناءً جميلاً، فيمن بعده من الأنبياء

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٣٠ وقال: حديث حسن غريب، وفي رواية أخرى «سام» أبو العرب، و «حام» أبو الحبش، و «يافث» أبو الروم.

والأمم يسلمون عليه تسليماً ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي باقية ومستمرة هذه التحية أبداً في العالمين.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما فُعل به من التكرمة السنية، من إجابة دعائه، وإبقاء ذريته، وتسليم العالمين عليه، أي مثل ذلك الجزاء الكامل، نجزي الكاملين بالإحسان.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين، وفي هذا إظهار لجلالة قدر الإيمانٓ.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٨٢﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ وهم كفار قومه.

﴿۞ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝٨٣﴾.

﴿۞ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي وممن شايعه في أصول الدين، وسار على منهاجه وسنته، إبراهيم عليه السلام وما كان بينهما، إلاَّ نبيان: هودٌ، وصالح عليهما السلام، وكان بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ألفان وستمائة وأربعون سنة.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ أي حين جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ خالص من الشرك،

والشك، ومن كل دنس المعاصي، كالغل، والغش، والحقد، والحسد، يحب للناس ما يحب لنفسه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾؟ أيْ أيَّ شيءٍ تعبدونه؟.

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾؟ أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك والكذب والزور؟.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي بمن هو حقيق بالعبادة، لكونه رباً للعالمين، فما ظنكم به، ماذا يفعل بكم، بعد أن أشركتم به وعبدتم غيره؟ هل يترككم بدون عقاب؟.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ حين سألوه ألاَ تخرج معنا إلى عيدنا؟ فنظر في النجوم.

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ويفرون من المطعون، وأراد عليه السلام القول: إني سقيم القلب لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من كذا فهربوا منه وتركوه وذلك قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي هاربين مخافة العدوى.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أي ذَهَب إليها في خفية ﴿ فَقَالَ ﴾ للأصنام استهزاءً ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾؟ أي من الطعام الذي بين أيديكم؟ وكانوا يضعون الطعام أمام أصنامهم لتبارك لهم فيه.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فمال مستعلياً عليهم ﴿ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ أي يضربهم ضرباً شديداً بيده اليمنى، لأن اليمين أقوى الجارحتين، وقوةُ الآلة تقتضي قوة الفعل، وقيل: ﴿باليمين﴾ أي بسبب الحلف وهو قوله: ﴿وتاللهِ لأَكِيدنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام، بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسَّرة، وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي يسرعون من زفيف النَّعام، وهو ابتداء عَدْوِها.

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي بعدما أتوا به عليه السلام وجرى بينه وبينهم من المحاورات ما جرى ﴿ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾ أي ما تنحتونه من الأصنام؟.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي والله خلقكم وخلق أعمالكم، وهو دليلنا في خلق الأفعال، أي الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟.

﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧ ﴾.

﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴾ في النار الشديدة، المستعرة المحرقة، وهي شدة التأجج.

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٩٨ ﴾.

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا ﴾ لمَّا قهرهم بالحجة قصدوا ما قصدوا، لئلا يظهر عجزهم للعامة ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ أي الأذلين، بإبطال كيدهم، بجعل النار عليه برداً وسلاماً، فصار هو الغالب عليهم، وهم الأذلاء المدحورون.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٩٩ ﴾.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي مهاجر إلى حيث أمرني ربي، لأتجرد لعبادته تعالى، قاله بعد خروجه من النار ﴿ سَيَهۡدِينِ ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني، ودلت الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء يجب المهاجرة منه، فلمَّا قدم عليه السلام الأرض المقدسة، سأل ربَّه فقال:

﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ ﴾.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين، يعينني على الدعوة، ويؤنسني في الغربة، يعني الولد، لأن لفظ الهبة خاص به.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ فإنه صريح في المبشر به، وعين ما استوهبه، ولقد جمع فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وحليم، وأنه يبلغ سن الرشد لأن الصغير لا يوصف بذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ أي فوهب الله له الولد فنشأ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾أي أرى هذه الصورة بعينها، وقيل: إنه رأى ليلة التروية، كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سمي يوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهمَّ بنحره فسمي اليوم يوم النحر، والغلام الذي أمر بذبحه هو إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وُهب له إثر المهاجرة، وقولُه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا يحسن إلا عند عدم الولد، فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وإسماعيل متقدم في الوجود على إسحق، فثبت أن المخاطب هو اسماعيل، ومما يدل عليه قوله سبحانه في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾. فكيف يؤمر بذبح إسحق وقد وعده بالنافلة أي ولدِ ولدِ فيه؟ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾؟ أي فانظر في الأمر ما رأيك فيه؟ وإنما شاوره فيه وهو أمر محتوم، ليعلم ما عنده فيما نزل، ويكتسب المثوبة والثناء الحسن في الدنيا، وليظهر صبره في طاعة

الله عزَّ وجلَّ، وقد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي ما تؤمر به، وقد علم أن الأنبياء لا يقدمون على مثل ذلك إلاّ بالأمر ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح، وإنما علّق الأمر بمشيئة الله تعالى، على سبيل التبرك.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي استسلما لأمر الله تعالى، وانقادا له، يقال: سلَّم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة، وكان ذلك عند الصخرة من منى.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به، أي قد حققت ما أمرناك به في المنام، والسبب في هذا التكليف، إظهار كمال طاعة إبراهيم، فلما ظهر منه كمال الطاعة، ومن ولده كمال الانقياد، قال تعالى له:

﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾.

﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي كما جزينا هذين المحسنين، فكذلك نجزي كل المحسنين، وهو تعليل لتفريج تلك الكربة بإحسانهما.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَٰٓؤُا الْمُبِينُ﴾ أي الابتلاء البيِّن، الذي يتميز فيه المخلص من غيره، والمحنة البيِّنة إذْ لا شيء أصعب من مثل هذا التكليف الشاقّ.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم الجثة سمين، يفدي به الله نبياً ابن نبي، من نسله سيد المرسلين ﷺ، وكان كبشاً من الجنة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ أي مقضياً بنبوّته، مقدَّراً كونه من الصالحين، وفي ذكر الصلاح بعد النبوّة، تعظيم لشأنه، وإيماء إلى أنه الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل[1].

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل، وأفضنا عليهما بركات الدنيا والدين ﴿وَمِن

---

(١) فإن قيل كيف قال تعالى: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟ فالجواب: تنبيهاً لنا على جلالة قَدْر الإيمان وشرفه، وترغيباً في تحصيله والثبات عليه.

﴿ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر ظلمه، وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلالة، وأن الظلم في أعقابهما لا يعود إليهما بنقيصة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة، وغيرها من النعم الدينية والدنيوية.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو تسلط آل فرعون عليهم بألوان العذاب.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي هما وقومهما على عدوهم ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ عليهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾ بعد ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي البليغ في البيان والتفصيل، وهو التوراة، التي أنزلها الله هدى لبني إسرائيل.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾ بذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الطريق الموصل إلى الحق والصواب، بما فيه من الأحكام.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ﴾ مرّ تفسيرها.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال أكثر المفسرين هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقال محمد بن إسحق: هو إلياس بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، من نسل هرون عليه السلام.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله في عبادتكم غيره؟.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتعبدونه، وتطلبون الخير منه، وهو اسم صنم لأهل بعلبكّ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾؟ أي وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟.

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي الذي هو خالقكم وخالقُ آبائكم من قبلكم؟ والتعرض لربوبيته تعالى لآبائهم، لتأكيد إنكار تركهم لعبادة الله تبارك وتعالى.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في العذاب.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قرأ أي تركنا عليه الثناء العاطر في الأمم بعده، سلام منّا على إلياس وآله المؤمنين الطيبين، نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين، والباقون إلياسين، والمراد في القراءتين إلياس، قال الزجاج: كما قال ميكال، وميكائيل، كذلك يقال إلياس، وإلياسين.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝١٣٦ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم أشد الإهلاك، حيث قلبنا ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولفظُ التدمير يشير إلى أشد أنواع الإهلاك وأفظعه.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي على منازلهم في متاجركم إلى الشام، فإن سدوم في طريقهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾؟ داخلين في الصباح.

﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾.

﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ﴾ أي ومساء، أو نهاراً وليلاً ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي أتشاهدون ذلك فلا تعقلون؟ حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم ما أصابهم؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام، لأنه تعالى سلَّم في آخر السورة على جميع الأنبياء المرسلين في قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وسَلَامٌ عَلَى المُرسَلِينَ. والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ فأغنى هذا عن السلام عليهما.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠﴾.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ أي هرب، وأصله الهرب من السيد، لكنْ لمَّا كان هربه من قومه، بغير إذن ربه، حسن إطلاقه عليه ﴿إلى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ أي المملؤ بالرجال والمتاع.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١﴾.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي فقارع أهله ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ أي فصار من المغلوبين بالقرعة، روي أنه عليه السلام لما وعد قومه بالعذاب، فتأخر عنهم، خرج من بينهم، قبل أن يأمره الله تعالى، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: فيها عبد آبق، وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها آبقٌ لم تجرِ، فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فألقوه في البحر.

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾.

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾ أي فابتلعه حوت عظيم الجُثَّة ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ أي وهو آتٍ بما يُلام عليه.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، مدّة عمره، أو في بطن الحوت.

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم البعث والنشور، وفيه حث على الإكثار من الذكر، فمن أقبل على الله في السراء، أخذ بيده عند الضراء ومكث في بطن الحوت ثلاثة أيام، قاله مقاتل، وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه، بالمكان الخالي عما يغطيه، من شجر أو نبت، روي أن الحوت سار في البحر رافعاً رأسه، يتنفس فيه يونس، ويسبّح الله، حتى انتهى إلى البر، فلفظه سالماً، لم يتغير منه شيء[1] ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد، من حرارة جسم الحوت.

﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

---

(١) سبب ذلك أن يونس عليه السلام ضاق صدره بتكذيب قومه له، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغاضباً لهم لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطىء البحر، حيث ركب سفينةً مشحونة، فناوءتها الرياح والأمواج في وسط البحر، فقال الملاّحون: ههنا عبد آبق من سيده، ولا نجاة لنا إلا بإلقائه لننجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عليه السلام، ولم يعرف أهل السفينة قدره وأنه نبي، فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت فوراً، قال عطاء: أوحى الله إلى الحوت، أني قد جعلت بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء!!.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي فوقه مظلة ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ وهو كل ما ينبسط على الأرض، والأكثر على أنه الدباء، وقيل: التين، وقيل: الموز يستظل بأغصانه، ويفطر على ثماره، وكان ذلك معجزة له، فأنبته الله تعالى لأجله.

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾.

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ هم قومه الذين هرب منهم، وهم أهل نينوا، والمراد إرساله السابق قوله: ﴿أَو يَزِيدُونَ﴾ أي في مرأى الناظر، والمراد به هو الوصف بالكثرة.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ أي بعدما عاينوا علائم حلول العذاب، إيماناً خالصاً، وجدَّدوا الإيمان بمحضره ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى أجلهم المسمى، وهو انتهاء أعمارهم.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩﴾.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾؟ لما ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء الكرام، عاد إلى شرح مذاهب المشركين، وبيان قبحها وسخافتها، فقال: ﴿فَٱستَفتِهِم﴾ أي فاستخبر قومك على سبيل التوبيخ والتجهيل وسلهم: كيف جعلوا للهِ جل وعلا البنات ولأنفسهم البنين؟ وذلك في قولهم: الملائكةُ بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالة أخرى، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وذلك باطل، من وجهين:

الأول: أن العرب يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه، كيف يمكن إثباته للخالق؟ أي فاستخبرهم ألربك البنات، اللاتي هن أوضع الجنسين، ولهم البنون الذين هم أرفعهما؟ فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل.

والثاني: إثبات أن الملائكة إناث، وهذا أيضاً باطل، لأن طريق العلم، إمَّا الحسُّ، وإما الخبر، وإمَّا النظر، أما الحسُّ فمفقود ههنا، لأنهم ما شاهدوا كيفية خلق الله للملائكة، وهو قوله تعالى:

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا ﴾؟ أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام، ورذائل الطبائع إناثاً، والأنوثة ـ في نظرهم ـ من أخس الصفات؟ ﴿ وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ استهزاء بهم، وتجهيل لهم، فإن أمثال هذه الأمور، لا تعلم إلاَّ بالمشاهدة، إذ لا سبيل إلى معرفتها بالعقل، وأما الخبر والنظر فمفقود أيضاً، فثبت بطلان زعمهم.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي إن المشركين من كذبهم وافترائهم، ينسبون إلى الله الذرية والولد، وهم كذبة كفرة، يهرفون بما لا يعرفون، والآية مسوقة لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح.

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾؟ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذبهم، فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بيِّن الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين، أي هل اختار تعالى لنفسه البنات وفضّلهن على البنين؟.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟ بهذا الحكم الظالم الذي يقتضي ببطلانه بديهةُ العقل.

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه؟.

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾؟ أي هل لكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء، بأنَّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورة أن الحكم بذلك، لا بدَّ له من سند حسِّيٍ، أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما، فلا بد من سند نقلي.

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فأتوني بهذا الكتاب المنزل من عند الله إذا كنتم صادقين؟ وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم، وتسفيه أحلامهم، ما لا يخفى.

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ أي جعل المشركون الفجار بين الله عزَّ وجلَّ، وبين الجنَّة قرابةً ونسباً، حيث زعموا أن الله نكح من الجن، فولدت له الملائكة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ودعواهم محض الكذب والبهتان، ولذلك ردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي وبالله لقد علمت الجنة والشياطين، أن الله يُحضرهم النار، ويعذبهم بها، ولو كانوا منسوبين له تعالى، لَمَا عذَّبهم!؟.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزَّه اللهُ وتقدَّس، عمَّا يصفه به هؤلاء الظالمون، فالله واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له، ولا ذرية، ولا بنين، وليس بينه وبين أحد نسب ولا قرابة.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكنَّ عباد الله المخلصين ينزهون الله عما يصفه به هؤلاء الضالون.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴾ أي فإنكم ومعبوديكم أيها المشركون، لستم بفاتنين عليه تعالى أحداً، أي لستم بقادرين أن تضلوا أحداً من عباد الله، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة.

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي إلا من هو داخلها، لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر، بسوء اختياره، ويصير من أهل النار لا محالة، وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل عن إضلالهم.

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ الجمهور على أنهم الملائكة، وصفوا بذلك أنفسهم للمبالغة في العبودية، للتنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله، لأن مبالغتهم في العبودية، تدل على اعترافهم بالمعبود جل وعلا، أي وما منا مَلَك من الملائكة، إلا وله مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها، منزلة

مقصورة عليه لا يتجاوزها، خضوعاً لعظمته، وخشوعاً لهيبته، وتواضعاً لجلاله، والآية ردٌّ على من عبد الملائكة، فهم عبيد لله وليسوا شركاء مع الله، فكيف يُعبدون من دون الله؟.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ في مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ المقدّسون لله سبحانه وتعالى، عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه.

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾ إن هي المخففة وضمير الشأن محذوف واللام هي الفارقة، أي إن الشأن كانت قريش تقول قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام.

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين، كالتوراة والإنجيل.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله تعالى، ولَمّا خالفنا

كما خالف اليهود والنصارى أنبياءهم، وهذا كقولهم: ﴿وَأَقْسَموا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءهُمْ نذيرٌ ليكونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إحْدَى الأُمَم﴾[1].

﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ فجاءهم ذكر عظيم، هو أشرف الأذكار، والمهيمن عليها، وهو القرآن الكريم، فكفروا وكذبوا به، وقالوا عنه أساطير الأولين ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي عاقبة كفرهم، وما يحلُّ بهم من الانتقام.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي وعدنا لهم بالنُّصْرةِ، والغَلَبة.

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ أي لهم الغلبة على أعدائهم في الدنيا والآخرة، ولا يقدح انهزامهم في بعض المشاهد، فإن قاعدة أمرهم، وأساسه الظفر، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، فالحكم للغالب، وإن لم ينصروا في الدنيا، نصروا في الآخرة.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم واصبر على ما ينالك يا محمد ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وهو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٤٢.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالهم حينئذٍ من القتل والأسر، وسوء الحال، والمراد بالأمر بإبصارهم: الإيذان بغاية قربه ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يقع حينئذٍ وسوف للوعيد، أي فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم بالقرآن، وسخريتهم من الرسول عليه السلام.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي أيستعجلون عذاب الله؟.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم بغتة، صوَّره كأنه جيش عرمرم قد هاجمهم، فأناخ بفنائهم، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم بالمرة ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي فبئس صباح الكافرين، الذين أُنذروا بالعذاب.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فلما دخل القرية قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ ﴿فساء صباح المنذرين﴾ قالها ثلاث مرات»[1].

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كرّره تأكيداً للتهديد.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ إثر تسلية، وتأكيد

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/ ٩٠ من فتح الباري.

لوقوع الميعاد، أي انتظرهم وما يبصرونه من أنواع المضار في الدنيا والآخرة، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم وتكذيبهم.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾ تنزيه لله تعالى عن كل ما يصفه المشركون، مما لا يليق بجناب كبريائه ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ والإضافة لاختصاص العزة به تعالى، إذ لا عـزة ولا غلبـة إلا لله جـل وعـلا ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عمـا يصفـه بـه المشركون من الزوجة والولد.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تشريف لهم، وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره، فائزون بجميع المآرب.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما أفاض عليهم، وعلى من اتبعهم من النعم، وحسن العاقبة، والغرض منه تعليم المؤمنين أن يقولوه، لما رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من أحبَّ أن يكتال بالمكيال الأوفى، من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه، إذا قام من مجلسه ﴿سُبحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى ٱلمُرسَلِينَ، وَٱلحَمدُ لله رَبِّ ٱلعَـٰلَمِينَ﴾»[1].

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عن علي رضي الله عنه، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥/٢٩٥.



مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾.

﴿صٓۚ﴾ قيل اسم للسورة، وقيل: اسم للحرف، وقيل هو مفتاح اسمه «الصمد»[1] ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ الواو للقسم، والذكر بمعنى الشرف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾[2] أي أقسم بالقرآن ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة الجليلة وجواب القسم محذوف تقديره أقسم بالقرآن إنه لمعجز، وإن محمداً لصادق.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ إضراب عن ذلك كأنه قيل: لا ريب فيه

---

(١) الراجح عند أئمة التحقيق من المفسرين، أن الحروف المقطَّعة ـ حروف الهجاء ـ في أوائل السور الكريمة، إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف التي ينطقون بها، وانظر ما كتبناه حول هذا الموضوع في كتابنا «صفوة التفاسير» ١/ ٧.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٤٤.

قطعاً، وليس عدم إذعان الكفرة له، لشائبةِ ريب فيه، بل هم في استكبار وشقاق لله ولرسوله، ولذلك لا يذعنون له، والتنكير في ﴿عزة وشقاق﴾ للدلالة على شدتهما، أي هم غطرسة وكبرياء، ومعاداةِ لله ورسوله شديده.

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾ .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب مَنْ قبلهم من المستكبرين والمعنى: وكثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿فَنَادَوا﴾ عند نزول بأسنا، استغاثة وتوبةً، لينجوا من ذلك، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾[1] ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي نادَوْا طلباً للنجاة، والحال أن ليس الحين ﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي نجاة، و «لا» هي المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، وخُصَّت بنفي الأحيان، والمناص: المنجا، والغوثُ يُقال: نَاصَه إذا أغاثه.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾ .

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم ﴾ أي من أن جاءهم ﴿ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ من جنسهم وهو محمد رسول الله ﷺ، عجبوا من بعثته، وعدُّوا ذلك أمراً عجيباً، خارجاً عن احتمال الوقوع ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولون، إلاَّ المتوغلون بالكفر والفسق ﴿ هَٰذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال.

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ .

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦٤.

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الربّ المعبود واحد لا إله إلاّ هو؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي بليغ في العجب، والعجبُ الذي له مثل، والعُجابُ الذي لا مثل له، فهو أبلغ من العجب، وذلك لأنه خلاف ما ألفوه هم وآباؤهم، الذين أجمعوا على ألوهية الأوثان، وواظبوا على عبادتهم، كابراً عن كابر، فكان مدار أمور دينهم هو التقليد والاعتياد، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيباً بل محالاً، روي أنه لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شقّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم، فأتوا أبا طالب، فقالوا أنت شيخنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل إليه أبو طالب يدعوه إلى المجلس، فلما أتى النبيُّ ﷺ، قال له: يا بن أخي هؤلاء قومك، يسألونك العدل فلا تمل كلَّ الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا تسألونني؟ قالوا ارفضنا وارفضْ ذكر آلهتنا، ونَدَعَك وإلَهك!! فقال ﷺ: أتعطوني كلمة واحدةً، تملكون بها العربَ، وتدين لكم بها العَجَم؟ قالوا: نعم وعشراً، فقال: قولوا: ﴿لا إله إلا الله﴾ فقاموا وقالوا: ﴿أجعل الآلِهَةَ إلهاً واحِداً﴾[1]؟.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي من قريش من مجلس أبي طالب، بعدما أسكتهم الرسول ﷺ بالجواب المفحم، وشاهدوا تصلبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجونه من المصالحة على الوجه المذكور، أي خرجوا من المجلس يقول بعضهم لبعض: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي واثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا الذي شاهدناه من محمد، أمر مدبَّر، يريد من ورائه

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٧.

أن يصرفكم عن دين آبائكم، لتكون له العزة والسيادة، فاحذروا أن تطيعوه فيفسد عليكم دينكم.

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي في الملة النصرانية، التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، أو يريدون ليس هذا في الملة التي كان عليها آباؤنا[1] ﴿ إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي كذب اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أي القرآن ﴿مِن بَيْنِنَا ﴾؟ ونحن رؤساء الناس، ومرادهم إنكار كونه منزلاً من عنده عزَّ وجل، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأمثال هذه المقالات، دليلٌ على أن مناط تكذيبهم ليس إلاَّ الحسد، والتكالب على حطام الدنيا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي هم في شك من القرآن والوحي، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن النظر، في الأدلة المؤدية إلى العلم بحقِّيته، فهم مذبذبون بين الأوهام، ينسبونه تارة إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق، ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي بل لم يذوقوا عذابي، فإذا ذاقوه تبيَّن لهم حقِّيتُه؛ وفي «لمَّا» دلالةٌ على أن ذوقهم على شرف الوقوع.

---

(١) قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية، فليس عندهم التوحيد بل التثليث، وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾؟ بل أعندهم خزائن رحمته تعالى، يتصرفون فيها حسبما يشاؤون؟ ويتحكمون فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيَّروا للنبوّة بعض صناديدهم؟ والحال أن النبوة عطية من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له فإنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي لا يُغالب ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء.

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ ﴾؟ أي ألهم ملك هذه العوالم، العلوية والسفلية، حتى يتكلموا في الأمور الربانية، ويتحكموا في التدابير الإلّهية، التي استأثر بها رب العزة والجلال؟ ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن كان لهم ما ذكر من الملك، فلْيصعدوا في المعارج التي يتوصل بها العرش، ويدبِّروا أمر العالم، وينزلوا الوحي إلى من يختارون؟ وفيه من التهكّم بهم، ما لا غاية وراءه.

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أي هم جند من الكفار، المتحزبين على الرسل، مهزومون مكسورون عمَّا قريب، فمن أين لهم التدابير الإلّهية؟ فلا تبال بما يقولون يا محمد، و«ما» مزيدة للتقليل والتحقير، نحو أكلتُ شيئاً ما، والإشارة في ﴿هنالك﴾ إلى فتح مكة، والمعنى سيصيرون مهزومين في مكة.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ذكر تعالى الأشقياء الفجار ممن كذبوا الرسل، وهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وفرعون الطاغية الجبار، ووصف فرعون بذي الأوتاد أي ذي الملك الثابت، والمباني الضخمة العظيمة[1]، قال الشاعر:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ   فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأوتَادِ

وقيل: إنه كان ينصب الخشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذّب ورجليه إلى تلك الخُشب الأربعة، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً، ويتركه معلقاً في الهواء حتى يموت.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام، وفيه تنبيه على أن مشركي مكة ضرب من أولئك الأحزاب.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب، إلا كذب الرسل، لأن تكذيب واحد منهم تكذيبٌ لهم جميعاً، لاتفاق الكل على الحق ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي.

---

(١) هذا القول مروي عن الضحاك، وقد رجحه ابن عطية، ويدل عليه قوله سبحانه ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ فالمراد بالمقام الكريم: الدورُ والقصور الفخمة، وكذلك قال الزمخشري إن ذلك استعارة في ثبات الملك، واستشهد بقول الأسود بن يعفر «في ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأوتاد».

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يَنظُرُ ﴾ أي ينتظر ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي كفار قريش أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة ﴿ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ هي النفخة الثانية، أي ليس بينهم وبين حلول ما أعِدَّ لهم من العقاب، إلا هي، حيث أخرت عقوبتهم الشديدة إلى الآخرة ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ أي من توقف مقدار فواق، وهو مقدار ما بين الحلبتين، لأن الناقة تُحلب ثم تترك سُويعة يرضعها الفصيل، لإدرار اللبن، ثم تحلب ثانية، يعني إذا جاء وقت الصيحة لم تستأخر هذا القدر من الزمان، وهو عبارة عن الزمان اليسير.

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ كفار مكة ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة: يا ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب، الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب، والقِطُّ: القطعة من الشيء، والحظُّ والنصيب.

﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة ﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾ أي تذكّر ﴿ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ أي تذكر قصته، وصن نفسك أن تزل فيما كلفت به من مصابرتهم، وتحمل أذيتهم ﴿ ذَا ٱلۡأَيۡدِ ﴾ المراد بالأيد: القوة، وهي قوة في الدين، أي ذا القوة على أداء العبادة، والاحتراز عن المعاصي ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي رجّاع إلى مرضاة الله تعالى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحب الصيام إلى الله، صيامُ داود، كان يصوم يوماً،

ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله، صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[1].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ أي تسبِّح بتسبيحه، وتسبيحُ الجبال حقيقة وكان معجزة لداود عليه السلام ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي في المساء والصباح.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي مجموعة حوله، روي أنه عليه السلام كان إذا سبَّح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبحت بتسبيحه، وذلك حشرها ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير، لأجل تسبيحه، رجَّاع إلى التسبيح.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قوَّيناه بالهيبة والنصرة، وكثرة الجنود ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي الكلام البيِّن الفصيح الذي ينبه المخاطب على المرام، من غير التباس.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ استفهام معناه التعجب، والتشويق إلى استماع ما في حيزه من الأنباء البديعة، والخصم يُطلق على الواحد، وما فوقه، كالضيف ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي صعدوا عُلُو المحراب من سوره،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ١٣٣١، ومسلم رقم ١٨٩.

والسور الحائط المرتفع، ونظيره تسنَّمه إذا علا سَنَامه، وتذرَّاه إذا علا ذُروته.

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍۢ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ ﴾ أي خاف منهم، لأنهم نزلوا عليه من فوق، على خلاف العادة، في غير يوم الحكومة، لأنه عليه السلام جزَّأ زمانه أربعة أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ﴿ قَالُواْ ﴾ إزالة لفزعه ﴿ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ ﴾ أريد بهما شخصان أي فوجان متخاصمان ﴿ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍۢ ﴾ هو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ولا تجاوز الحدَّ في الحكومة ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ إلى وسط طريق الحق، وهو العدل، فقال عليه السلام تكلما فقال أحدهما.

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى ﴾ أي في الدين أو في الصحبة، والتعرض لذلك لبيان قبح ما فعل به صاحبه ﴿ لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ هي الأنثى من الضأن، وقد يُكنى بها عن المرأة ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ وحقيقية اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل: اجعلها كفلي أي نصيبي ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أي وغلبني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة في الإنكار، ولعله قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو على تقدير صدق المدعي ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي ليتعدى غير مراع لحق الصحبة والشركة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي وهم قليل، و«ما» مزيدة للإبهام والتعجب من قلّتهم ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ الظن مستعار للعلم لما بينهما من المشابهة الظاهرة، أي فعلم عليه السلام أنه تعالى ابتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعدا إلى السماء فعلم الأمر ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه خطأ ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً، أو خرَّ للسجود راكعاً أي مصلياً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله بالتوبة.

«فصل»

وفي هذه القصة ثلاثة أقوال:

القول الأول: وحاصل كلامهم أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال حتى قتل زوجها ثم تزوج بها، فأرسل الله إليه مَلَكَيْن في صورة المتخاصمين، في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبّه لذلك، فاشتغل بالتوبة!! والذي أدين الله به وأذهب إليه، أن ذلك باطل، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نُسبت إلى أفسق الناس لاستنكف منها،

والرجل الخبيث الذي يقرر تلك القصة، لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما يلعن من نسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يليق بالعاقل نسبة هذا الإفك، بمن خصَّصه الله تعالى بنبوته، وائتمنه على وحيه، وشرَّفه على كثير من خلقه، وأمر أفضل خلقه محمداًﷺ، بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق.

الثاني: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام بالصفات العشرة المذكورة قبل القصة ووصفه بصفات كثيرة بعدها وكل واحدة من هذه الصفات دالة على براءة ساحته عليه السلام عن تلك الأكاذيب.

والثالث: أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود وتعظيمه، ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعايب، لجرى مجرى أن يقال: فلانٌ عالي الدرجة في طاعة الله، يقتل ويزني، وقد جعله الله خليفةً في أرضه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل، فكذا ههنا.

والرابع: أن داود عليه السلام قال: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاَّ الذين آمنوا﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا: إنه كان موصوفاً بالبغي، لزم أن يقال: إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه، وذلك باطل.

الخامس: لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ألاَ لعنةُ اللهِ عَلَى الظالمين﴾ فثبت بهذه الوجوه أن القصة التي ذكروها فاسدة، باطلة، فإن قال قائل: إن بعض المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟ **الجواب**: أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة، وبين خبر الآحاد، كان الرجوع إلى الدلائل أولى، وأيضاً الأصل براءة الذمة، وأيضاً إذا تعارض دليل التحليل والتحريم، كان جانب التحريم أولى، وفي نوع هذه الواقعة لا يقول الله تعالى لنا لِمَ لَمْ تَسْعوا

في تشهير هذه الواقعة، وأما بتقدير كونها باطلة، فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب.

القول الثاني: في كيفية هذه القصة فيه وجهان:

الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه، ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان خطؤه أنْ خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه، ويدل على صحة هذا الوجه قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطابِ﴾ فدلَّ هذا أنه كان بينهما في الخِطْبة.

الوجه الثاني: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام، يسأل بعضهم بعضاً أن يطلِّق امرأتَه حتى يتزوجها، وكانت عادتهم في هذا معروفة، كما أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى، فطلب داود من أوريا النزول عنها، فاستحيا أن يرده ففعل، وهي أم سليمان، فقيل له: هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فهذان الوجهان لو حملنا هذه القصة على واحد منهما، لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل.

القول الثالث: وهو أن نقول: روي أن جماعةً من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود، وكان له يوم يشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً، فخافوا فوضعوا كذباً فقالوا خصمان بغىٰ... إلخ.

وليس في القرآن ما يمكن أن يُحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة ـ ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ٢ ـ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ ٣ ـ ﴿وَأَنَابَ﴾ ٤ ـ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ نقول: وهذه الألفاظ لا تدل على ما ذكروه إنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلا أنه مال إلى الصفح طلباً لمرضاة الله، وكانت هذه الواقعة فتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء، ثم استغفر ربَّه ممَّا همَّ به من

الانتقام، وتاب، فغفر له، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ الخ إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه لا يلزم إسناد الذنوب إلى داود عليه السلام، وأما إذا قلنا: الخصمان كانا مَلَكَيْن وما كان بينهما مخاصمة، وما بغى أحدهما على الآخر، كان قولهما خصمان بغى الخ كذباً فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين: ١ ـ إسناد الكذب إلى الملائكة، ٢ ـ وإسناد القبائح إلى رجل كبير من الأنبياء، فكان قولنا أولى، والله أعلم بأسرار كلامه[1].

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما استغفر منه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ أي لقربة وكرامةً بعد المغفرة ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي حسن مرجع في الجنة، ومثلُ هذه الخاتمة، إنما تحسن في حق من صدر منه عملٌ كثير في الخدمة والطاعة، وتحمّل أنواع الشدائد في الانقياد، أما إذا كان المذكور هو الإقدام على الجرم والذنب، فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به، قال مالك ابن دينار: إذا كان يوم القيامة، أُتيَ بمنبر رفيعٍ ويوضع في الجنة، ويقال: يا داودُ مجِّدني بذلك الصوت الحسن الذي كنتَ تمجدني به في الدنيا.

---

(١) ما نقله بعض المفسرين من الأخبار الإسرائيلية، كلها أقوال باطلة واهية، لا يصح نسبتها إلى نبي كريم كداود عليه السلام، وخلاصتها أنه رأى زوجة أحد قواده، فأحبها وعشقها، وأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك فلما قتل خطبها وتزوجها، فهذه فرية ما فيها مرية، وكما نقل المؤلف عن الإمام الفخر الرازي بطلان هذه الرواية من عدة وجوه، وهذا هو الذي ندين الله عزَّ وجلَّ به أن القصة كلها باطلة، وقد حققنا ذلك في كتابنا صفوة التفاسير ٣/ ٥٤ ونقلنا عن علي رضي الله عنه قوله: «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاصُ ـ يعني أهل القصص والأخبار ـ جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء» وارجع إلى تفسير ابن كثير، والفخر الرازي، فقد أجادا في هذا الموضوع وأفادا.

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي قلنا له: يا داود إنَّا قد استخلفناك على الملك فيها، والحكم فيما بين أهلها، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة، كما كانت قبلها، لم تتغير قط، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول الأول المشهور، لأن من كان ساعياً في سفك دم المسلم، وراغباً في انتزاع زوجته منه، فتفويضُ خلافة الأرض من جهة الله تعالى إليه بعيدٌ جداً ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ بحكم الله تعالى، فإن الخلافة مقتضية له حتماً ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أي هوى النفس في الحكومات، وغيرها من أمور الدين والدنيا، وهو يؤيد أن خطأه عليه السلام كان بالمبادرة إلى تصديق المدَّعي، وتظليم الآخر قبل مسألته ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك، عن دلائله التي نصبها على الحق، تكويناً وتشريعاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تعليل لما قبله، أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه المستقيم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ ﴾ أي بسبب نسيانهم ﴿ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي لهم عذاب شديد يوم الحساب، بسبب تكذيبهم به، وعدم اعتقادهم بلقاء الله، وقيل: المعنى: بما تركوا الإيمان بيوم الحساب، أو عدم العدل في القضاء. روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لبعض أكابر العلماء وهو ـ أبو زُرعة ـ هل سمعتَ ما بَلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم، ولا يُكتب عليه معصية؟ فقال له: يا أمير المؤمنين: الخلفاءُ أفضل أم الأنبياء؟ إن الله جمع لداود بين الخلافة والنبوة، ثم توعَّده في كتابه فقال: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله...﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة[1].

---

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٠١ من المختصر.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ أي وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات، على هذا النظام البديع، الذي تحار في فهمه العقول، خلقاً باطلاً، أي خالياً عن الغاية والحكمة، بل منطوياً على الحِكَم البالغة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما نُفي، أي خلقها باطلاً ﴿ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي مظنونهم فإن جحودهم للبعث والجزاء، الذي يدور عليه فلك التكوين، قولٌ منهم ببطلان الحكمة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بسبب هذا الظن الباطل ﴿ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي فويل لهم من عذاب النار المترتب على ظنهم وكفرهم.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ﴾ أم منقطعة وما فيها من معنى «بل» لإنكار التسوية بين الفريقين على أبلغ وجه ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين، كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض؟ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ إضراب وانتقال بلزوم ما هو الأظهر منه استحالة، أي أم نجعل الأبرار الأخيار، كالأشرار الفجار؟ هذا لا يمكن في عدل الله وحكمته؟

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ كِتَٰبٌ ﴾ أي هذا كتاب يعني القرآن ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ كثير المنافع والخيرات ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي أنزلناه ليتفكروا في آياته المعجزة العجيبة

فيقفوا على ما فيها ويعملوا بها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ به ذوو العقول السليمة.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي نعم سليمان كما ينبىء عنه تأخره عن داود، مع كونه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح أي رجّاع إلى الله بالتوبة والإنابة.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ أي اذكر حين عرضت عليه خيله ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ هو من الظهر إلى آخر النهار ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافن الخيل الذي يقوم على ثلاث قوائم، وأقام الأخرى على طرف حافر، وهي من الصفات المحمودة في الخيل، ولا يكاد يتفق إلاّ في العرابي الخالص ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ صفة أخرى، وهو الذي يسرع في جريه، وذكر تعالى الصفون، والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين، واقفة، وجارية، أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً وخفافاً في جريها، روي أنه عليه السلام غزا وأصاب ألف فرس فقعد يوماً بعدما صلّى الظهر على كرسيه، فاستعرضها فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن وردٍ كان له من الذكر، فاغتّم لما فاته، فاستردها فعقرها تقرباً لله تعالى، وقيل: لمّا عقرها أبدله الله تعالى خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره إلى حيث شاء.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ قاله عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن ذكر الله، وندماً عليه، وتمهيداً

لما يعقبه من الأمر بردِّها وعقرها، والتأكيد للدلالة على ندمه عن صميم القلب ومعنى ﴿أَحبَبتُ﴾ آثرتُ كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها وقال ﷺ: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»(١) ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخبَّأة بحجابها، وإضمارها من غير ذكرٍ، لدلالة العشيِّ عليها، وقيل: الضمير للصافنات أي حتى توارت الخيل بحجاب الليل أي بظلامه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ من مقالة سليمان عليه السلام ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ الفاء فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت إيذاناً لسرعة الامتثال بالأمر، أي فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها، ويتصدَّق بلحومها على الفقراء، وإنما فعل ذلك كفارة لها، وكانت الخيل مأكولة في شريعته فلم يكن إتلافاً، وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها، وحبسها في سبيل الله. قال الأكثرون: إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر، بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل، استردَّها وعقر سوقها وأعناقها، تقرباً إلى الله تعالى، وعندي أن هذا بعيدٌ، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه لو كان معنى مسح السوق قطعها لكان معنى ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ قطعها.

الثاني: القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة ١ ـ ترك الصلاة، ٢ ـ الاشتغال بحب الدنيا، ٣ ـ أنه

---

(١) رواه أحمد في المسند.

خاطب رب العالمين بقوله: ﴿رُدُّوهَا عليَّ﴾ وهذه الكلمة لا يذكرها الرجل إلا مع الخادم الخسيس، ٤ ـ عقر الخيل في سوقها وهو منهي عنه، ٥ ـ إنه بعد الإتيان بهذه الذنوب لم يشتغل بالتوبة، فهذه أنواع من الذنوب نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدلَّ على شيء منها، بل ينادي على هذه الأقوال بالرد والإبطال، والتفسير المطابقُ لألفاظ القرآن أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين الإسلام، ثم إنه عليه السلام لمَّا احتاج إلى الغزو أمر بإحضار الخيل، وذكر إني لا أحبها لأجل الدنيا، إنما أحبها لأمر الله تعالى، ثم أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه، طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك إمَّا تشريفاً لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، وإما أراد أن يُظهر أنه في ضبط السياسة والملك، يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ أظهرُ ما قيل في فتنته عليه السلام ما روي مرفوعاً، أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، تأتي كلُّ واحدةٍ بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء الله تعالى، فطاف عليهنَّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة بشقِّ رجل، والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1] ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري ولم يذكر أنه تفسير للآية الكريمة، فيحتمل أنه تفسير، ويحتمل أنه قصة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥﴾ .

﴿قَالَ﴾ بدل من أناب وتفسير له ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ أي ما صدر عني من الزلة ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لا يتسهل لغيري، يكون مختصاً بي ليكون معجزة دالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء، تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معاً.

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾ .

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي بأمر سليمان وهو بيان لتسخيرها له ﴿رُخَآءً﴾ أي لينة طيبة، لا تزعج ولا تخالف إرادته ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ أي حيث قصد وأراد.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧﴾ .

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ أي منهم من يبني له القصور الشاهقة، ومنهم من يغوص في البحر لاستخراج الدرر والجواهر.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨﴾ .

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين - وهم المردة - مربوطون بالقيود والسلاسل، لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان، كأنه عليه السلام، فصَّل الشياطين إلى عَمَلة، وإلى مَرَدة قَرَن بعضهم مع بعض في السلاسل، لكفِّهم عن الشر والفساد، وإلى غواصين يغوصون البحار، لاستخراج الياقوت والمرجان.

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ أي الأمر الذي أعطيناك من المُلْك، والبسطة، والتسلط ﴿ عَطَآؤُنَا ﴾ الخاصُّ بك ﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ أي فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد في التصرف بهذا الملك الواسع.

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي وإن له عندنا لمكانة رفيعة، ومنزلة سامية، مع ما له من الملك العظيم الواسع في الدنيا.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ هو ابن عيص بن إسحق عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي دعا ربه وتضرع إليه ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ ﴾ بتعب ومشقة ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي ألم شديد، يريد مرضه، وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر في قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فقد حصل عنده نوعان من المكروه: الغمُّ الشديد بسبب زوال الخيرات، والألم في جسمه، ولذا قيل ﴿بِنُصبٍ وَعَذَابٍ﴾ والإسناد إلى الشيطان مراعاة للأدب، وإن كانت الأشياء كلها، خيرُها وشرها من الله تعالى، ولأن الشيطان يغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إليه تعالى في أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء، ومراعاة للأدب، وليس هذا تمام دعائه عليه السلام، بل من جملته ﴿وأنتَ أرحمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاكتفى ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء، ولما انقضت مدة ابتلائه قلنا له بواسطة جبريل:

﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ ﴾ أي اضرب بها الأرض، فضرب بها فنبعت عين فاغتسل منها، وعين باردة فشرب منها، والرَّكضُ: الدفعُ القويُّ بالرِّجْلِ ﴿ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾ تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ ظاهرك وباطنك.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ ﴾ أي فاغتسل وشرب ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ كما في سورة الأنبياء ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ أي بجمعهم بعد تفرقهم ﴿ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ ﴾ فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿ رَحۡمَةٗ مِّنَّا ﴾ أي لرحمة عظيمة عليه من قبلنا ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ولتذكيرهم ليصبروا على الشدائد كما صبر، ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يحيق بهم كما لجأ، ويعلموا أن عاقبة الصبر الفَرَجُ.

﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا ﴾ أي وقلنا له: خذ بيدك حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عودٍ ﴿ فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ ﴾ أي لتبرَّ في يمينك، روي أن زوجته «رحمة بنت إفرائم بن يوسف» ذهبت لحاجةٍ فأبطأت عليه، فحلف إن برىءَ ضربها مائة[1]، فحلَّل الله يمينه بذلك، ولقد شرع الله سبحانه هذه

---

(١) سبب حلفه أن زوجته كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتدَّ به البلاء، وطالت المدة، وسوس إليها الشيطان إلى متى تصبرين، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجرُ، فقالت: إلى متى نصبر على هذا البلاء؟ ادع الله أن يشفيك، فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأراد الله أن يعصم نبيه أيوب عليه السلام من الذنبين الظلم، والحنث، وأن لا يضيع أجر إحسان المرأة مع زوجها، وأن لا يكافئها بالخير شراً، وتبقى ببركتها هذه الرخصة في الأمم إلى يوم القيامة.

الرخصة رحمةً عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه، ورضاه عنها، وهي رخصة باقية في الحدود عند أبي حنيفة والشافعي، وقال مالك وأحمد: لا يبرُّ به ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس، والأهل، والمال، وليس في شكواه إخلال بذلك، فإنه كالتمني للعافية، وكمن اشتكى من عدوه إلى حبيبه، والشكاية من العدوِّ إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لمدحه، أي رجَّاع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي أولي القوة في الطاعة، والبصيرة في الدين.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا، بخصلةٍ عظيمة الشأن، كما ينبىء عنه التنكير التفخيمي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بيان للخالصة بعد إبهامها، أي تذكرهم للدار الآخرة دائماً.

قال مجاهد: «جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها»، وذلك لأن مطمح أنظارهم جوار الله عزَّ وجلَّ، والفوز بلقائه، ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة، وإطلاق الدار للإشعار بأنها هي الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي لمن المختارين من أمثالهم.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ ﴾ أي كلهم ﴿ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ المشهورين بالخيريّة والفضل، فاقتد بهم في الصبر، وتحمل الأذى من الأعداء.

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات، الناطقة بمحاسنهم ﴿ ذِكۡرٞۚ ﴾ أي شرفٌ لهم، وذكرٌ جميل، يُذكرون به أبداً وعن ابن عباس: هذا ذكر من مضى من الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ أي حسن مرجع ومنقلب، يرجعون إليه في الآخرة، والمراد بالمتقين الجنسُ، وهم داخلون في الحكم، أو المذكورون من الأنبياء، عبَّر عنهم بذلك، مدحاً لهم بالتقوى، التي هي الغاية من الكمال.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ ﴾ أي هي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، وهو بيان لحسن مآب ﴿ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ أي قد فُتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم، فيدخلونها محفوفين بالملائكة، على أجمل هيئة، وأحسن حال، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1] سورة الزمر.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾ الاقتصار على دعاء

(١) سورة الزمر، آية: ٧٣.

الفاكهة، للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، فإنه لا جوع ولا عطش في الجنة.

﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ ﴾.

﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي قصرن أنظارهنَّ على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي هنَّ في سنٍّ واحد، سنُّ الصبا والشباب، ليس فيهن عجائز، بنات ثلاث وثلاثين، كما هو سن أزواجهن.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ ﴾.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي يقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا ليوم الجزاء والحساب.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ ما ذكر من النعم والكرامات ﴿ لَرِزْقُنَا ﴾ أعطيناكموه ﴿ مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي ليس له انقطاع أبداً بل هو دائم، كلما أُخذ منه شيء، عاد مثله في مكانه.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ ﴾.

﴿ هَٰذَا ۚ ﴾ أي الأمر هذا ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ شروع في بيان حال الأشقياء المجرمين، بعد بيان حال السعداء المتقين.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ ﴾.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلونها ويصلون سعيرها ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي

بئست جهنم فراشاً ومهاداً لهم يفترشونه، شبَّه ما تحتهم من النار بالفراش، فهو فراشٌ لكنْ لا راحة فيه، لأنه من نصف جهنم.

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليذوقوا هذا، إنه العذاب الأليم فليذوقوه، وليهنأوا به ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ إنه الحميم الذي يقطع الأمعاء بحرارته، والصديد الذي يسيل من جلود أهل النار.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ ﴾ أي هذا العذاب الذي أُعدَّ لهم هو الحميم، أي الماء الحار الذي انتهى إلى درجة الغليان، والغسَّاق: وهو ما يسيل من جلود أهل النار من الصديد والدم، ومذاق آخر من مثل هذا المذاق، في الشدة والكدر ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي أجناس، كالزمهرير، والزَّقُوم، والسَّمُوم.

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخزنة للرؤساء الطاغين، إذا دخلوا النار، واقتحمها معهم فوج، كانوا يتَّبعونهم في الكفر والضلالة، والاقتحامُ: الدخول في الشيء بشدَّة ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ هو من تمام كلام الخزنة، بطريق الدعاء على الفوج، أي لا رَحُبتْ بهم الدار ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ تعليل لاستحقاقهم الدعاء، وقيل: هذا من كلام الرؤساء الطغاة، للأتباع الأشقياء، إذا قالت لهم الملائكة، هذا فوج من أتباعكم، معكم في نار جهنم، يدخلونها كما دخلتموها، قال الرؤساء: لا أهلاً بهم ولا مرحباً!! فيقول الأتباع:

﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الأتباع عند سماعهم ما قيل ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ أي بل أنتم أحق بالخزي واللعنة ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم سبباً فيه ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم.

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الأتباع أيضاً معرضين عنهم إلى الله تعالى ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾[1] أي عذاباً مضاعفاً، بأن يزيد عليه مثله.

﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي الرؤساء الكفرة ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾؟ يعنون فقراء المسلمين، الذين كانوا يسترذلونهم، ويسخرون منهم.

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ صفة أخرى لرجالاً ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ أي مالت ﴿ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فلا نراهم أي ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها، أم هل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم؟

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٨.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذي حُكي من أحوالهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بد من وقوعه البتَّة وهو قوله تعالى ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أي في النار، وإنما سماه تخاصماً، لأن قول القادة للأتباع ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول الأتباع: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ باب المخاصمة، لأن فيه تقبيحاً، وتشنيعاً، وتلاعناً، ودعاء بعضهم على بعض.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ من جهته تعالى، أنذركم عذابه ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ في الوجود ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ﴾ الذي لا يقبل الشركة أصلاً ﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾ لكل شيء سواه، وكونُه تعالى قهاراً، يدلُّ على وحدانيته.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها؟ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب في أمرٍ من أموره ﴿ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ المبالغ في المغفرة، وفي هذه النعوت الوعدُ والوعيدُ.

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ تكرير الأمر، للإيذان بأنه أمر جليل، له شأن خطير ﴿ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني منذر، وأنه تعالى واحد أحد، متصف بما ذُكر، هو خبرٌ هام، ونبأٌ عظيم الشأن. والأظهر أن الضمير يعود على القرآن،

كما يشهد به آخر السورة، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ أي هذا القرآن الذي جئتكم به، هو نبأ عظيم وارد من جهته تعالى.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، ببيان أنهم لا يقدرونه قدره الجليل، حيث يعرضون عنه مع عظمته.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم، لولا الوحي المنزل عليَّ؟ وفي ذلك حجة بينة، دالة على أن ذلك النبأ، بطريق الوحي من عند الله تعالى، لأنه ﷺ لم يسلك طريق العلم، ولا قراءة الكتب ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بحال الملأ الأعلى، وقت اختصامهم، فإن قلت: كيف يجوز أن يقال: إن الملائكة اختصموا مع الله تعالى بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ قلتُ: لا شكَّ أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة في الحوار، وهو علة لجواز المجاز فعبَّر عن الحوار بالخصام.

﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِن يُوحَىٰ﴾ أي ما يُوحى ﴿إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يُوحى إليَّ ما يُوحى من الأمور الغيبية، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى، أرسلني الله إليكم لأنذركم عذابه.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ أي اذكر حين أخبر ربك الملائكة، بأني سأخلق إنساناً من تراب مبلول، وهو الطينُ، والمراد به أبونا آدم عليه السلام.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي اسجدوا له سجود تحية وتكريم.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾ أي تعظَّم ﴿ وَكَانَ ﴾ أي صار بسبب استكباره وعصيانه لأمر الله ﴿ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أصبح كافراً ملعوناً، مطروداً من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ أي لما خلقته بيديَّ فكرَّمتُهُ، ونفخت فيه الروح بنفسي من غير توسط الأب والأم؟ ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾؟ أي المستحقين للتفوق على آدم بمآثر خاصة، تستحق به التكريم؟.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ فأنا أشرف منه وأفضل.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي اخرج من السماوات ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مطرود من كل الخير والكرامة.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ أي إلى وقت النفخة الأولى، وهو الوقت الذي قدَّره الله لفناء الخلائق.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ أي فبسلطانك وجلالك، أقسمُ لك يا رب ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وهم المؤمنون الصادقون، الذين اصطفيتهم لنفسك، فلا قدرة لي عليهم!!.

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي لا أقول إلا الحقَّ، فالحقُّ قَسَمي.

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لأملأنَّ جهنم من

المتبوعين والأتباع أجمعين، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على تبليغ ما أوحي إليَّ من أجرٍ دنيوي ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي المتصنّعين بما ليسوا من أهله، حتى أنتحل النبوة، وأتقوَّل القرآن، وكلُّ من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلَّف له، روي عن مسروق قال: دخلنا على ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أيها الناس من عَلِمَ شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؟ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: اللهُ أعلم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾[1] والغرض من الآية: أن هذا الدين الذي أدعوكم إليه، ليس يحتاج في معرفة صحته، إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دينٌ يشهد صريح العقل بصحته، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله تعالى، وتقديسه عن كل ما لا يليق به، منزهاً عن الشريك والأضداد، ومتصفاً بكمال الصفات، ثم أدعوكم إلى الإقرار بالبعث والنشور، فكل ذلك حقٌّ لا مرية فيه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الإنس والجن وسائر الخلق.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٨/٥٤٧ باب ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ وله تتمة.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ أي ولتعلمن خبره وصدقه عن قريب عند ظهور الإسلام، وبعد الموت، والله تعالى أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة صٓ»

* * *



مكية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا القرآن العظيم تنزيل من الله جلَّ وعلاً ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي القاهر الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبر، والتعرض لوصفي العزة، والحكمة، للإيذان بظهور أثرهما في الكتاب، على أساس الحِكَم الباهرة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي متضمناً الحقَّ الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا يشوبه هزل أو باطل، والمراد بالكتاب هو القرآن، وإظهاره لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي من شوائب الشرك والرياء. ولفظ «التنزيل» يشعر بأنه تعالى أنزله نجماً نجماً، على سبيل التدريج، ولفظ «الإنزال» يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة، فكيف الجمع بينهما؟ والجواب: أن المعنى: إنَّا حكمنا حكماً كلياً جازماً،

بأن يوصل إليك هذا الكتاب، وهذا هو الإنزال، ثم أوصلناه إليك يا محمد نجماً نجماً على وفق المصالح، وهذا هو التنزيل.

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ الخ تحقيق لحقية ما ذكر من إخلاص الدين الذي هو عبارة عن التوحيد، وبطلان الشرك، أي ألا فانتبهوا، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، لأنه المتفرد بالألوهية ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ﴾ أي المشركون ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ كالملائكة، وعيسى، والأصنام، يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى، بل شابوها بعبادة غيره، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله قربة، ويشفعوا لنا عنده ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الخلائق ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين الذي اختلفوا فيه، بالتوحيد والإشراك، وادعى كل منهم صحة ما انتحله، وحكمُه تعالى فيه إدخال المخلصين الجنة، والمشركين النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي ﴾ أي لا يوفق للاهتداء إلى الحق ولكنه يخذله ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي راسخ في الكذب مبالغ في الكفر، فإنهما فاقدان للبصيرة.

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ استئناف لتحقيق الحق، وإبطال كذبهم بأن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، أي لو أراد الله أن يختار لنفسه ولداً ﴿ لَّاصْطَفَىٰ ﴾ أي لاتخذ ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ أي من جملة ما يخلقه ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ أن يتخذه، إذ لا موجود سواه، إلاَّ وهو مخلوق له، ومن البيِّن أنَّ

المخلوق لا يماثل خالقه، حتى يمكن اتخاذه ولداً ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه عن ذلك تنزهاً بليغاً ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الواحد في ذاته، القاهر لعباده، فكيف يكون له ولد، والوحدانية تنافي المماثلة، والقهارية تنافي الحاجة إلى الذرية؟.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس، والتكويرُ: اللفُّ والليُّ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي الغالب القادر على كل شيء، والمبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، وقد اتفق علماء المعقول من المسلمين على كروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، ويدل عليه تعقيب الليل النهار لأن الأرض تدور على محورها تحت الشمس، فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائماً ونصفها الآخر مظلماً، وهذا معلوم بالقطع في هذا العصر[1].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾.

---

(١) انظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» ففيه أدلة ساطعة على الموضوع.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ المراد بالنفس: نفسُ آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ يعني حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة: خلق آدم، وخلق حواء، ثم تشعيب الخلق منهما ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي قضى وأحدث لكم، بأسباب نازلة من السماء كالأمطار، وأشعة الشمس والكواكب ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ ذكراً وأنثى، هي: الإبلُ، والبقر، والضأنُ، والمعز ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ في أطوار مختلفة دالة على القدرة الباهرة ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ أي خلقا مدرجاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، أو ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن الذي عُدِّدت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾ جل جلاله ﴿رَبُّكُمۡ﴾ أي مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعده ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾ على الإطلاق، في الدنيا والآخرة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادته تعالى، مع وفور موجباتها ودواعيها، إلى عبادة غيره من غير داع إليها.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه، ومعرفة شؤونه الموجبة للإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ أي فإن الله غني عن إيمانكم وشكركم، ولا يرضى منكم الكفر وهو قول السلف، قالوا: كفرُ الكافر غير مرضٍ لله تعالى، وإن كان بإرادته، والرضا: عبارة عن مدح الشيء، والثناء على فعله، والله تعالى لا يمدح الكفر، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وقد بان الفرق، وعدم رضاه بكفر عباده، لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة عليهم، لا لتضرره تعالى به ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ فتؤمنوا ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ أي يرضى الشكر لأجلكم، لأنه سبب

لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر، حمل نفس أخرى، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا، أي يجازيكم بذلك، ثواباً وعقاباً، وهذا تهديد للعاصي، وبشارة للمطيع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمضمرات قلوبكم، فكيف بالأعمال الظاهرة؟.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)﴾.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ كربٌ وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه مما كان يدعوه في حالة الرخاء لعلمه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل التخويل والعطاء ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي شركاء في العبادة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ أي الناس بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد ﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الضال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي من ملازميها والمعذبين فيها.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩)﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ من تمام الكلام كأنه قيل له تأكيداً للتهديد: أأنت

أحسن حالاً ومآلاً، أم من هو قائم بموجب الطاعات، ودائم على أداء وظائف العبادات؟ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي في ساعاته، حالتي السراء والضراء، لا عند مساس الضر فقط ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي جامعاً بين الوصفين المحمودين، وآناء الليل ساعات الليل، أوله، ووسطه، وآخره، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل لأنه استر عن العيون فيكون أبعد من الرياء ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي يخاف من عذاب الآخرة ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ فينجو بذلك مما يحذره، ويفوز بما يرجوه، ودلت الآية الكريمة على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته ويحذر عقابه، روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في حالة الموت، فقال له: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو منه، وآمنه مما يخاف»[1] والرجاء إذا جاوز حده يكون أمناً، والخوف إذا جاوز حدَّه يكون يأساً، وكلاهما محظور، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2] ﴿قُلْ﴾ بياناً للحق، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾؟ أي يعلمون حقائق الأحوال، كالقانت المذكور، والذين لا يعلمون شيئاً ما، وقيل هو وارد على سبيل التشبيه، أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون، لا يستوي القانتون والعاصون، بدأ الآية بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، وأنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل، إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، قال صاحب الكشاف أراد ﴿الذين يعلمون﴾ الذين سبق ذكرهم،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٩٨٣ في الجنائز، وابن ماجه رقم ٤٢٦١ في الزهد.
(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

وهم القانتون، وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يعملون بها، فهم عند الله جهلة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يتعظ بهذا أصحاب العقول، الخالصة عن شوائب الخلل.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أَمرَ رسولُ الله ﷺ بتذكير المؤمنين، وحملهم على التقوى، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به، فإن نقل عين أمر الله تعالى، أَدْخلُ في إيجاب الامتثال به ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ تعليل للأمر، أي لمن أحسن عمله وسار في طريق الهداية ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عبر عنه ﷺ حين سئل عن الإحسان، بقوله: أن تعبد الله كأنك تراه ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي حسنة عظيمة، وهي الجنة ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان في وطنه، فليهاجر الى حيث يتمكن فيه، كما هو سنة الأنبياء والصالحين، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ترغيب في التقوى المأمور بها، أي إنما يوفى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يحصى ولا يُحصر.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي عن كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك، قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: ما

يحملك على هذا الدين، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات ملتك؟ فأنزل الله هذه الآية.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة، كأنه ﷺ يقول: إني لست من الملوك الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به، فأنا أول الناس شروعاً فيه، وأكثرهم مداومة عليه.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وصف بالعظمة لعظمة ما فيه، من الدواهي والأهوال، والمقصود منه زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ مع جلالة قدره، إذا كان خائفاً من المعاصي فغيره أولى.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ أمر ﷺ بالإخبار بامتثاله للأمر، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم، وتمهيداً لتهديدهم، فإن قيل: ما معنى التكرير؟ قلنا: هذا ليس بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالعبادة، والثاني إخبار بأنه لا يعبد غير الله، لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ لا يفيد الحصر، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر، يعني الله أعبدُ لا أعبد أحداً سواه.

﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾ أن تعبدوه ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى، وليس أمراً، بل المراد الزجرُ والتوبيخ، وقيل له ﷺ: خالفتَ دين آبائك، فقد خسرت، فنزلت ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي الكاملين في الخسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالضلال، ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالإضلال، باختيار الكفر بدل الإيمان، أي أضاعوهما ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النار، حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي هو الخسران الواضح الفادح الذي لا خسران مثله، وفي تصديرها بحرف التنبيه، والإشارة بذلك، وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخسران، ووصفه بالمبين، مبالغة خالدة للتنفير عن عبادة غير الله.

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ نوع بيان لخسرانهم، بعد تهويله بطريق الإبهام، أي لهم كائنٌ من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة، بعضها فوق بعض، كائنة ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ﴾ أيضاً ﴿ظُلَلٞ﴾ هي في الدركات للآخرين، أي أطباق كثيرة بعضها تحت بعض، والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي العذاب الفظيع الذي ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ويحذرهم إياه، بآيات الوعيد، ليجتنبوا مما يوقعهم فيه ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾.

(١) سورة الأعراف، آية: ٤١.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ المراد به الشيطان، وقيل: الأصنام، والأوثان، وكلُّ ما يعبد من دون الرحمن ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال منه ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي أقبلوا إليه معرضين عما سواه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل من الملائكة عند حضور الموت، وعند الوضع في القبر، وعند الحشر، وعند الدخول في الجنة، بالروح والراحة والريحان، وهذه البشارة تكون بزوال المكروهات، وبحصول المرادات، قال الله تعالى: ﴿تتنزَّلُ عَلَيْهِم المَلائِكَةُ أَنْ لاَ تَخافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أي بشّرهم بالنعيم المقيم في دار الجنان.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وضع عباد موضع ضميرهم، تشريفاً لهم بالإضافة إليه سبحانه، فإذا اعترضهم أمران: واجبٌ وندب اختاروا الواجب، حرصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، أما في المعاملات مثل أنه تعالى شرع القصاص، والديةَ، والعفو، فيؤثرون العفو، لأنه تعالى قال: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يجلس مع القوم، ويسمع الحديث فيه محاسنُ ومساوىء، فيحدّث بأحسن ما سمع، ويترك ما سواه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ للدين الحق ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي هم أصحابُ العقول السليمة، المستحقون للهداية، لا غيرهم من المكذبين الضالين.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾؟ هم عبدة الطاغوت،

كما يلوح به التعبير عنهم بمن ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ فإن المراد بها قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جهنم..﴾ الخ وضع موضع الضمير ﴿مَنْ في النَّار﴾ للتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب، بمنزلة الواقع في النار، وأن اجتهاده ﷺ في دعائهم إلى الإيمان، سعيٌ في إنقاذهم من النار.

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ ﴾ أي لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم، أي لهم علالي بعضها فوق بعض ﴿ مَّبۡنِيَّةٞ ﴾ محكمة البناء، يعني الغرف العالية وإن كانت فوق بعضها، لكنها في القوة والشدة متينة ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ من غير تفاوت بين العلوِّ والسفل ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ ﴾ مصدر مؤكد، أي وعدهم الله وعداً ﴿ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ لأن خُلف الوعد نقصٌ، استحال عليه سبحانه، روي عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة ليتراءَوْن أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءَونَ الكوكبَ الدريَّ، الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين»[1] قوله الغابر: أي الباقي في الأفق.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ تمثيل الحياة الدنيا في سرعة

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٣٦٦/١١ ومسلم رقم ٢٨٣٠ في الجنة.

الزوال، تحذيراً من الاغترار بزهرتها، بإنزال الماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي فأدخله ﴿يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي عيوناً ومجاري كالعروق في الأجساد، نابعة فيها ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي يخرج بهذا الماء، أنواع الزروع، والفواكه، والثمار، كما يخرج به أنواع الحبوب، من بر وشعير وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتم جفافه ويشرف أن يثور من منابته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من بعد خضرته ونضرته ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً متكسرة، كأن لم يغن بالأمس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوب الخلل، يتذكرون بذلك فلا يغترون ببهجتها، ويجزمون على قدرة الله على كل شيء، والحطامُ: ما يجفُّ ويتفتت، ويُكسر من النبت.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحُ الصَّدر: عبارة عن تنوره بنور الإسلام، فإن الصدر محل للقلب، الذي هو منبع الروح، فانشراحه مستدع لاتساع القلب، واستضاءته بنوره ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هو اللطف الإلٓهي الفائض عليه، عند مشاهدة الآيات التكوينية، والتنزيلية، والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من أجل ذكره، وهو أبلغ من أن يكون «عن ذكرِ الله» لأن القاسي من أجل الشيء، أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه، أي إذا ذُكر الله عندهم أو آياته، اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي بعدٍ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، والنفس إذا كانت خبيثة، فسماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة، كحرارة الشمس تليّن الشمع، وتعقد الملح، فكذلك القرآن يليِّن قلوب المؤمنين. عند سماعه، ولا يزيد الكافر إلا قسوة وغلظة.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ هو القرآن الكريم أحسن الحديث لفظاً ومعنىً، ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل نوع يخالف الكل، وكل ذي طبع سليم، يستطيبه ويستلذه ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ أي تشابه معانيه في الصحة والأحكام، وتناسب ألفاظه في الفصاحة والبيان، وتكامل نظمه في الإيجاز والإعجاز ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ هو جمع مثنى بمعنى مردَّد ومكرَّر، لما ثُنّي قصصه وأنباءه، وأوامره ونواهيه، فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين، مثل الأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، والجنة والنار، ونحو ذلك، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي تضطرب وتفزع خوفاً مما فيه من الوعيد، روي عن العباس أن النبي ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خيفة الله، تحاتت عنه ذنوبُه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي إذا ذكرت آيات الوعيد اقشعرت جلود الخائفين من الله، وإذا ذكرت آيات الوعد والرحمة لانت جلودهم وسكنت قلوبهم، قال قتادة: هذا نعتُ أولياء الله، الذين نعتهم الله به، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان، وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصدّيق: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قال عبد الله: فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قُرىء عليهم القرآنُ، خرَّ أحدهم مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، رُوي أن ابن عمر مرَّ برجل ساقط، فقال: ما بال هذا قالوا: إنه إذا قرىء عليه القرآن يسقط فقال ابن عمر: إنَّا لنخشى اللهَ وما نسقطُ! ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي

الكتاب الذي شرح أحواله ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه بصرف مقدوره إلى الاهتداء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضه عما يرشده إلى الحق ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخلصه من الضلال.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حذف الخبر كما حذف في نظائره، والتقديرُ: أفمن يتقي بوجهه شدة العذاب، كمن أَمِنَ من العذاب؟ والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز أعضائه، والذي يُلقى في النار، يُلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا قدرة له على الاتقاء أصلاً إلا بوجهه، وهذا أبشع أنواع العذاب ﴿وَقِيلَ﴾ من جهة خزنة النار ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم، وضعَ المظهر للتسجيل عليهم بالظلم ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام، من الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي من قبل كفار قريش، أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحتسبونها، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ﴾ أي الذل والصغار ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالقتل

والإجلاء، ونحو ذلك من فنون النكال ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدته ودوامه ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لعلموا ذلك، واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور الدين ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كي يتذكروا به، ويتعظوا ببيانه.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي لا اختلال ولا تناقض فيه، فهو أبلغ من المستقيم، وقيل: المراد بالعوج الشك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يخافون عقاب الله، كما قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للموحِّد والمشرك، إيراد الأمثال القرآنية، للتذكر والاتعاظ بها، وتحصيل التقوى أي جعل الله تعالى مثلاً للمشرك ﴿رَّجُلًا﴾ أي عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ أي يتشارك في هذا العبد جماعة ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازِعون، متخالفون، يأمر هذا بشيء، وينهى ذلك عنه، والشَّكسُ: السيِّئُ الخُلقِ، المخالف للناس، ولا يرضى بالإنصاف، وهذا مثل المشرك، يعبد آلهة شتَّىٰ ﴿وَرَجُلًا﴾ أي وجعل للموحِّد مثلاً عبداً ﴿سَلَمًا﴾ خالصاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ لفرد معين ليس لغيره عليه سبيلٌ أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي صفة وحالاً، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما لأن العبد المشترك فيه، لا

يدري أيهم يُرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد، فهو في التحير وتوزع قلبه، ومن كان له سيد واحد، فهمُّه واحد، وقلبه مجتمع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية إنما هو بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت، فلا خلود لأحد في الدنيا ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ سيموتون، أي إنكم جميعاً في صدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ، وهم قد لجُّوا في المكابرة والعناد في الدنيا، وقيل: المراد الاختصام العام بين الأنام، عن عبد الله ابن الزُّبير رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزُّبير: «يا رسول الله أنكون على الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم»[1] وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنا نقول: «ربنا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلمَّا كان يوم صفين، وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم هو هذا».

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي هو أظلمُ من كل ظالم، من

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٣٦ وفيه: فقال الزبير: إن الأمر إذاً لشديد.

افترى على الله سبحانه كذباً، بأن أضاف إليه الشريك والولد ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق، وهو ما جاء به الرسول ﷺ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي في أول مجيئه، من غير تدبر فيه ولا تأمل ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي أليس لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب، مأوى ومسكن في جهنم؟ بالصدق في أول الأمر.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو الرسول ﷺ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي الموصُوفون بما ذكر من المجيء بالصدق، والتصديق به، هم المنعوتون بالتقوى التي هي أجلّ الرغائب.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم كل ما يشاؤون، في الآخرة، لا في الجنة كما قيل، لما أن بعض ما يشاؤون من تكفير السيئات، والأمن من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة، إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤون ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي وعدهم الله زوال المضار، وحصول المسار، ليكفر عنهم بموجب ذلك ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ خصّ الأسوأ للمبالغة، أي أعمالهم السيئة مهما عظمت، ويجوز أن يكون بمعنى السيِّىء، أي يكفِّر عنهم الأعمال السيئة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ﴾ أي ويعطيهم ثوابهم، بأفضل محاسن أعمالهم، زيادة للأجر، لفرط إخلاصهم فيها.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استفهام إنكار للنفي، مبالغة في الإثبات كأن الكفاية من التحقق والظهور، بحيث لا يقدر أحد على أن ينكرها والمراد بالعبد رسول الله ﷺ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، عما قالت له قريش: إنَّا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها، كما قال قوم هود لنبيّهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة، من دون الله تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يضلله عن طريق الهدى ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يصرفه عن مقصده، إذ لا راد لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يُغالب ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل على تفرده بالخالقية ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ

ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي بعدما تحققتم أن خالق العالم هو الله عزَّ وجلَّ، فأخبروني عن آلهتكم إن أرادني الله بضر، هل هنَّ يكشفن عني ذلك الضر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أي أرادني بنفع ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ فيمنعها عني؟ وتعليق الضر والرحمة بنفسه ﷺ، للرد في نحورهم، حيث كانوا خوَّفوه مضرة الأوثان ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ في جميع أموري ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلاً، لعلمهم بأن كل ما سواه، تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي على مكانتي، فحذف للاختصار، وللإشعار بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوة، بنصر الله وتأييده، ولذلك توعَّدهم بكونه منصوراً عليهم، بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيُّنا الضالُّ؟.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه، دليلُ غلبته ﷺ، وقد أخزاهم الله تعالى في الدنيا، كما في يوم بدر وغيره ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، وهو عذاب النار، والمقصود التخويف.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم، فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً به ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بأن عمل فيه

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما نفع به نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لما أن وبال ضلاله مقصورٌ عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لتجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا البلاغ.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي يقبضها من الأبدان، بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها، إما ظاهراً وباطناً كما عند الموت، أو ظاهراً فقط كما عند النوم ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند التيقظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو المضروب لموته، قيل: لكل إنسانٍ نَفْسان: نفسٌ بها الحياة، ونَفْسٌ بها التمييز، فالتي تُتَوَفَّىٰ في المنام هي نفس التمييز، لا نفس الحياة، إذ لو زالت لزال معها التنفس، والنائم يتنفس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التوفي ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى، وحكمته، ورحمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في جلال الله وعظمته وقدرته، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام، والنوم انقطاع ناقص، ومثل هذه التدابير لا يمكن أن تكون إلا عن تدبير القادر، العليم، الحكيم.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي بل اتخذ الكفار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دونه تعالى ﴿شُفَعَآءَ﴾ تشفع لهم عنده تعالى ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي قل لهم أتتخذونها شفعاء، ولو كانوا لا

يملكون شيئاً من الأشياء، ولا عقل لهم؟ وجواب «لو» محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أي هو مالكها، لا يستطيع أحد شفاعة ما، إلاَّ أن يكون المشفوع له مرضياً عنه والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقود ههنا ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ تقرير له وتأكيد، أي له ملكهما وما فيهما، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر بدون إذنه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ ونفرت، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ذَكَرْتَ ربَّك في القرآن وحده ولَّوا على أدبارهم نفوراً﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فرادى مع ذكر الله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى، ولقد بولغ في بيان حالتيهم حيث إن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى تنبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً حتى ينقبض جلد وجهه.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي التجىء إليه

تعالى بالدعاء، إذا تحيرت في أمر الدعوة، وضجرت من شدة المكابرة والعناد، فإنه القادر على الأشياء بجملتها ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وهذا يشمل كل مكابر ومعاند، وكل مؤمن وجاحد، عن أبي سلمة قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها أيَّ شيء كان نبيُّ الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «اللهمَّ ربَّ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماواتِ والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك، فيما كانوا فيه يختلفون، فاهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الأرض من الأموال ومثله معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب، وهيهات أن ينفعهم ذلك، وهذا وعيد شديد ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهر لهم من فنون العقوبات، ما لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم حين تعرض عليهم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم.

صحائفهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي جزاؤه.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده، أي أنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إياها تفضلاً ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علمٍ مني بوجوه كسبه، أو أعطاه لما عَلِم أني له أهل ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة، وابتلاء، واستدراج، وهو رد لما قاله، وتغيير السبك للمبالغة فيه، والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبىء عن الكرامة ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَدْ قَالَهَا﴾ الضمير لقوله: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقارون حيث قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓا۟﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين، أو المفرطون في الظلم والعتو ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓا۟﴾ كما أصاب أولئك، والسينُ للتأكيد، وقد أصابهم حيث قُحطوا

سبع سنين، وقُتل صناديدهم يوم بدر ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين من عذاب الله، لأن مرجعهم إليه تعالى.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي أقالوا ذلك ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع على من يشاء، ويضيق على من يشاء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على أن كل ما يحدث بتقدير الله جل وعلا، كما قال الشاعر:

فَلاَ السَّعْدُ يَقْضِي به المُشْتَرِي ... ولاَ النَّحْسُ يقضِي عَلَيْنا زُحَلْ
وَلَكِنَّهُ حُكْمُ رَبِّ السَّمَاءِ ... وَقَاضِي القُضَاةِ تَعَالَى وَجَلْ

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد إليه لتخصيص المؤمنين به، على ما هو عرف القرآن الكريم ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن يشاء فيما عدا الشرك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ يستر عظائم الذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب، والآية دالة على كمال الرحمة والغفران، نسأل الله تعالى الفوز بها، والنجاة من العصيان بفضله ورحمته.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ أي اخلصوا له العمل ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ أي تمنعون منه.

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والزموا هديه، فهو أحسن كتاب أنزل إليكم من ربكم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئه، لتتداركوا وتتأهبوا له.

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ ﴾ بالألف بدلاً من ياء الإضافة، أي، احضري هذا أوان حضورك ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ أي على تفريطي وتقصيري ﴿ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أي في جانبه، وفي حقه وطاعته ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ أي المستهزئين بدين الله وأهله، أي فرطت وأنا ساخر.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى ﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الشرك والمعاصي.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل و«أو» للدلالة على أنه لا يخلو عن هذه الأقوال، تحسراً وتعللاً، بما لا طائل تحته وقوله تعالى:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ رد من الله تعالى عليه، أي قد جاءتك آياتي، وبينت لك الهداية من الغواية، لكن تركت ذلك، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، فلا عذر لك.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه تعالى كاتخاذ الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة والهول، والذل والخزي ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾؟ أي منزل ومقام ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة؟ بلى لهم مسكن ومأوى في دار الجحيم.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ عن الشرك والمعصية أي ينجيهم من جهنم ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم وفوزهم بما يشتهون، أي ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين، ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي لا

يصيبهم الهلع والجزع، ولا تمسهم نار جهنم ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي لا يمس أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) ﴾.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي خالق جميع الأشياء، وموجد جميع المخلوقات، وكل شيء يجري من خير وشر، وإيمان وكفر، بقضاء منه، لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء.

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) ﴾.

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي لا يملك أمرها، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، لأن الخزائن لا يتصرف فيها، إلاَّ من بيده مفاتيح الخزائن، والمقاليد هي المفاتيح جمع مقلاد وهو المفتاح ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ المعنى: إن الله تعالى هو الخالق لجميع الأشياء، والمتصرف فيها كيفما يشاء، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي، والذين كفروا بآياته التكوينية والتنزيلية هم الخاسرون أشد الخسران، لأنهم باعوا آخرتهم بدنياهم.

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ أي أبعد مشاهدة هذه الآيات، غيرَ الله أعبد؟ و ﴿تأمرونِّي﴾ اعتراضٌ، للدلالة على أنهم أمروه به، لفرط غباوتهم، وقد وصفهم بالجهل، لأن الدليل القاطع، قد قام بأنه تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره، فمن عبد غيره بعد ذلك فهو جاهل.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من الرسل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض، لتهييج الرسل عليهم السلام، وإقناط الكفرة، والإيذان بشناعة الإشراك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به الناس، أو أمته الذين آمنوا به، تخويفاً لهم من عقوبة الإشراك.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ ردٌّ لما أمروه به ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ لإنعام ربك عليك بنعمة الإيمان والقرآن.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أي ما قدروا عظمته تعالى، ولا عظَّموه حق تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً، هذه الأشياء الخسيسة، ووصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ﴾ تنبيه على عظمته، وكمال قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه، على طريقة التمثيل والتخييل، فالكون كله خاضع لإرادته وتدبيره، كقولهم شابت لمة الليل، والقبضة المرة من القبض، وهي المقدار المقبوض بالكف ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزّه عن الشريك والنظير، والزوجة والولد.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات، يقومون من القبور، ينظرون إلى الحشر الأكبر.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ ليس هي التي نقعد عليها الآن، بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غير الأرض والسَّمواتُ﴾ بل هي أرض أخرى، يخلقها الله تعالى، لمحفل يوم القيامة ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل، سماه نوراً لأنه يزين البقاع، ويظهر الحقوق، كما يسمى الظلم ظلمة، أو بنورٍ خلَقه فيها، بلا توسط أجسام مضيئة، ولذلك أضيف إلى الاسم الجليل، كبيت الله، وأراد بالأرض عرصات القيامة ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الحساب والجزاء وصحائف الأعمال ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم، من الملائكة والمؤمنين ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين العباد بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب.

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاء أعمالها، من خير أو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة، أفواجاً متفرقة، والزُّمَرُ: جمع زمرة وهي الجماعة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وكانت قبل ذلك مغلقة، فتحت فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ توبيخاً، والخزنة: حفظةُ جهنم وهم الملائكة الموكَّلون بتعذيب أهلها ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾؟ أي من جنسكم من البشر ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾؟ أي وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، واستعمال لفظ يوم في أوقات الشدة مستفيض، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، لأنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل، وتبليغ الكتب ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أتونا وتلوا علينا وأنذرونا ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ وقد كنا ممن تبعه، كذَّبنا الرسل، وقلنا: ما نزَّل الله من شيء إن أنتم إلا تكذبون.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومأوى للمتكبرين، عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وقيل: سيقت مراكبهُم، إذ لا يُذهب بهم إلاّ راكبين، ﴿زُمَرًاۖ﴾ أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل، وعلوّ الطبقة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وجواب «إذا» محذوف للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحيط به البيان، وفيه دليل على أن أبواب الجنة، تفتح لهم قبل مجيئهم، كأنه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها، بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾[1] ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ من جميع المكاره والآلام ﴿طِبۡتُمۡ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي، أو طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي ادخلوا جنة النعيم والخلود، ماكثين فيها أبداً دون خروج ولا انتهاء.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه، أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ أي يتبوأ كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة، على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردها ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي نعم ثواب المطيعين الجنة.

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

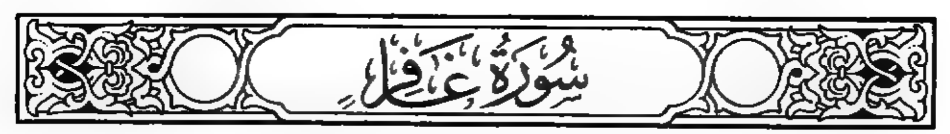
---

(١) سورة صٓ، آية: ٥٠.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ أي محدقين، محيطين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ بحافته وجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به، ملتبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذاكرين له تعالى بوصفي جلاله واكرامه، تلذذاً به، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين، و أعلى لذائذهم، هو الاستغراق في شؤونه عزَّ وجلَّ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين الخلق، بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق، والقائلون هم المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ﴾ والله أعلم بمراده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه جل وعلا تفسير سورة الزمر»

* * *



سورة غافر

مكية وآيها خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم وهو اسم للسورة.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ساتر ذنب المؤمنين، الغَفْرُ: هو الستر، أي يستر ذنب المسيء، ويتوب على التائب، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ والتوب مصدر كالتوبة ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ ذي الفضل والإنعام على العارفين، والطَّوْلُ: الفضل بترك العقاب المستحق، والإنعامُ الذي تطول مدته على صاحبه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، فهو الموصوفُ بالوحدانية، التي لا يوصف بها غيره، فيجب الإقبال على طاعته، في أوامره، ونواهيه ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فحسب، لا إلى غيره، فيجازي كلاً من المطيع والعاصي بما يستحقه.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بالطعن فيها، واستعمال المقدمات الباطلة، لإدحاض الحق كقوله تعالى بعده ﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بها، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة، فضلاً عن الطعن فيها، وأما الجدال فيها بحل مشكلاتها، وكشفِ معضلاتها، واستنباط حقائقها، وتوضيح مناهج الحق، وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال، فمن أعظم الطاعات، وأكبر جهاد في سبيل الله[1] والمقصود بالآية الأول، وهو الاختلاف والطعن في آيات الله بإثارة الشبه، كما روى مسلم عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال ﷺ: «إنما هَلَك من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب»[2] ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ أي فلا يغررك إمهالهم، وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في أسفارهم بالتجارات المربحة، فإنهم مأخوذون عن قريب.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل، وناصبوهم العداء، وهم عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم

---

(١) الجدال في القرآن نوعان: جدالٌ في تقرير الحق، وإبطال شبه الضالين، فهو جهاد وعمل ممدوح، وهو حرفة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وجدال لتقرير الباطل، وبثّ الشبه والأباطيل، وهذا هو المراد بالآية هنا، وهو جدال الكفرة في الآيات.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٦٦٦ باب النهي عن المتشابه في القرآن.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه، فيصيبوا به ما أرادوا، ويبطشوا به وبأتباعه، من تعذيب أو قتل، من الأخذ بمعنى الأسر ﴿وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا حقيقة له أصلاً ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي ليبطلوا ويزيلوا به ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر، بالهلاك السريع ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ أي فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما وجب وثبت حكمه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحزبة على رسلهم، وجب أيضاً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي كفروا بك وتحزبوا عليك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها، التي هي عذاب النار أبداً. روي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب يعني الخمر، فقال عمر لمكاتبه: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ. تنزيل الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصيرُ﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر مَنْ عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: وعدني الله أن يغفر لي، وحذَّرني من عقابه، فلم يبرح يردِّدها حتى بكى، ثم نَزَع فأحسن النزوع والترك، وحسنت توبته، فلمَّا بلغ عمر أمرَه، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زلَّ، فسدِّدوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوان الشياطين عليه»[1].

---

(١) انظر كتاب سيرة عمر بن الخطاب للشيخ الطنطاوي.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ ﴾ وهم سادة الملائكة، وحملهم إياه حفظهم وتدبيرهم له كما قال سبحانه: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ينزهون الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، حامدين له على نعمائه، والجملة استئناف مسوق للتسلية، ببيان أن أشراف الملائكة، مثابرون على ولاية الرسول والمؤمنين، ونصرتهم، كأنه تعالى يقول: إنَّ هؤلاء الكفار يبالغون في العداوة، فلا تبالِ بهم، فإنَّ حملة العرش، ومن حوله معك، ويبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ إيماناً حقيقياً، والتصريح به لإظهار فضيلة الإيمان، وإبراز شرف أهله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فإن المشاركة في الإيمان، أقوى المناسبات وأتمها، وأدعى الدواعي إلى النصح والشفقة ﴿ رَبَّنَا ﴾ على إرادة القول، أي يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أي وسعتْ رحمتُك وعلمك كل شيء، وفي وصفه تعالى بالرحمة والعلم، مزيدُ تعظيم للرب جلَّ وعلا وتقديم الرحمة، لأنها المقصودة بالذات ههنا ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾ أي الذين علمت منهم التوبة الصادقة، واتباع سبيل الحق ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ واحفظهم من نار جهنم.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ ﴾ عطف على قهم ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ أي صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في

الجملة، وإن كان دون صلاح أصولهم، أي وأدخل معهم هؤلاء، ليتم سرورهم بهم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ أي العقوبات عقوبات المعاصي، بمعنى احفظهم من فعل المعاصي، وهو تعميم بعد تخصيص ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ أي ومن تقه المعاصي في الدنيا، فقد رحمته في الآخرة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى دخول الجنة، والوقاية من نار الجحيم ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا مطمع وراءه لطامع.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ شروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار، وهم الذين يجادلون في آيات الله ﴿ يُنَادَوْنَ ﴾ أي من مكان بعيد، وهم في النار، والمنادي هم خزنة جهنم، يقولون لأهل النار، وقد مقتَ بعضهم بعضاً، بسبب الضلال والإضلال، ولعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بَعْضاً﴾[1] فيقال عند ذلك لهم: ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ المقت: أشدُّ البغض، أي لبغضُ الله الشديد لكم في الدنيا، أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ ﴾ أي حين كنتم تدعون من جهة الأنبياء ﴿ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ اتباعاً لأهوائكم، واقتداءً لأخلاّئكم المضلين.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٥٥.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي إماتتين، وإحياءتين، أو موتتين وحياتين، أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[1] وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءتين الحياة الأولى، في الدنيا، وإحياء البعث واحتج أكثر العلماء بهذه الآية على إثبات عذاب القبر كما نصت عليه السنة النبوية أيضاً ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فلما شاهدوا البعث، اعترفوا بذنبهم، ليتوسلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم، من الرجعة إلى الدنيا، كما قد صرَّحوا به، حيث قالوا: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ وهو الذي أرادوه بقولهم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي هل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ قالوه مع نوع استبعاد له، واستشعار يأس منه، وتنكير ﴿سَبِيلٍ﴾ للإبهام، أي من سبيل ووسيلة للخروج من النار؟.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم﴾ جواب لهم باستحالة ما يرجون، أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا، أي عُبد ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي منفرداً ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي بالإشراك به، وتسارعوا فيه، وحيث كان حالكم كذلك ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق، ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء، لا في ذاته،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨.

ولا في صفاته، ولا في أفعاله، والمشبِّهة استدلوا بالعلو في الجهة، والكبير في الجثة، وكل ذلك باطل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ من السحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها الدالة على شؤونه العظيمة، الموجبة لتفرده بالألوهية ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي سبب رزق وهو المطر، وإفراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات، لكونه من آثار رحمته، وجلائل نعمته، الموجبة للشكر، وصيغة المضارع في الفعلين ﴿يريكم﴾ و ﴿ينزِّلُ﴾ للدلالة على تجدد ذلك، حيناً بعد حين، فإنَّ أهم المهمات، رعاية مصالح الأديان، ومصالح الأبدان، فالله سبحانه راعي مصالح الأديان بإنزال الآيات، ومصالح الأبدان بإنزال الأرزاق، وعند حصولهما يحصل الإنعام التام، على أكمل الجهات ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة، والنعم الكثيرة، ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي من يرجع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة، ويتفكر فيما أودعه الله في تضاعيف مصنوعاته، من شواهد قدرته الكاملة، ونعمته الشاملة، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومَنْ ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاعبدوه أيها المؤمنون، مخلصين له دينكم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ذلك، وغَاظَهم إخلاصكم.

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي، ويحتمل أن يكون المراد منه الرافع، لأنه تعالى يرفع درجات الأنبياء، والأولياء في الجنة، ورافعُ درجات العلماء، فللملائكة درجاتٌ معيَّنة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾[1] وقال في حق العلماء: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والذين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي مالكه وخالقه، فهو صاحب العرش العظيم الذي لا يعلم سعته إلا الله، ذكره تعالى إيذاناً بعلو شأنه، وعظيم سلطانه، الموجبَيْن لتخصيص العبادة به، وإخلاص الدين له ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي ينزل الوحي على من شاء من خلقه، فالمراد بالروح «الوحيُ الرباني» سمي روحاً لأنه يسري إلى النفس كسريان الروح في الجسد، ذكره تعالى بعد بيان إنزال الرزق الجسماني، لأنه لا بدَّ من غذاء الروح، وغذاء الجسد، وقوله تعالى: ﴿مِن أَمرِهِ﴾ أي بسبب أمره بالخير ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي على أنبيائه ورسله، وهم الذين اصطفاهم للرسالة، وتبليغ أحكامه إلى عباده ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ وهو يوم القيامة، لأنه يتلاقى فيه أهل السماوات والأرض، والظالم والمظلوم.

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يسترهم شيء،

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٦٤.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١١.

كما جاء في الحديث «يحشرون عُراة حُفاة» ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي شيء ما من أعمالهم، وأحوالهم، الجليّة والخفية، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب، أي يقال لمن الملك؟ أي ينادي مناد لمن الملك؟ فيجيبه أهل المحشر، لله الواحد القهار، وقيل: المجيب والسائل هو الله تعالى، ينادي الله جل وعلا، لمن الملك اليوم، فيسكت الخلائق هيبةً لله وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه قائلاً: ﴿لله رب العالمين﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في ذلك اليوم ـ يوم الحشر بين العباد ـ، تجازى كلُّ نفس من النفوس، البرَّة والفاجرة، بما كسبت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سريعٌ حسابهُ، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان، كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وقد ورد في الخبر «لا ينتصف النهار حتى يَقِيل ـ أي يستريح ـ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار»(١).

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي يوم القيامة، سميت بها لأزوفها وهو القرب،

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي ١٥/٣٠١ والقيلولة هي الاستراحة وقت الظهيرة.

غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت، أَزِف الرحيلُ: أي قَرُب، والإنسانُ عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفُه، فكأنَّ قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف، ولهذا قال: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ بدل من يوم الآزفة، فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم، ولا تخرج فيستريحوا بالموت ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ أي ممتلئين همّاً وحسرة، كاظمين على الغمِّ والكربة ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي قريب مشفق أو صديق مخلص ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم، لينقذهم من العذاب.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ النظرة الخائنة بمسارقة النظر، قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمرُّ المرأة فيسارعهم النظر إليها ﴿ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ من الضمائر والأسرار.

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلاَّ وهو حقٌّ وعدل ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ أي لا يحكمون بشيء أصلاً، لأنها جمادات، والجماد لا يقال في حقه يقضي، أو لا يقضي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين، وقضائه بالحق، وهو وعيدٌ للخلق.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المكذبة كعاد وثمود ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي قدرة وتمكناً من التصرفات ﴿ وَآثَارًا ﴾ مثل القلاع الحصينة، والمدائن المتينة ﴿ فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أخذاً وبيلاً ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ يقيهم من العذاب، وينجيهم من الهول والكرب.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ما ذكر من الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الظاهرات ﴿ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي عقابه شديد، وعذابه وجيع، لا يؤبه عند عقابه عقابٌ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ وهي معجزاته ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وحجة قاهرة تدل على صدقه.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) ﴾.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فيما أظهره من المعجزات، وفيما ادعاه من الرسالة، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وبيان لعاقبة من هم أشد من كفار مكة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ كما قال فرعون (سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم) وهذا القتل غير القتل الذي وقع في ولادة موسى عليه السلام، وكان فرعون قد كفَّ عن قتل الوِلْدان، فلمَّا بُعث عليه السلام، وأحسَّ بأنه وقع ما وقع، أعاده عليهم، غيظاً وحنقاً، زعماً منه أنه يصدهم بذلك عن دين موسى عليه السلام ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في ضياع، وفي تخبُّطٍ وخسران، بعيد عن نور الإيمان.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي اتركوني لأقتل لكم موسى، يقوله لقومه كأنه يستشيرهم في قتله، وفي الطاغية خبث وجبروت، فقد كان فرعون سفاكاً للدماء لأهون الأشياء، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يثُلُّ عرشه؟ والظاهر أن فرعون لعنه الله، كان قد استيقن أنه نبي، ولكنْ كان يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجله الله بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهاً على قومه ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ تجلُّدٌ منه، وإظهار لعدم المبالاةِ بدعائه، ولكنه أخوف ما يخافه لعلمه بصدقه ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي أن يغيِّر ما أنتم عليه من الدين، الذي هو عبادة الأصنام ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أي يثير الفتن والأحداث في بلدكم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لقومه حين سمع بما يقوله من حديث قتله ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ صدَّر كلامه بإن تأكيداً له، وإظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وخصَّ اسم الرب المنبىء عن الحفظِ والتربية، وإضافته إليه وإلى قومه حثاً لهم على موافقته في العياذة، والتوكل عليه، فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً في استجلاب الإجابة، لأن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة، قوي ذلك جداً، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلاة بالجماعة، ولم يسمّ فرعون لتعميم الاستعاذة من كل طاغية متكبر.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ كان ابن عم لفرعون، آمن بموسى سراً وكان من الأقباط ﴿ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ من فرعون وملئه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ أي أتقصدون قتله ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ أي لأن يقول ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ أي وحده، من غير رويَّة وتأملٍ في أمره ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أضافه إليهم استنزالاً لهم عن رتبة المكابرة، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ لا يتخطى كذبه أحداً منكم فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾[1] أي ينزل بكم

---

(١) إنما ذكر البعض تلطفاً بهم، مبالغاً في نصحهم، وإلا فهو موقن بأن العذاب الذي أوعدهم به موسى سينزل بهم كله، وإنما لم يقل يصبكم كل العذاب، لئلا يعلموا أنه على دينه، وأنه متعصب لموسى عليه السلام.

بعضُ ما وعدكم به، إن تعرضتم له بسوء، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف، وعدم التعصب، ولذلك قدَّم كونه كاذباً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذَّاباً، لما هداه الله إلى البينات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله فلا حاجة إلى قتله، وقد عرَّض به بكلامه على فرعون، بأنه مسرف كذاب، لا يهديه الله سبيل الصواب، ما زاد موسى عليه السلام في دفع فرعون، على الاستعاذة بالله، فقيَّض الله تعالى إنساناً أجنبياً، حتى ذبَّ عنه تلك الفتنة والشر، ولقد جربت في أحوال نفسي، أنه كلما قصدني شرير بشر، لم أتعرض له، وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله تعالى، فإنه سبحانه يقيِّض أقواماً لا أعرفهم يبالغون في دفع ذلك الشر عني.

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ ﴾ أي غالبين على بني إسرائيل ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر، لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ ﴾ أي من أخذه وعذابه ﴿ إِن جَآءَنَا ﴾ بقتل موسى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ بعدما سمع نصحه ﴿ مَآ أُرِيكُمْ ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أي ما أستصوبه من قتله ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ ﴾ بهذا الرأي ﴿ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أي الصواب، يقول ذلك متظاهراً بالجَلَد والشجاعة، ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد، ولكنه كان يتجلَّد، ولولاه لما استشار أحداً!!.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ﴾ في تكذيبه والتعرض له بالسوء

﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية، كيف أهلكهم الله بشتى أنواع العذاب، بالفرق، والريح العاتية، والصيحة المدمرة.

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾.

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، وفيه مبالغة حيث نفى إرادة الظلم، ومن كان بعيداً عن مجرد الإرادة، كان عن الظلم أبعد.

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾.

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، و ﴿يوم التناد﴾ يوم القيامة، حيث ينادي فيه المجرمون بالويل والثبور.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾.

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي منصرفين من الموقف إلى النار، أو فارين عنها ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ من الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ضماً إلى تكذيب رسالته، تكذيب رسالة من بعده، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمنّي، من غير حجة ولا برهان، وجعلوه أساساً في تكذيب الأنبياء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌّ فيما تشهد به الآيات.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي بغير حجة صالحة للتمسك بها، بل بالتقليد الأعمى ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ أي جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي عظم بغضاً ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي عند الله وعند المؤمنين، وفيه ضربٌ من التعجب والاستعظام، كأنه يقول: ما أعظمه؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب، والمجادلة بالباطل، قالوا: كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة لخلق الله، والتكبر كالمضاد للتعظيم، والتجبر كالمضادّ للشفقة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي بناءً شامخاً ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي الطُّرق الموصلة إلى السماوات العُلى.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان لها، أي طرق السموات وما يؤدي إليها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في ادعائه بوجود إله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمك فيه وكان لا يرعوي بحال ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ أي سبيل الرشاد، والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، والمزيِّن هو الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ﴾[1] وقرىء بالفتح على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في خسارٍ وهلاك، ونظيره ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي خسران.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون، نادىٰ قومه ثلاث مرات، ناصحاً ومذكراً، وهو إنما تعلّم هذا من موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دللتكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال، لأنه إنما يدعو قومه إلى الظلم والطغيان.

---

(١) سورة النمل، آية: ٢٤.

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ ﴾ أي تمتع يسير، لسرعة زوالها ﴿ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ أي بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة، فضلاً من الله، وجعل العمل عمدة، والإيمان أساساً، للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه، ولهذا جاءت الجملة اسمية ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾.

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؟ كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سِنَة الغفلة، واعتناءً بالمنادى له.

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه يقول: أنا أعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والسعادة، وتدعونني إلى النار والجحيم، بسبب الكفر بالله العظيم؟ ﴿ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ ﴾ أي بشركته

له سبحانه في المعبودية ﴿عِلْمٌ﴾ أي بربوبيته، والمراد نفي المعلوم، والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد، الجامع لجميع صفات الألوهية، من كمال القدرة، والإرادة، والتمكن من المجازاة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي حقاً ثابتاً، أنه لا شك في بطلان ما أنتم عليه، من دعوة آلهتكم إلى عبادتها، لأنها جمادات، ليس لها ما يقتضي القدرة على شيء، لا تقدر على تفريج كربة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى بالموت، عطف على ما تدعونني داخل في حكمه، وكذا قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي في الضلال والطغيان، كالإشراك بالله، وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قاله لمّا توعّدوه بالقتل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي شدائد مكرهم، وما همّوا به من

إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، قيل نجا مع موسى عليه السلام ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي نزل بفرعون وقومه، وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره، ضرورة أنه أولى منهم بذلك العقاب ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي نزل بهم أسوأ أنواع العذاب، ثم فسَّره بقوله:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ المراد بعرضهم على النار إحراقهم بها، من قولهم: عُرض الأسارى على السيف، إذا قُتلوا به ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وذكرُ الوقتين للتأبيد، كأنه يقول: عذابهم مستمر ما دامت الدنيا، روى الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات، عُرض عليه مقعدهُ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك، حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة»[1] فدَّل هذا على أن العذاب مستمر، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يقال لهم: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم ﴿أَشَدَّ العَذَابِ﴾ أي هي أشد من كل عذاب نالوه قبل ذلك، وهذه الآية دليلُ على عذابٌ القبر، لأن عرض النار عليهم كان بعد الموت، وقبل البعث.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها

(١) أخرجه البخاري ٣/١٩٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٦ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، والترمذي رقم ١٠٧٢ باب ما جاء في عذاب القبر.

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم رؤساؤهم أكابر مجرميها ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي أتباعاً، كخَدَم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ بالدفع أو بالحمل؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨)﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي نحن وأنتم فيها، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا على إزالة العذاب، لرفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاءً لا مردَّ له، ولا معقب لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩)﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً، حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لحرّاسها، ووضعُ جهنم موضع الضمير للتهويل، ولبيان أنهم في أبعد دركات الجحيم ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ولو مقدار يومٍ واحد من هذا العذاب، واقتصارهم على هذا، دون رفعه رأساً، أو تخفيف قدر كثير منه، لأن ذلك عندهم شبيه بالمستحيل، ولا يدخل تحت أمانيهم.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٥٠)﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الخزنة توبيخاً ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؟ أي أما كانت الرسل تأتيكم في الدنيا بالحجج الواضحة، الدالة على سوء حال ما كنتم عليه؟ أرادوا بذلك إلزامهم، وتوبيخهم على إضاعة أوقات

الدعاء ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿قالوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾[1] ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإن الدعاء للكاذبين، مما يستحيل منَّا ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يُسمع، لأنه دعاء الكافر الفاجر، وما دعاء الكافر إلاَّ في ضياع وبطلان، وهو من تتمة كلام خزنة جهنم.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفار من صورة الغلبة امتحاناً، إذ العبرةُ إنما هي بالعواقب، وهذا الكلام مسوق من جهته تعالى، لبيان أن ما أصاب الكفرة من لوازم ما تقتضيه الحكمة، وهي نصرة الرسل الكرام وأتباعهم في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي القيامة، عبَّر عنها بذلك، للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين، بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي يوم لا ينفع المجرمين اعتذارهم لأنه باطل ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي جهنم.

---

(١) سورة الملك، آية: ٩.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ما يهتدي به من المعجزات، والصحف، والشرائع ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة التي أنزلها الله على موسى.

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ أي هداية وتذكرة، أو هادياً ومذكراً ﴿ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لذوي العقول السليمة.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[1] أو وعده الخاص بك، أو جميع مواعده تعالى ﴿ حَقٌّ ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلاً، واعتبرْ بحال موسى وفرعون ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي تداركْ لما فرط منك من ترك الأولى، فإنه تعالى كافيك في نصرة دينك، وإظهاره على الدين كله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ أي دم على التسبيح، ملتبساً بحمده.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١ ـ ١٧٣.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ في ذلك من جهته تعالى، وتقييد المجادلة بذلك، للتنبيه على أن التكلم في أمر الدين، لا بد من استناده إلى سلطان مبين، وهذا عام لكل مجادل مبطل، وإن نزل في مشركي مكة ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي ما في قلوبهم إلاَّ تكبر عن الحق، وتعظُّمٌ عن التفكر والتدبر، يمنعهم من اتِّباعك، حسداً وبغضاً ﴿ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ صفة لكبر، أي ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، ولا بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي فالتجيء إليه تعالى، من كيد من يحسدك، وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ تحقيق للحق، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه، من أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[1] ؟ وهم يعتقدون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، ولا يؤمنون بالبعث، ولما وصف الله جدالهم، ذكر لهذا مثالاً فقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ والقادرُ على الأكبر، قادرٌ على الأصغر، لامحالة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ خلق الأصغر، أسهل من خلق الأكبر، لقصورهم في النظر والتأمل، لفرط غفلتهم، واتباعهم لأهوائهم.

---

(١) سورة يسٓ، آية: ٨١.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي الغافل والمتبصر، والعالم والجاهل، والمؤمن والكافر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ أي ولا يستوي البرُّ والفاجر، ولا المحسن والمسيء ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً بمعنى: ما أقلَّ من يتذكَّر منكم؟!.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في مجيئها، لوضوح شواهدها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الكفار الذين ينكرون البعث ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقصور أنظارهم، وقصرها على ظواهر ما يحسُّون بها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ أي اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي أثبكم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين ذليلين، وإن فسر الدعاء بالسؤال، كان الأمر الصارف عنه، منزَّلاً منزلة الاستكبار عن العبادة، أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه أفضل أبوابها، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر:

«الدعاءُ هو العبادة، وقرأ ﷺ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم..﴾ الآية»[1].

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ بأن خلقه بارداً مظلماً، ليؤدي إلى ضعف الحركات، وهدوء الحواس، لتستريحوا فيه ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه مصالحكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي فضلٍ عظيم، لا يدانيه ولا يوازيه فضل ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلهم بالمنعم، واعتقادهم أن هذه النعمة ليست من الله، ثم إن النعمة إذا دامت واستمرت نسي الإنسان كونها نعمة، فإذا ابتلي بفقدان شيء منها، عَرَفَ قدرها، مثل أن يتفق لبعض الناس ـ والعياذُ بالله ـ أن يحبسه بعضُ الظلمة، في بئر عميقة مظلمة، مدة مديدة، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان، قدر نعمة الهواء الصافي، والضوء، ورأيت بعضهم يُعذَّب بمنعه عن الاستناد والنوم.

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي هو سبحانه المتفرد بالخلق ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، وهذه أخبار مترادفة، أي هو الجامع بين الربوبية، والألوهية، والوحدانية، والخالقية لكل شيء ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾؟ أي فكيف ومن أيِّ وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٤٧٩ في الصلاة، والترمذي رقم ٣٢٤٤ في التفسير، وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي مثل ذلك الإفك والصرف العجيب، يُصرف عن الإيمان كل من جحد بآياته تعالى، أيَّ آية كانت، ويُصرف عن الهدى والحق، إلى العمى والضلال!!.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أي جعل الأرض ممهدة صالحة لسكناكم، تبنون عليها الدور والقصور، وجعل السماء كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم، فضلاً منه وكرماً ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي صوَّركم أحسن تصوير، حيث خلقكم منتصبي القامة، ولم يخلقكم منكوسين كالبهائم، وجعل صوركم أحسن الصور ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾ أي اللذائذ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ أي ذلكم الفاعل لِمَا ذُكر ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي مالكهم ومربيهم، والكلُّ تحت ملكوته، مفتقر إليه في ذاته، وسائر أحواله، بحيث لو انقطع فيضه عنه ثانية، لانعدم بالكلية.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، إذْ لا وجود يدانيه، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ فَٱدْعُوهُ ﴾ فاعبدوه خاصة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ﴾ أي مخلصين الطاعة والعبادة، من الشرك الجلي، والخفي ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي قائلين: الحمد لله رب العالمين، حمداً له على نعمة الخلق والإبداع.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة المزعومة، التي تعبدونها من الأوثان والأصنام، وذلك حين طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان قيل هذا ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾ من الحجج والآيات الكونية، والتنزيلية ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بأن أخلص له ديني.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي هو جل وعلا الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة من الماء المهين، وجعل الإنسان يمرُّ في أدوار وأطوار، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى اكتمال نمو الطفل، ثم يخرج من بطن أمه طفلاً صغيراً ضعيفاً، ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل الشيخوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت الموت ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تعقلوا ما في ذلك من الحكم والعبر.

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي يُحيي الأموات، ويميت الأحياء، ويفعل الإحياء والإماتة ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه

إلى مُدَّة، وتجشم كلفة، وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾؟ تعجب من أحوالهم، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، وبسائر الكتب، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين، المجادلين في آيات الله تعالى الواضحة، الموجبة للإيمان، كيف يصرفون عن التصديق بها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها؟.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي بالقرآن والكتب السماوية، فإن تكذيبه تكذيب للكل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، كما أن صيغة المضارع في الأولى، للدلالة على تجدد المجادلة ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ من الوحي والشرائع ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند عقوبتهما.

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يسحبون بها.

﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي يُجرُّون في الماء الحار ﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي يحرقون، والمراد بيان أنهم يُعذبون بأنواع العذاب.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ ﴾.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أي أين الأوثان التي عبدتموها من دون الله تعالى؟.

﴿ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أي غابوا عنّا، بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً، جحدوا عبادتهم لحيرتهم واضطرابهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ أي الإضلال ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بسبب أنكم كنتم تبصرون وتتكبرون ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بالشرك والطغيان ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تتوسعون في البطر والأشر، وتتكبرون عن عبادة الله.

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦ ﴾.

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ أي أبوابها السبعة، قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1] ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدَّراً خلودكم فيها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي عن الحق، والتعبير بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود الدائم، فهي المأوى والمسكن لهم.

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٤٤.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧ ﴾.

﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ أي فاصبر يا محمد على إيذائهم، وعلى ضروب ما ترى منهم من بلاء، فعمّا قريب سترى ما يحلُّ بهم ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ ﴾ بتعذيبهم ﴿ حَقّٞۚ ﴾ كائن لا محالة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ وهو القتلُ والأسر﴿ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، ولن يُفلتوا من عقابنا.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ ﴾ فإنَّ عدد الأنبياء كبير مائة وأربعة وعشرون ألفاً كما ورد في الحديث الشريف، والمذكور أفراد معدودة، أي منهم من أخبرناك عن قصصهم وأخبارهم مع أممهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأحوالهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي ما صحَّ لرسول من الرسل ﴿ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي أن يأتي قومه بشيء من المعجزات، إلاَّ بأمر الله تعالى وإذنه، فإن المعجزة على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته، المبنية على الحكم البالغة، وهذا ردٌّ على كفار قريش، حيث قالوا للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً فاجعل لنا جبل الصفا ذهباً، وأجرِ لنا الأنهار في فجاج مكة!! ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ بإنجاء المحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أي المتمسكون بالباطل، فيدخل فيه المعاندون، المقترحون للمعجزات على سبيل التعنُّت.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾ قيل هي للإبل خاصة، أي خلقها لأجلكم ومصلحتكم، وقيل: هي الأزواج الثمانية «الإبل، والبقر، والغنم، والماعز» وهو الأصح ﴿ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ كالإبل ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ كالغنم والبقر.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أخر كألبانها، وأوبارها، وجلودها ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ بحمل أثقالكم من بلدٍ إلى بلد ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر، تحملون أنتم وذرياتكم، وإنما قرن سبحانه بين الإبل والسفن، لما بينهما من المناسبة المتينة، حتى سميت الإبل «سفن البر».

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته، ووفور رحمته ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي أيَّ آية من تلك الآيات الباهرة ﴿ تُنكِرُونَ ﴾؟ فإن كلاًّ منها من الظهور، بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟

أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كانوا أكثر عدداً من كفار مكة، وأقوى منهم قوة ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي أيَّ شيء أغنى عنهم مكسوبهم؟ لم تعصمهم قوةٌ، ولا كثرةٌ، ولا عمرانٌ، يعني لو ساروا لعرفوا، أن عاقبة المتكبرين المتمردين، ليست إلا الهلاك، مع أنهم كانوا أكثر عَدداً وعُدداً.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٨٣)﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي العلم بأمور الدنيا الخالي عن نور الهداية والوحي وهو ما لهم من العقائد الزائغة، وتسميتها علماً للتهكم بهم، والمراد بفرحهم ضحكهم واستهزاؤهم بهم، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ (٨٤)﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ أي فلما رأوا العذاب آمنوا، وخضعوا، واستسلموا، وقالوا آمنا بأن الله واحد، وكفرنا بما كنا به مشركين، يعنون بذلك الأصنام والأوثان، التي عبدوها من دون الله تعالى.

﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٨٥)﴾.

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ لامتناع قبوله حينئذ، لأن النافع هو الإيمان الاختياري، لا الاضطراري ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ أي سنَّ الله تعالى ذلك، سنة ماضية في العباد ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس والعذاب. يا من تقاصرت عن الإحاطة بجليل أسرار كبريائه أفهام المتفكرين، لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المخذولين والمحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وصلوات الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»

* * *



مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * تَنزِيلٌ﴾ المراد به المنزَّل، والتعبير عن المفعول بالمصدر، مجاز مشهور، يقال: هذا الدرهم ضربُ السلطان أي مضروبه، أي هذا القرآن العظيم منزَّل ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته الأكوان، وعمَّ فضله جميع الخلق من إنس وجان، ونسبة التنزيل إلى «الرحمن الرحيم» للإيذان بأنه محقق للمصالح الدينية، والدنيوية، وواقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ يعني أنه كتاب منزلٌ من ربّ العزَّة والجلال، يمقتضىٰ رحمته للعباد.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي ميزت بحسب النظم والمعنى، في أساليب مختلفة، ومعان متغايرة، من أحكام، وقصص، ومواعظ، وأمثال، ووعد، ووعيد، وبالجملة فمن أنصف، علم أنه ليس في بدء الخلق، كتاب اجتمع

فيه من العلوم المختلفة، مثل ما في القرآن الكريم ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلسان العرب قرآناً عربياً، واضحاً جلياً، معجزاً في فصاحته وبيانه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم، وقيل: لأهل العلم لأنهم هم المنتفعون به.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ لأهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل المعصية ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتأمل، حتى يفهموا جلالة قدره، فيؤمنوا به.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ لرسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإيمان، والقرآن ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم، وأصله الثقل ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل، وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن إدراك الحقّ وقبوله ﴿فَاعْمَلْ﴾ أي على دينك، وفي إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي مستمرون على ديننا، وقيل: في إبطال أمرك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تلقينٌ للجواب عنه ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لستُ من جنس مغايرٍ لكم، حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين، بل إنما أنا

بشر مثلكم مأمور بما أُمرتم به ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد، جامع بيني وبينكم، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ تعالى بالتوحيد، والإخلاص في العمل ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة، وسوء العمل ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك، إثر ترغيبهم في التوحيد، والاستقامة في العمل.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي هلاك ودمار للمشركين، وَصَفهم بذلك لزيادة التحذير عن منع الزكاة، حيث جعل من أوصاف المشركين أنهم لا يؤتون الزكاة، وقيل معناه: لا يفعلون ما يزكِّي أنفسهم، وهو الإيمانُ، والطاعة.

وسعادة الإنسان مربوطة بأمرين: ١ ـ التعظيم لأمر الله. ٢ ـ والشفقة على خلق الله.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي وهم منكرون للآخرة، جاحدون للقاء الله، لا يؤمنون بالبعث والنشور. أثبت تعالى الويل، لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة.

١ ـ أن يكون مشركاً وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وويلٌ للمشركين﴾.

٢ ـ كونه ممتنعاً من الزكاة، وهو ضد الشفقة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾.

٣ ـ كونه منكراً للقيامة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وإذا كان الإنسان في هذه المراتب الثلاثة؛ كان في نهاية الجهل والضلالة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴾ أي لا يمنُّ به عليهم، لأنه تعالى لمَّا سمَّاه أجراً، فإن الأجر لا يوجب المنة، وقيل: ﴿غير ممنون﴾ أي دائم غير مقطوع، ومن إكرام الله للمؤمن، أنه إذا مرض، أو عجز عن الطاعة، كتب له أجره كاملاً، لما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان العبد يعمل عملاً صالحاً، فشغله عنه مرضٌ، أو سفر، كَتَبَ الله تعالى له كصالح ما كان يعمل، وهو صحيح مقيم»[1].

﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ ﴾.

﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم، و «إن»، و «اللام» لتأكيد الإنكار، وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بالذي خلق الأرض﴾ لتعظيم شأنه تعالى، واستعظام كفرهم، والتعجيب منه، فكأنه يقول مَنْ قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يُعقل الكفر به، وإنكار قدرته على الحشر، وبعثة الأنبياء؟ وكيف يُعْقل جعلُ هذه الأصنام الخسيسَة نِدّاً له؟ وقوله تعالى: ﴿في يومين﴾ أي حكم وقدَّر بأنها ستوجد في مقدار يومين ﴿ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ﴾ أي وتجعلون له أنداداً، والحال أنه لا يمكن أن يكون له ندٌّ واحد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ذلك العظيم الشأن، الذي فعل ما ذكر ﴿ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي خالق جميع الموجودات.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٩٥ وأبو داود في الجنائز رقم ٣٠٩١.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي كائنة من فوقها، وهي الجبال، مرتفعة عليها، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى خالق، وحافظ، وما ذاك إلا الله رب العالمين ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي قدَّر أن يكثر خيرها، بأن يخلق أنواع الحيوانات، وأصناف النباتات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي حكم بالفعل بأن يوجد لأهلها، من الأنواع المختلفة، أقواتها المناسبة لها، على مقدارٍ معيَّن، تقتضيه الحكمة ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي قدَّر حصول الأمور المذكورة في الأرض في يومين، فصار مع اليومين الأولين في أربعة أيام ﴿سَوَاءً﴾ أي تلك الأيام الأربعة، أيام كاملة مستوية، لا زيادة فيها ولا نقصان ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي لأجل من سأل، في كم خُلقت الأرض وما فيها؟.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ شروع في كيفية التكوين، إثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها، لاعتنائه تعالى بأمر المخاطبين، وترتيب معاشهم، قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر، ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي دخان مرتفع من الماء وهو بخار الماء المتصاعد من الأرض حين خُلقت، كما ذكره الحافظ ابن كثير ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ التي قدر وجودها، ووجود ما فيها ﴿ائْتِيَا﴾ أي كونا على وجه معين، وفي وقت مقدر، أو استجيبا لأمري طائعتَين أو كارهتين، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك أي طائعتين أو كارهتَين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي منقادين، تمثيل لكمال تأثرهما بالذات وحصولهما كما أُمرتا به[1].

---

(١) لنقف وقفةً قصيرة عند هذا التعبير المعجز، فإنَّ فيه سراً عجيباً، يفوق الخيالَ في =

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ تفصيل لتكوين السماء المجمل، أي خلقهن خلقاً محكماً، وأتقن أمرهنَّ، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي في وقتٍ مقدَّر بيومين، فكان خلق الكل في ستة أيام، حسبما نصَّ عليه في مواضع من التنزيل ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي خلق في كل منها من الملائكة والنيرات، وغير ذلك، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وأوحى إلى كل منها ما يليق بها من التكليف ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ من الكواكب، فإنها ترى متلألئة عليها، كأنها فيها، والالتفات إلى نون العظمة للاعتناء بالأمر ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المسترقة للسمع حفظاً ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر ﴿ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ المبالغ في القدرة والعلم، وما أحسن هذه الخاتمة، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة تامة، وعلم محيط.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.

= روعة الجمال، فالآية الكريمة، تشير إلى انقياد هذا الكون إلى خالقه ومبدعه، انقياد العبد لسيده، والجندي لقائده، وقد عبَّر عن هذه الطاعة والاستسلام، بتمثيل رائع بديع، يجعل من الجماد وكأنه إنسان عاقل، يؤمر فيلبي الأمر، ويُكلف بشيء فيسمع ويطيع، على حدِّ قول العرب: «قال الحائط للمسمار لِمَ تشقّني؟ قال: سلْ من يدقني» والغرضُ من الآية هنا، تصوير نفوذ قدرته سبحانه في المخلوقات، بصورة العبد المطيع، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيده، فكلٌّ ما في الكون من شمسٍ، وقمر، ونجوم، وجبال، وبحار، وأنهار.. إلى آخره مستسلمٌ لأمر الله، منقادٌ لحكمه وتدبيره، ويمكن أن يخلق الله في السموات والأرض القدرة على الكلام والجواب، إن حملنا اللفظ على الحقيقة لا على المجاز، لأن الله على كل شيء قدير، فكما أنطق الإنسان ينطق الجماد والحيوان!.

﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلۡ ﴾ لهم ﴿ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ أي عذاباً هائلاً، شديد الوقع، كأنه صاعقة، مثل صاعقة عاد وثمود.

﴿ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤ ﴾.

﴿ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي حين جاءتهم الرسل يدعونهم إلى الايمان، ويخوفونهم من الكفر والإشراك ﴿ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾أي من جميع جوانبهم، واجتهدوا بهم من كل جهة، من جهات الإرشاد والنصيحة، تارة بالرفق، وتارة بالعنف، وتارة بالتشويق، وأخرى بالترهيب، والتحذير عما سيحيق بهم، من عذاب الدنيا والآخرة ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا ﴾ أي إرسال الرسل ﴿ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ ﴾ أي لأرسلهم، بدلكم، فآمنا بهم، وأنتم بشر مثلنا، فكيف نصدِّق أن الله أرسلكم؟ ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ على زعمكم، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿ كَٰفِرُونَ ﴾ لا نؤمن بكم ولا بما جئتم به.

﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥ ﴾.

﴿ فَأَمَّا عَادٞ ﴾ شروع في حكاية ما يخصُّ كلَّ واحدة من الطائفتين، من الجناية والعذاب، أي فأما قبيلة عاد الطغاة الفجرة ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي فتعظَّموا فيها على أهلها، بغير استحقاق للتعظيم والولاية ﴿ وَقَالُواْ ﴾ معتزين بشدتهم وقوتهم، ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾؟ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام، وشدة القوة ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ أي أغفلوا، ولم ينظروا، ولم

يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي قدرة، فإنه تعالى قادر بالذات قوي على ما لا يقدر عليه غيره، ومفيض القوى على الغير ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي أنكروها وهم يعرفون حقيقتها، كما ينكر الإنسان الوديعة، فجمعوا بين الاستكبار وبين الإنكار، فكانوا فسقة كفرة[1].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي باردة تهلك، من الصِرِّ وهو البرد، أي تهلك من شدة بردها، أو شديدة الصوت، تصوِّت في هبوبها، من من الصرير، قيل: إنها الدبور ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات غير مباركات، جمع

---

(١) روي أن أبا جهل قال ذات يوم في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فأتانا بخبره، فقال «عتبة بن ربيعة»: والله ما يخفى عليَّ شيء من هذه، فأرسلوني إليه فأنا آتيكم بحقيقة أمره، فأرسلوه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فيم تشتم آلهتنا وتضللنا؟ فإن كنت بما جئت به تريد الرئاسة، عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد النساء زوجناك عشر نسوة من أجمل بنات قريش - ورسول الله ﷺ ساكت - فلما فرغ عتبة قال له عليه السلام: أفرغتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع - بسم الله الرحمن الرحيم - ﴿حمٓ. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته...﴾ إلى قوله: ﴿فإن تولوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ وأنشده الرحم أن يكف عما يقول، فقد خاف على نفسه الهلاك، ولم يرجع إلى قومه وهم ينتظرون خبره، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ - أي دخل في دين محمد - فجاؤوا إلى منزله وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا؟ فقال: والله لقد كلمته فسمعت منه كلاماً ما هو بشعر، ولا سحر، ولا كهانة، فناشدته الرحم أن يكف، وتعلمون أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب!!.

نحسة من نَحِس نَحْساً، نقيض سَعِد سَعْداً قيل: كن آخر شوال من يوم الأربعاء ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو الذل والاستكانة، لأنهم استكبروا، فقابلهم الله تعالى بالخزي والهوان، والذل والصَّغار ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الحقيقة وصف للمعذَّب، وقد وصف به العذابُ للمبالغة ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

> ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ فدللناهم على الحق، بنصب الآيات التكوينية، وإرسال الرسل ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ الهُون: الهَوَانُ، وصف به العذاب مبالغة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم الضلالة على الهدى.

> ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وهم صالح عليه السلام ومن آمن من قومه، من تلك الصاعقة.

> ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ التعبير عنهم بأعداء الله، لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم، من ألوان العذاب، والمراد من النار موقف الحساب، إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية، والتعبير عنه بالنار، للإيذان بأنها عاقبة حشرهم، وأنهم على شرف دخولها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، ثم يساقون إلى جهنم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضروها، وشاهدوا أهوالها وسعيرها ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والعصيان، بأن ينطقها الله تعالى، وعن ابن عباس المراد بشهادة الجلود: شهادة الفروج، وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ﴾ فإنَّ ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً، وأجلب للخزي مما يشهد به السمع والبصر.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ أي أنطق كل ناطق، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فإن من خلقكم أولاً وأعادكم ثانياً، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم، وينبغي أن يعلم المؤمن، أن عليه من جوارحه رقيباً، يشهد عليه يوم القيامة.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾ أي يقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع: ما كنتم تستخفون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش، مخافة ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ بذلك، كما كنتم تستخفون من الناس مخافة الافتضاح عندهم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ

ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من القبائح المخفية، فلا يظهرها في الآخرة، ولذا اجترأتم على ما فعلتم.

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ أي أهلككم وأذلكم ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ بسبب ذلك الظن السوء ﴿مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي من الذين خسروا سعادتهم وأهليهم، وذلك تمام الخسران والشقاء.

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ أي محل سكن وإقامة، ومنزل دائم لهم في جهنم ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ أي يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبونه من إرضاء الله عزَّ وجل ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ أي المجابين إليها المرضيّ عنهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[1] يعني أنهم إذا أرادوا أن يرضوا ربهم، فما هم من المجابين إلى ذلك فقد مضت الدنيا دار التكليف والابتلاء، وقبول الاعتذار.

﴿۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢١.

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا﴾ أي هيأنا ويسّرنا ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة في الدنيا ﴿قُرَنَآءَ﴾ جمع قرين أي أخداناً من الشياطين، يستولون عليهم استيلاء المالك لعبده ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمور الدنيا، واتباع الشهوات ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمور الآخرة، حيث أخبروهم أن لا بعث ولا حساب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِين﴾[1] ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب، وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي كائنين في جملة أمم، من الأشقياء المجرمين ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضتْ ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ على الكفر والعصيان، كدأب هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للفريقين.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لأنهم علموا أن القرآن كلام بليغ مؤثّر، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط فهمه بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق، فدبّروا مكيدة لمنع الناس عن استماعه ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته لتشوشوا على القارىء ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونه على دينه، قال ابن عباس: «قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول».

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم، وعن ابن عباس: عذاباً شديداً في الدنيا، وأسوأ العذاب في الآخرة.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر، أسوأ الجزاء ﴿ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ﴾ أي جزاء معدٌّ لأعدائه ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ هو نار جهنم، وهو عطف بيان للجزاء ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ أي لهم في النار، دار مخصوصة هم فيها خالدون ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا، ويلغون فيها.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ يعنون فريقي الشياطين، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي من الإنس والجن، والشياطين على ضربين: جنّي، وإنسي، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ﴾[1] ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي ندوسهما بالأقدام انتقاماً منهما وتشفياً ﴿ لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي ذلاً ومهانة، جزاء إضلالهم إيانا.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي قالوه اعترافاً بربوبيته، وإقراراً بوحدانيته ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ أي ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، واستقاموا على توحيد الله وطاعته. واعلم أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلمِ اليقيني، والعملِ الصالح، ورأسُ المعارف اليقينية ورئيسُها: معرفةُ الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله﴾ ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً، غير مائل نحو الإفراط والتفريط، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثم استقاموا﴾ وكان الحسن البصري رحمه الله إذا تلا هذه الآية، قال: «اللهمَّ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة» ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ من جهته تعالى بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام، كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء، بتزيين القبائح، وقيل: تتنزل عند الموت بالبشرى، وإذا قاموا من قبورهم، والأظهر العموم ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ أي إن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبداً ﴿ وَأَبْشِرُوا۟ ﴾ أي سروا ﴿ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، وهذا من بشاراتهم عند الموت، والقبر، والبعث، وللملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات، كما أن للشياطين تأثيرات بإلقاء الوساوس، وولايةُ الملائكة باقية تصير بعد الموت أقوى وأبقى، لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أعوانكم في أموركم، نلهمكم الحق، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم في الدنيا، ولعل ذلك عبارة عما

يخطر ببال المؤمنين، المستمرين على الطاعة ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ نمدكم بالشفاعة، ونتلقاكم بالكرامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من فنون الطيبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تتمنون من أنواع اللذائذ والشهوات، وما تطلبه نفوسكم من كل ما يخطر ببالكم.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب العزة والجلال، وما يعطونه مما لا يخطر ببالهم، كالنزل للضيف، فما ظنك بما بعده من الألطاف؟.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته، بقوله وفعله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم، واتخاذ الإسلام ديناً له.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، في الآثار، والأحكام، والعاقبة ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، كالإحسان إلى من أساء، فإنه أحسن من العفو ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي إذا فعلت ذلك، هنا صار عدوُّك المشاق، مثل الولي الشفيق، قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان عدواً فصار ولياً بالمصاهرة، واللفظ يقتضي العموم.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي هذه الخصلة، التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ، ونحو ذلك ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير، وكمال النفس.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ أي وإن صرفك الشيطان عما وُصِّيت به، من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ باستعاذتك ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِنِيَّتِك وأفعالك.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة ﴿ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ كل منها مخلوق من مخلوقاته، مسخَّرٌ لأمره ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما من مخلوقاته مثلكم، وإنما قال ذلك، لأن أناساً يسجدون لهما ويعبدونهما من دون الله، وهم عُبَّاد الشمس ﴿ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة، أي واسجدوا للخالق الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادات، فلا بد من تخصيصه به سبحانه.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الامتثال بالأمر ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي دائماً ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ أي لا يفترون ولا يملون.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي يابسة، مستعارٌ من الخشوع وهو التذلل ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات، وقيل: تزخرفت ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ بالبعث ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة، لا يُعجزه شيءٌ من الأرض ولا في السماء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة، فالملحد هو المنحرف، وفي العرف اختص بالمنحرف عن الحقّ إلى الباطل، والمنحرف عن الدين ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعن فيها، والتحريف، والتأويل الباطل ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي لا يغيب أمرهم عنّا، وهو تهديد فيجازيهم بإلحادهم ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾ الاستفهام بمعنى التقرير ﴿أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ من الأعمال المؤدية إلى الإلقاء في النار، وفيه تهديد شديد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي كذبوا بالقرآن لأول وهلة، دون

أن يفكرّوا في آياته وإعجازه، وخبر «إن» محذوف للتهويل، كأنه قال: سيجازون جزاءً لا يكاد يوصف لشدته وهوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي كثير المنافع، عديم النظير، منيع لا تتأتى معارضته.

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، وقيل: معنى (الباطل) الزيادةُ أو النقصان ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أي هو منزَّل من إله حكيمٍ في تشريعه، حميد أي محمود من عباده وخلقه، مستحق للحمد والثناء.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ تسلية للرسول ﷺ عما يصيبه من أذية الكفار، أي ما يُقال في شأنك وشأن ما أُنزل إليك، إلا مثل ما قد قيل في حق الرسل من قبلك، مما لا خير فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ لأنبيائه وأوليائه المؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ لأعدائهم، ففوِّضْ أمرك إليه، فإنه ينتقم لك منهم.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لكان لهم أن يقولوا: كيف أنزلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ أما لمّا أنزلناه بلغة العرب وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن

قلوبكم في أكنة، وفي آذانكم وقر؟ ﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي هلاّ بينت آياته بلسان نفقهه؟ ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ والمعنى: أكلام أعجمي، والرسول عربي؟ أو المرسل إليه عربي؟ فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أي وجه جاءتهم، وجدوا فيها متعنتاً وطعناً يتعلَّلون به ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ هذا القرآن هادٍ للمؤمنين، يهديهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وشفاء لهم من داء الجهل والضلالة، وكلٌّ من آتاه الله تعالى طبعاً مائلاً إلى الحق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين، فإن القرآن يكون في حقه هدى وشفاء، أما كونه هدى فلأنه دليل على الخير، ويرشد إلى كل السعادات، وأما كونه شفاء فإنه شفاء له من مرض الكفر والجهل، وأما من كان في بحر الخذلان، وتائهاً في مفاوز الحرمان، ومشغوفاً بمتابعة الشيطان، كان هذا القرآن في آذانه وقراً، وعليه عمى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي ظلمة وشبهة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هذا تمثيل لهم في عدم استماعهم له، بمن ينادي من مسافة نائية، لا تُكادُ تُسْمَعُ من مثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ تسلية للرسول ﷺ ببيان أن الاختلاف في شأن الكتب، عادة قديمة للأمم، غير مختص بها قومك، أي وبالله لقد آتينا التوراة لموسى، فاختلف فيها، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في أمتك المكذبة، وهي الوعد بتأخير عذابهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين، كما فعل بمكذبي الأمم السالفة

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي موقع لهم في الشك والاضطراب.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فَلِنَفْسِهِ ۖ﴾ فنفعُ عمله لنفسه، لا لغيره ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ ضرره لا على غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله بتنزيل ترك إثابة المحسن، وتعذيبه بغير إساءة، منزلة الظلم، وما كان الله ليعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يؤاخذه إلاّ بجرمه، لأنه منزه عن الظلم.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ﴾ أي إليه سبحانه وحده، معرفة وقت القيامة، لا يعلمها إلا الله جل وعلا ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كِمٍّ بالكسر، وهو وعاءُ الثمرة، والجمع لاختلاف الأنواع ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملها وجنينها في بطنها ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي تلد حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ﴾ أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع، ملابساً بشيءٍ من الأشياء، إلا ملابساً بعلمه المحيط، أي يعلم سبحانه بجزئياته، مثلاً عدد أيام الحمل، وساعاته، وأحواله من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، ونحو ذلك، فإن قيل: أليس إن المنجمين قد يتعرفون كثيراً من أحوال العالم؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم، لا يمكنهم القطع، وإنما هم يظنون، والمذكور في هذه الآية الجزمُ واليقين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي بزعمكم، كما نص في قوله تعالى: ﴿أين

شركائي الذين زعمتم﴾ وفيه تهكُّمٌ بهم ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي أخبرناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لمَّا عاينا الحال، وما منا أحدٌ إلاَّ وهو موحِّدٌ لك.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾ أي يعبدون ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي مهرب.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ﴾ أي لا يملُّ ولا يفتر ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر، بدليل قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي من طلب السعة في النعمة، وأسباب المعيشة الهنيئة ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي العسر والضيق ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده، واليأسُ من رحمة الله كفر.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٠﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ بتفريجها عنه ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي حقي أستحقه، لما لي من الفضل والعمل ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ على تقدير قيامها ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له، وأن نعم الآخرة كذلك ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقية ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ لا يقادر قدره، ولا يُبلغ كنهه.

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ۝٥١ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ ﴾ عن الشكر ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ أي ذهب بنفسه، وتباعد بكليته، تكبراً وتعظماً، والجانب مجاز عن النفس، ويجوز أن يراد به ثنى عِطْفه ويكون عبارة عن الغطرسة والكبرياء ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴾ أي كثير، مستعار مما له عرضٌ متسع، للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل، إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله؟.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢ ﴾.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾؟ أي من أضل منكم؟ وضع الموصول موضع الضمير، تعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾.

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ الدالة على حقيته وكونه من عند الله ﴿ فِي ٱلۡأٓفَاقِ ﴾ هو ما أخبرهم به الرسول ﷺ من الحوادث الآتية، وآثار النوازل الماضية، وما يسَّره الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب، على وجه خارق للعادة فإن قيل: إن استيلاء بعض البلاد، لا يدل على كون المستولي محقاً؟ قلنا: إنا لا نستدل بمجرد الاستيلاء، بل نستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر، فهذا إخبار

عن الغيب ومعجزة ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي وفيما حلَّ بين أهل مكة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ القرآن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لا ريب فيه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾؟ كلام وارد لتوبيخهم، أي أوَلم يكفهم برهاناً على صدقك، ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي ألم يغنهم عن إراثة الآيات المبّينة لحقيّة القرآن، ولم يكفهم في ذلك، أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء؟.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ﴾ أي في شك عظيم من ذلك، يشكُّون بالبعث والجزاء ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي عالم بجميع الأشياء، يعلمها بتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم لا محالة، والله أعلمَ بمراده، وأسرار كتابه، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خاتم النبيين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»

* * *



مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ اسمان للسورة ولذلك فُصِل بينهما، وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائر الحواميم.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من الآيات، أوحى الله إليك في سائر السور، وإلى مَنْ قبلك من الرسل، لدعوة الناس إلى التوحيد، وما فيه صلاح العباد، والنبوة والمعاد، فلا تكن في شك من أمر الدين.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ استئناف مقرر لعزته وحكمته تعالى، أي جميع ما في الكون خلقه وملكه، وهو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالعظمة والكبرياء.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾.

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ ﴾ أي يتشقّقن من عظمة الله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من دعاء الولد، كما في سورة مريم[1] ﴿ مِن فَوۡقِهِنَّۚ ﴾ أي يُبتَدَأ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها لما أن أعظم الآيات من تلك الجهة ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ ﴾ ينزهونه عما لا يليق به متلبّسين ﴿ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي يطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين، كما في آية أخرى ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ فهو عام يراد به الخاص، وقيل: هو على العموم، طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إذ ما من مخلوق، إلا وله حظ عظيم، من رحمته تعالى.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ أي شركاء وأنداداً ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازي بها ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ أي لست بموكَّل بهم، أو بموكول إليك أمرهم، وإنما وظيفتك الإنذار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾.

---

(١) وذلك في قوله سبحانه: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدّاً. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً. وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً..﴾ الآيات.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء البديع ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي أهلها وهي مكة، سميت بهذا إجلالاً لها، لأن فيها البيت، والعرب تسمي أصل كل شيء أمّه ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني بلاد الأرض كلها، من العرب والعجم، كما صرح به قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً للنَّاس﴾ الآية ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ أي يوم القيامة، لأنه يومٌ يجمع فيه الخلائق ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف، ثم يفرقون بعد الحساب إلى النعيم، أو الجحيم.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ من يشاء أن يدخله فيها، ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه، ومشيئته تعالى تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لاستعداده، فمن علم منه استحقاق الهدى يهديه، ومن علم منه اختيار الضلالة يضله، ولا جبر ولا إكراه على أحد ولا إجبار، بل هناك محض الاختيار ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] ولهذا قال سبحانه ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ للإيذان بأن الإدخال في العذاب بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، والمعنى: لو شاء الله مشيئةَ قدرةٍ، لقَسرهم على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة، وبنى أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته، وتُرِك الظالمون بغير ولي ولا ناصر، لسوء اختيارهم.

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٩.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي بل اتخذوا متجاوزين الله، أولياء من الأصنام والأوثان؟ ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن أرادوا ولياً، فالله هو الولي، لا وليَّ سواه ﴿ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ دون من لا يقدر على شيء أصلاً.

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون، من أمور الدين أو أمور الدنيا ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى الله﴾ أي فالحكم فيه إلى الله جلَّ وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بقضاء رسوله ﷺ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الحكيم العظيم الشأن ﴿ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ أي مالكي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي في مجامع أموري خاصة، لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع إليه في كل ما ظهر لي من معضلات الأمور، لا إلى أحد سواه.

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾أي خالقها ومبدعها ابتداءً على غير مثالٍ ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ أي زوجات من الآدميات ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام أصنافاً، وذكوراً وإناثاً، ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي يكثركم بسببه بطريق التوالد، ولذلك خلق الذكر والأنثى، من الذرء بمعنى البث والنشر ﴿فِيهِ﴾ أي فيما ذكر من التدبير، فإنَّ جعل الناس والأنعام أزواجاً، يكون بينهم توالد، كالمنبع للتكثير

للنسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس مثله، تعالى شيء، في شأنٍ من الشؤون، التي من جملتها هذا التدبير البديع، والمراد من مثله ذاته تعالى، كما في قولهم: «مِثلُكَ لا يفعلُ كذا» على قصد المبالغة، في نفيه عنه، أي ليس كذاته شيء جلَّ وعلا ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المبالغ في العلم، بكل ما يُسمع ويُبصر، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلىٰ﴾ فمعناه: وله الوصف الأعلى، الذي ليس لغيره مثله، وهو وصف الجلال والكمال.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح أرزاق العباد ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء، ويُضيّق على من يشاء ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في الإحاطة به.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿۞ شَرَعَ﴾ أي بيّـن وأظهـر ﴿لَكُم﴾ الخطـاب للمسلمين مـن أمـة محمد ﷺ، ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، على أن تخصيصهم بالذكر لعلو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليهم، لاتفاق الكل على نبوة بعضهم، فما من نبي إلا مأمور بما أمروا به، وهو عبارة عن التوحيد، وديـن الإسلام، ومـا لا يختلـف بـاختـلاف الأمـم والأعصـار، ولـم يـرد الشرائع، فإنها مختلفة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَاجًا﴾[1] ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي دين الإسلام، الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي لا تختلفوا فيه كما اختلف اليهود والنصارى فضلُّوا وزاغوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام، واستبعدوه حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[2] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد، من هو أهل له، وفيه استعداد للخير والإيمان ﴿مَن يَشَاءُ﴾ أن يجتبيه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي يُقبل إليه حيث يمده بالتوفيق والألطاف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بأن الفرقة ضلال، شروعٌ في بيان أهل الكتاب، عقب الإشارة إلى أحوال أهل الشرك، وعن ابن عباس رضي الله عنه هم «اليهود والنصارى» أي ما تفرقوا في الدين، الذي دُعوا إليه، إلاَّ من بعدما جاءهم العلم بحقيَّته، بما شاهدوا في رسول الله ﷺ والقرآن، من الدلائل الحقة، حسبما وجدوه في كتابهم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وحمية، وطلباً للرياسة، لا لأن لهم شبهة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهال ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل الله لهم العقوبة في الدنيا، وأهلكهم بعذاب الاستئصال، لاستيجاب

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤٨.

(٢) سورة صٓ، آية: ٥.

جناياتهم لذلك ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن كفار مكة الذين أُورثوا القرآن، من بعد ما أُورث أهل الكتاب كتابهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع لهم في الريبة، ولذلك لا يؤمنون به.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك، الذي حدث لأهل الكتاب ﴿فَٱدْعُ﴾أي الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن تفرقهم، وكونهم في شك في الدين، سبب للدعوة إليه ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وأوحي إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيَّ كتاب من الكتب المنزلة، لا كأولئك الضالين الذين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة، والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم إذا تخاصمتم إليَّ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا، لا يتخطانا جزاء أعمالنا، ثواباً كان أو عقاباً ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا محاجة ولا خصومة، لأن الحق قد ظهر وبان، كالشمس في رابعة النهار، ولا يبقى للمحاجة حاجة، سوى المكابرة ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم، فإن قيل: كيف يليق بهذه المجاوبة، ما فُعل بهم من القتل والإجلاء؟ قلنا: هذه كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين، المتفق على صحته بين كل الأنبياء، وفيه التوحيد، والإقرار بنبوة الأنبياء، والتصديق بالكتب المنزلة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحينئذ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ ﴾ أي في دين الله ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ أي من بعد ما استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، والمراد بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: كتابنا قبل كتابكم، ونبيُّنا قبل نبيِّكم، ونبوّة موسى والتوراة، معلومة بالاتفاق، ونبوّة محمد ليست متفقاً عليها ﴿ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ أي زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجاراة معهم على زعمهم الباطل ﴿ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴾ أي عليهم غضب من الرحمن، وعذاب شديد في الآخرة.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ملتبساً به في أحكامه وأخباره وتشريعه ﴿ وَٱلۡمِيزَانَۗ ﴾ والشرع العادل الذي توزن به الحقوق، ويسوى بين الناس ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ ﴾ أي أيّ شيء يجعلك عالماً ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قَرِيبٞ ﴾ أي قريب مجيئها، والمعنى: إنها على جناح الإتيان فاستمسك بالكتاب، واعمل به، وواظب على العدل.

﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ ﴾ استعجال إنكار واستهزاء ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا ﴾ أي خائفون منها ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي يجادلون فيها، من

المِرْية بمعنى الشك ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فإن قيام الساعة غير مستبعد، عن قدرة الله تعالى، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي بليغ البر بهم، يفيض عليهم من فنون ألطافه، ما لا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي يرزقه كيف يشاء، فيخصُّ كلاً من عباده، بنوع من البر، على ما تقتضيه مشيئته المبنيَّة على الحكم البالغة ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويستعمل في ثمرات الأعمال، أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ نضاعف له ثوابه، إلى سبعمائة فما فوقها، ونزد له في تسهيل سبيل الخيرات والطاعات ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو متاعها وطيباتها ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ أي شيئاً منها، حسبما قسمنا له، لا ما يريده، كما قال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، فليس له حظ من الثواب، والنعيم في الآخرة.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾؟ أي بل لهم شركاء من الشياطين، والهمزة

للتقرير وللتقريع ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ كالشرك والعصيان، وقيل: شركاؤهم، أي أوثانهم، وإضافتها إليهم، لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها وهي جمادات إسنادٌ مجازي، لأنها سبب ضلالهم وافتتانهم، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَاسِ﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير الجزاء، لعُجِّلت لهم العقوبة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ﴾ أي بين المؤمنين والكافرين، بتعجيل العقوبة للكفار ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب موجع مؤلم يوم القيامة، والعذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة، والخطاب لكل أحد ممن يصلح له ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ﴾ أي وباله لاحقٌ بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ أي مستقرون في أطيب بقاعها، وأعلى منازلها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ أي لهم ما يشتهون من فنون المستلذات، حاصل لهم عند رب كريم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من حال المؤمنين، أي ذلك النعيم ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك الذي أكرمهم الله به، هو النعيم الأكبر، الذي لا يُقادر قدرُه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ أي يبشرهم به ربهم ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ على ما أنا من التبليغ والبشارة ﴿أَجۡرًا﴾ أي نفعاً ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ أي إلاّ أن تودُّوني لقرابتي منكم، وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجراً قطُّ، لكن أسألكم المودة في القربى ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ أي ومن يكتسب حسنة، نزد له في الحسنة حُسْناً، بمضاعفة الثواب فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لمن تاب ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات، ويشكر للمحسن إحسانه، والشكور المبالغ في الشكر، الذي يعتدُّ بالطاعة، ويجزل عليها الثواب الكبير.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾؟ بل أيقولون ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ أي اختلق محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ بدعوى النبوة، وإنزال القرآن؟ والهمزة للإنكار التوبيخي، كأنه قيل أيتجرؤون أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء، لا سيما الافتراء على الله، وهو أعظم الافتراء وأفحشه؟ فمثله لا ينسب إلى الكذب، مع اعترافهم له من قبل بالصدق والأمانة ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا، ببيان أنه صلى الله عليه وسلم لو افترى على الله، لمنعه من ذلك قطعاً، كأنه قيل: لو كان هناك افتراء عليه تعالى، وشاء عدم صدوره عنك، يختم على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معانيه، وحيث لم يكن كذلك، بل تواتر الوحيُ، تبيَّن أنه من عند الله تعالى ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يمحو الباطل، ويثبت الحق بوحيه، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ وهذا عِدَةٌ لرسول الله ﷺ بأن الله يمحو الباطل الذي هم عليه، ويثبت الحق الذي هو القرآن ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجري عليها أحكامها من المَحْوِ

والإثبات، والغرض من الآية أنك لو افتريتَ على الله الكذب ـ ـ كما يزعم المجرمون ـ لختمنا على قلبك، فأنسيناك هذا القرآن، وسلبناه من صدرك، ولكنك لم تفتر على الله كذباً، ولهذا أيّدناك وسدَّدناك!! ففي الآية تكذيب لدعوى المشركين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي هو سبحانه بفضله وكرمه، يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إلى الله بصدق وإخلاص، كما ورد في الحديث الشريف «إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]. ﴿ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كائناً ما كان، فهو الرقيب المطَّلع على الأعمال، وسيجازيكم عليها.

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي يستجيب الله لهم دعاءهم، كما استجابوا لطاعته، والمراد بإجابة دعائهم: الإثابة على طاعاتهم ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ ﴾ على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد، والتخصيص بالمؤمنين هل يدلُّ على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكافر؟ قيل: نعم، لأن الإجابة تعظيمٌ، وقيل: يجوز لقوله تعالى: ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه﴾؟ وفائدة التخصيص، أن إجابة دعاء المؤمنين، تكون على سبيل

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٥٣١ وقال: حديث حسن، والغرغرةُ أن تصل الروح إلى الحلقوم، عند الموت والاحتضار.

التشريف، وإجابة ودعاء الكافرين، على سبيل الاستدارج ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لتكبروا وأفسدوا، ولعلا بعضهم على بعض، بالاستيلاء، كما عليه الجِبلّةُ البشرية ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أن ينزِّله، مما تقتضيه مشيئته ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي محيط بخفايا أمورهم، فيقدِّر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، حسبما تقتضيه الحكمة، وقد قيل: ثلاثةٌ ليس لها نهاية: الأمنُ والصحةُ والكفاية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب، ولذلك خُصَّ الغيثُ بالنافع منه، فإن المطر قد يضرُّ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أي يئسوا منه، وتقييده بذلك، مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكر كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس أوجب لكمال الفرح، وأدعى للشكر ، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء، من السهل، والجبل، والنبات، والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان، ونشر الرحمة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لا غيره، وقيل لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط، وقنط الناس، فقال: مُطِروا، أراد هذه الآية.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصانع، فإنها تدل على شؤونه العظيمة ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي من حي فيما يدب على الأرض، أو يطير في الجو، وهذا يشمل الإنس، والجن، والملائكة، وقد يجوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصف بالدبيب، والدبيب في اللغة: المشيُ الخفيفُ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ ﴾ أي على حشرهم بعد البعث ﴿ إِذَا يَشَآءُ ﴾ أي في الوقت الذي يشاء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ متمكن منه، لا يعجزه شيء.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أيّ مصيبة كانت، فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، والخطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليها، والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخر، منها تعريضه للثواب، بالصبر عليه، عن علي رضي الله عنه أنه قال: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، لأن الكريم إذا عاقب مرة، لا يعاقب عليه ثانياً.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ أي ولستم فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يحميكم منها ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يدفعها عنكم وفي الحديث الشريف

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيبُ المؤمنَ شوكةٌ فما فوقها، إلاَّ رفعه الله بها درجةً، وحطَّ عنه بها خطيئة»[1].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي كالجبال وكلُّ شيء مرتفع عند العرب فهو عَلَم.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجريها ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي فيبقين ثوابت على ظهر البحر، أي غير جاريات ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من تسيير السفن الضخمة فوق سطح الماء ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذُكر من شؤونه تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي لكل مؤمن صابر شاكر، فإن الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝٣٤﴾.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي يرسلها، عواصف فيغرقن مع ركابها ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب، وإيقاع الإيباق عليهن، مع أنه حال أهلهن، للمبالغة والتهويل ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ينجي آخرين، بطريق العفو عنهم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٠/ ٩٠ في المرضى باب ما جاء في كفارة المرض، ومسلم رقم ٢٥٧٢.

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ عطف على علة مقدرة، أي لينتقم منهم ويعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، إذا توسطوا البحر، وغشيتهم الرياح من كل جانب ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي لا ملجأ لهم، ولا مهرب من العذاب.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ ﴾ مما ترغبون وتتنافسون فيه ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي فهو متاعها، تتمتعون به مدة حياتكم ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ زماناً حيث لا يزول ولا يفنى ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا على غيره، فإنهم يعتمدون على الله وحده.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي الجرائم الكبيرة ﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ أي الزنى ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي يصفحون عمّن أساء إليهم وأغضبهم، وبناء «يغفرون» على ضميرهم للدلالة على أنهم الأحقاء بالمغفرة، لعزة منالها.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي استجابوا لأمر ربهم، بالإيمان

والتوحيد، نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، من فرط تدبرهم وتيقظهم، كراهة التذلل للأعداء، وهو وصفهم بالشجاعة، بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلاً منهما فضيلة محمودة في موقع، ورذيلة مذمومة في موقع، فإن الحلم عن العاجز محمود، وعن الظالم المتغلّب مذموم، وعليه قول الشاعر:

إذا أنتَ أكرَمتَ الكريمَ ملكتَه   وإن أنـتَ أكـرمـتَ اللئيـمَ تمـرَّدا

بيَّن الله تعالى أن هذه الخيرية، إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات عديدة:

١ ـ أن يكون من المؤمنين. ٢ ـ من المتوكلين على الله. ٣ ـ من المجتنبين للفواحش. ٤ ـ من المنقادين لأمر الله. ٥ ـ من المنتصرين لدينه.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ بيان لوجه كون الانتصار من الفضائل الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادي هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه تنبيه على حرمة التعدي، وإطلاق السيئة على الثانية،

لأنها تسوء من نزلت به[1] ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء إليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين من يعاديه، بالعفو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمة، منبئة عن عظم شأن الموعود ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي البادئين بالسيئة، والمعتدين في الانتقام.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١)﴾.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد ما ظُلم دون عدوان ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم فعلوا ما أبيح لهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي إنما المؤاخذة والعقوبة على الذين يبدؤون بالعدوان، أو يعتدون في الانتقام، ويتكبرون على عباد الله، تجبراً وفساداً ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، من الظلم والبغي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظلمه، ولم ينتصر لنفسه، وفوّض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي من فضائل الأعمال التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، وهذه في الأمور التي لا يؤدي العفو فيها إلى الشر، كمن اعتاد العدوان على الناس، فإن

---

(١) مقابلة السيّئة بالسيّئة، لكيلا يتبجّح الشرُّ ويطغى، حين لا يجد من يردعه عن الظلم والعدوان.

العفو عنه يزيد في ضلاله وطغيانه، بل يجب أن يُردع ويُزجر، بعقاب يكفُّه عن الظلم والعدوان.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من ناصر يتولاه، من بعد خذلانه تعالى إياه ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يسألون ربهم، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا قائلين ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ﴾ أي إلى رجعة ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾؟ حتى نؤمن، ونعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل؟.

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار، والخطاب في الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي متذللين متضائلين ممَّا دهاهم ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي يسارقون النظر خوفاً وفزعاً، يبتدئون نظرهم إلى النار، من تحريكٍ لأجفانهم ضعيف، كالمصبور ينظر إلى السيف، فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: إنهم يُحشرون عمياً؟ قلنا يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عمياً يسحبون إلى جهنم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي المتصفين بحقيقة الخسران ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ أي ضيَّعوا أنفسهم وأهلهم بالتعريض للعذاب الخالد ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين، أو تصديق من الله تعالى لهم، أي انتبهوا فإن الظلمة المشركين، في عذاب دائم لا ينقطع.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ برفع العذاب عنهم، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي غيره تعالى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ يؤدي سلوكه إلى نجاة في الدارين، لأنه انسدَّتْ عليه طرق النجاة، فكيف يهتدي إلى طريق السعادة، وقد حاد عن هداية الله؟.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ أي أجيبوا ربكم إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه، قبل أن يأتي من الله يوم شديدٌ رهيب ﴿ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا يردُّه الله بعدما حكم به، وهو يوم القيامة ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي من مفرٍّ تلتجئون إليه حينئذ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي من إنكار لما اقترفتموه، لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد به عليكم جوارحكم، وقيل: المعنى: ليس لكم من ينكر ما ينزل بكم من العذاب، لا من أنفسكم ولا من غيركم، لأن أحداً لا يملك الاعتراض على الله جلَّ وعلا.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ ﴾ أي فإن لم يستجيبوا، وأعرضوا عما تدعوهم إليه ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أي رقيباً أو محاسباً لهم على أعمالهم ﴿ إِنْ

عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ رسالة ربك، وقد فعلت ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾[1] أي نعمة من الصحة، والغنى، والأمن ﴿فَرِحَ بِهَاۖ﴾ أي بطر وَتكبّر، وأريد بالإنسان الجنسُ، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ أي بلاء من مرض، أو فقر، أو خوف ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ أي مبالغ في الكفران لنعم المولى جل وعلا، ينسى النعمة حالاً، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنه أصابه بغير استحقاقٍ لها.

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ له التصرف فيهما، وفي كل ما فيهما كيفما يشاء، بالخلق والإيجاد ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ مما نعلمه ومما لانعلمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا﴾ من الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ منهم، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد أصلاً.

---

(١) أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الجحود لنعم الرحمن، فهو يبطر عند حصول النعمة، ويضجر عند فواتها وزوالها، وفي الآية سرٌّ بديع من لطائف الأسرار البيانية، فإن «إذا» تفيد التحقيق، و «إن» تفيد الشك، فذكر تعالى النعمة بقوله: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان﴾ للإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف النقمة والبلاء فإنه على الشك والتقليل، ولهذا قال سبحانه ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ يعني على فرض حصول السيئة كالمرض، والفقر، والبلاء، فإن الإنسان كافر جاحد لنعمة الله، فالنعمة محققة الوقوع، والنقمة محتملة النزول، ونِعَمُ الله في الدنيا وإن كانت عظيمة وجليلة، ولكنها بالنسبة إلى نعيم الآخرة تافهة وحقيرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمَّاها الله عزَّ وجلَّ ذوقاً ﴿إذا أذقنا الإنسان﴾ فنبه تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الضئيل الحقير في الدنيا، فإنه يفرح بها ويعظم غروره، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، وذلك لجهله بحال الدنيا، وبحال الآخرة، فافهم أسرار القرآن.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أي يقرن بين الصنفين، فيهبهما جميعاً، فيجمع للإنسان بين البنات والبنين، والذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ يعني يجعل أحوال العباد، في حق الأولاد، مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهن، ولعل تقديم الإناث، لأنهن أكثر، لتكثير النسل، أو لتطييب قلوب آبائهن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة[1]، والعقم يطلق على الذكر والأنثى، فقد يكون الرجل عقيماً لا يأتيه أولاد، وقد تكون المرأة عقيماً لا تلد، وليس العقم خاصاً بالنساء.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ بوجه من الوجوه ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ بأن يوحي إليه، ويلهمه ويقذف في قلبه، كما أوحى إلى أم موسى، أو بأن يسمعه كلامه من غير أن يبصر السامعُ من يكلمه، وهو المراد من قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فإنه تمثيل له بحال المَلِكِ المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه، من وراء الحجاب، يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلم موسى، وهذا أيضاً وحي، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أو بأن يكلمه بواسطة المَلَك وذلك قوله تعالى:

---

(١) ليست السعادة في أن يرزق الله الإنسانَ ذكراً أو أنثى، وإنما السعادة في صلاح الأولاد ونجابتهن، ليكونوا قرة عين لآبائهن، وقد أحسن الشاعر حين قال:

نِعَمُ الإلهِ على العبادِ كثيرةٌ ... وأجلُّهنَّ نجابةُ الأولاد

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي مَلَكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك المَلَك إلى المرسل إليه، الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحى إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى، وبين الأنبياء عليهم السلام، في عامة الأوقات ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم، إلاّ بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، والأخرى بدونها، إما إلهاماً وإما خطاباً، وسبب نزول هذه الآية، أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فنزلت الآية ردّاً عليهم ذلك الافتراء، فما رأى موسى ربه ولا نظر إليه، وإنما سمع كلامه من وراء حجاب ﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾ وحين طلب موسى رؤية ربه ﴿قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ الآية.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب، بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة أبدية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أيّ أيّ شيء هو؟ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي الإيمان بتفاصيل الأمور، التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل، لأنه ﷺ قبل النبوة كان يوحّد الله تعالى، ولا يأكل ما ذُبح على النصب، ويُبغض الأصنام، وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام، ولم يتبين له شرائع دينه، إلا بعد الوحي إليه ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ هو الذي يصرف اختياره، نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي وإنك يا محمد، لتدل وترشد الناس ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، دين الله الخالد!!.

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى ﴾ بدل من الأول، وإضافته إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنه، وتأكيد وجوب سلوكه ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ أي له كل ما في الكون ملكاً، وخلقاً، وعبيداً ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي أمور ما فيهما، لا إلى غيره، ففيه من الوعد للمهتدين، والوعيد للضالين الظالمين. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»

* * *



مكية وهي تسع وثمانون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أقسم بالقرآن البيِّن الواضح الجلي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي جعلنا ذلك الكتاب، قرآناً عربياً، لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمَّنه، من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي في اللوح المحفوظ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي رفيع القدر، بيِّن الفضل ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، ومكانة فائقة، وفي الإقسام بالقرآن على علو قدره، براعة بديعة، وإيذان بأنه من علو الشأن، بحيث لا يحتاج في بيانه،

إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره، بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك، من حيث الإقسام به، كما أنه كافٍ فيها من حيث إعجازه.

وبعدما بيّن علو شأن القرآن، وحقّق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال سبحانه:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي أنهملكم فننحّي الذكر عنكم، ونعتبركم كالبهائم، فلا نعظكم ولا نذكّركم بالقرآن؟ وفيه إشعار باقتضاء الحكمة، توجه الذكر إليهم، وملازمته لهم، كأنه يتهافت عليهم ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضاً عنكم ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأجل إسرافكم في المعاصي والإجرام، ومجاوزتكم الحدَّ في الضلالة، على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم، حتى تموتوا على الكفر والضلالة، لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق، بإرسال الرسول الأمين، وإنزال الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقرير لما قبله، ببيان أن إسراف الأمم السالفة، لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم لهدايتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ، أي هذه عادة الأمم الضالين، ما جاءهم رسول إلا سخروا منه واستهزؤوا، فلا ينبغي أن تحزن وتتأذى من قومك، بسبب تكذيبهم لك.

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أي من هؤلاء المسرفين، وصفهم بالبطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية، أي كانوا أعتى وأطغى من قومك كفار مكة، ومع ذلك أهلكهم الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي سَلَف في القرآن قصتهم، وفيه وعد ووعيد[1]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي يُسندن خلقها إلى من هذا شأنُه، في الحقيقة ونفس الأمر، لا أنهم يعبِّرون عنه بهذا العنوان، وسلوك هذه الطريقة، للإشعار بأن اتصافه تعالى بجلائل الصفات، وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء، أمرٌ بيِّنٌ لا ريب فيه، وأن الحجة قائمة عليهم، شاؤوا أو أبوا، والمقصود بيانُ أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى، يعبدون غيره جهلاً منهم وسفهاً، وينكرون قدرته على البعث والجزاء، فإذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض، اعترفوا بأن الخالق هو الله، ثم هم يعبدون غيره.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

---

(١) الغرض من الآية أن الله عزَّ وجل لا يترك هؤلاء الكفار، على كفرهم وفجورهم، وضلالهم، دون أن يبعث إليهم من ينصحهم ويذكّرهم، رحمة بهم، وإن كانوا هم معرضين عن الإيمان، مسرفين في العصيان، لأن لطف الله ورحمته بالعباد، تقتضي التذكير والتبصير، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع، حين ردَّه أوائل هذه الأمة، لهلكوا جميعاً، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة!!.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي بسطها لكم تستقرون فيها، وتبنون وتنامون ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكر إلى التوحيد الذي هو المقصد الأسمى.

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ أي بمقدار تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكم والمصالح، وبقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ ﴾ أي أحيينا بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي خالياً عن النماء والنبات، مقفراً من الزروع والثمر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإحياء، وهو إخراج النبات من الأرض ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ أي تُبعثون من قبوركم أحياء.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي أصناف المخلوقات، من الحيوان والنبات، وكلُّ ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، والذكر والأنثى ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي ما تركبونه تغليباً للأنعام على الفُلك، فإن الركوب متعد بنفسه.

﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه، من السفن والأنعام ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي تذكروها بقلوبكم معترفين

بها، ثم تحمدوا ربكم عليها بألسنتكم ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين، قال أبو عبيدة: فلان مقرن لفلان أي ضابط له، أي ما كنتم مطيقين لها وضابطين لحركاتها، لولا تسخير الله عزَّ وجل.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير، ويتذكر منه المسافرة العظمى، التي هي الانقلاب إلى الله تعالى، فيبني أموره على تلك الملاحظة، فإن الإنسان لا يزال في سفر، حتى يستقر به القرار، إما في الجنة أو في النار.

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر، حمد الله تعالى، وسبَّح وكبر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سخَّر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهمَّ إنا نسألك في سفرنا هذا، البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنَّا بُعده، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهمَّ إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في الأهل والمال»[1].

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي وقد جعلوا له سبحانه، بعد ذلك الاعتراف بخلق السموات والأرض ولداً، وإنما عبر بالجزء، لمزيد استحالته في حقِّ الواحد الأحد، من جميع الجهات، والمقصود منه التنبيه على سخافة عقولهم، وقلة محصولهم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الكفران، مبالغ فيه، ولذلك يقولون ما يقولون.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٤٢، والترمذي رقم ٣٤٤٤، وأبو داود رقم ٢٥٩٩.

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾؟ هذا بيان لبطلان جعلهم ذلك الولد من أحسن صنفيه في نظرهم، والهمزة للإنكار والتعجيب منهم ﴿ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾؟ أي واختار لكم أفضلهما؟ وتنكير «بنات» وتعريف البنين، لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة، والفخامة، أي هل خصّكم واختار لكم البنين، واتخذ لنفسه البنات؟ ما لكم كيف تحكمون؟ أفلا تعقلون؟.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ أي وإذا بشر أحدهم بالأنثى، التي نسبها إلى الله وجعلها له مثلاً ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من سوء ما بُشّر به ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء من الكرب والكآبة كأنه فعل جريمة يستحق العقاب عليها.

﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ أي أوجعلوا ما شأنه أن يُربَّى في الزينة، وهو عاجزٌ عن أن يتولى أمره بنفسه؟ ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ ﴾ أي في الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، لنقصان عقله، وضعف رأيه؟.

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور، لكفر آخر، وهو جعلهم الملائكة الذين همْ أكمل الخلق، وأكرمهم

وأكرمهم على الله إناثاً، ونسبتهم إلى الله حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء كفروا بثلاثة أشياء: ١ ـ بإثبات الولد لله، ٢ ـ وبأنَّ هذا الولد بنت، ٣ ـ والحكم على الملائكة بالأنوثة ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾؟ أحضروا خلق الله إياهم، فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم؟ وهو تجهيل لهم وتهكم بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن هذا الكذب والافتراء.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حقٌّ، مرضي عند الله تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما أرادوا بقولهم الباطل ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون لأنهم أرادوا بالمشيئة الرضا، أو قالوا هذا القول استهزاءً لا اعتذاراً، وجعلوا المشيئة حجة لهم، وظنوا أن الله تعالى لا يعذبهم على أي شيء فعلوه ولما أظهر وجوه فساد دعواهم من طريق العقل، أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم من جهة النقل، فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن، ينطق بصحة ما يدَّعونه؟ ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وعليه معولون.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ

﴿ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية، سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم، تقليداً أعمى، دون بصر ولا نظر.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ (٢٣)﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كما ذكر من تشبثهم بذيل التقليد ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ استئناف مبيِّنٌ بأن التقليد ضلالٌ قديم، وتخصيص المترفين للإيذان بأن التنعم، وحب الرئاسة، هو الذي صرفهم عن النظر، إلى فساد التقليد.

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٢٤)﴾.

﴿۞ قَٰلَ﴾ أي قال كل نبي لأمته ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ أي أتقتدون بآبائكم الجهلة ولو جئتكم ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ بدين أهدى وأرشد ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾؟ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على سلك الإنصاف ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قالت كل أمة لنبيّها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قبل أن ينظروا ويتفكروا فيه، إقناطاً للنذير.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم على الكفر والضلال بالاستئصال ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فلا تكترث بتكذيب قومك.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ (٢٦)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي واذكر لهم وقت قال﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ براءٌ مصدر نعت به مبالغة، يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، أي إنني بريء من عبادتكم ومعبودكم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء منقطع، أي غير الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي يرشدني لدينه، ويوفقني لطاعته، وسيثبتني على الهداية، والسين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي جعل إبراهيم عليه السلام «كلمة التوحيد» التي تكلم بها ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي في ذريته حيث وصَّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ووصَّى بها إبراهيم بَنِيهِ﴾ الآية فلا يزال فيهم من يوحِّد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي جعلها باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول ﷺ من أهل مكة ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالمدِّ في العمر والنعمة، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، فاغترُّوا بالمُهْلة، وانهمكوا بالشهوات، وغفلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بالمعجزات الباهرة، وكان الواجب أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر، فجعلوه سبباً لزيادة الكفر.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ ﴾ ازدادوا كفراً وعتواً، وضمّوا إلى كفرهم معاندة الحق، والاستهانة به، حيث ﴿ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فسمّوا القرآن سحراً، واستحقروا الرسول ﷺ، وكذّبوه.

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ ﴾ ؟ أي من إحدى القريتين مكة أو الطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة من مكة، و «عروة بن مسعود» من الطائف، ولم يتفوهوا بهذه العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ دون عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآناً، لنزل على هؤلاء، بناءً على أن منصب الرسالة منصب جليل، لا يليق إلا بمن له جلالة، من حيث المال والجاه، ولم يدروا أنها وثبة روحانية، لا يترقى إليها إلاّ خواص المختصين، بالنفوس الزكية، أما المتمتعون بالحظوظ الدنيوية، فهم من استحقاق تلك الرتبة بآلاف منزل، قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢ ﴾؟.

﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ ﴾؟ إنكارٌ فيه تجهيلٌ لهم، وتعجيب من تحكمهم في شؤون الوحي ﴿ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾؟ أي النبوة يعني أبيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا؟ ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ أي أسباب معيشتهم، قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحِكَم والمصالح، ولم نفوّضْ أمرها إليهم، فمن أين لهم أن يتحكّموا في أمر النبوة، التي

هي أعلى المراتب وأقدسها؟ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وسائر مبادىء المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ متفاوة، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيفٍ وقوي، وفقير وغني، وحاكم ومحكوم ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم، حتى يتعايشوا ويصلوا إلى مرافقهم، لا لكمال في الموسَّع، ولا لنقص في المقتَّر، ولو فوضنا أمرها إلى تدبيرهم لهلكوا ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، لأن منافع الدنيا على شرف الانقضاء، وثمرات الرحمة تبقى أبد الآباد!!.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيان لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره، عنده عزَّ وجلَّ، والمعنى: إن حقارة شأن المتاع، بحيث لولا أن يرغب الناس، لحبهم الدنيا في الكفر، إذا رأوا أهله في سَعَة وتنعم، فيجتمعوا عليه، لأعطيناه بحذافيره، من هو شرُّ الخلائق، وأدناهم منزلة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي للكفار خاصة ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي متخذة منها ﴿وَمَعَارِجَ﴾ من فضة، أي مصاعد إلى المساكن العالية، كالدرج والسلالم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح والعلالي.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي وجعلنا لبيوتهم ﴿أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على السرر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ تكرير ذكر «بيوتهم» لزيادة التقرير.

﴿ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَزُخْرُفًاۚ ﴾ أي وزينة عظيمة من كل شيء، من الذهب، والفضة وسائر أنواع الجواهر ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ ﴾ أي وما كل ما ذُكر إلاَّ شيء يتمتع به في الحياة الدنيا عما قريب يزول ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي والآخرة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم للمؤمنين المتقين، الذين يتقون الكفر والمعاصي، فتبيَّنَ بهذا أن المال والجاه، حقيران عند الله تعالى، وأنهما على شرف الزوال، وأن العظيم هو العظيم في باب التقوى، والإيمان، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا عند الله، تزن جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء»[1] فإن قيل: لمَّا بيَّن الله أنه لو فتح على الكافرين أنواع النعم، لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر، فلمَ لم يفعل ذلك بالمسلمين، وكانوا يجتمعون على الإسلام؟ قلنا: لأن الناس على هذا التقدير، كانوا يجتمعون لطلب الدنيا، فهذا إيمان المنافقين، فلا بد أن يكون كل من دخل الإسلام، يدخل لطلب رضوان الله تعالى وثوابه، فحينئذ يكون مسلماً صادقاً في دينه، وأما في طلب الدنيا فلا يظهر حقيقة إسلامه.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ أي يتعام، يقال: عَشِيَ يَعْشَىٰ إذا كان في بصره آفة، وعَشَىٰ يَعْشُو إذا تعامى بلا آفة ﴿ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وهو القرآن، وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بنزوله رحمة للعالمين، والمعنى: ومن يتعامَ ويُعرض عن القرآن، لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا، وانهماكه في الشهوات،

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢١ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ﴾ أي نضم إليه ونسلط عليه ﴿شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي فهو له ملازم، ومصاحب لا يفارقه، ولا يزال يوسوس إليه ويغويه، والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من حاز المال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وإذا ازداد حبهما زاد العشىٰ حتى يصير كالعمىٰ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي الشياطين المضلين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي قرناءهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن الكريم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي ويظن الكفار ﴿أَنَّهُم﴾ أي الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ إلى سبيل مستقيم، وإلاَّ لما اتَّبعوهم[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي كلُّ واحد منهم، مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ أي قال الكافر مخاطباً لقرينه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، أي تباعد كل منهما عن الآخر، فغلَّب ههنا المشرق على المغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت، وقوله: ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله عز وجل، توبيخاً.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة تمنيكم ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أي

---

(١) الأظهر أن الضمير يعود إلى الكفار أنفسهم، أي وإن الكفار يظنون أنهم مهتدون باتّباعهم طريق الشياطين.

لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي اشتراككم في العذاب، كما كنتم مشتركون في سببه في الدنيا، على معنى: أن اشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم البلاء، لأن المكروب يجد راحة التأسي بغيره، وهؤلاء لا يجدون ذلك، فقد حُرموا أهون أنواع العزاء.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ كان ﷺ يبالغ في المجاهدة لدعوة قومه، وهم لا يزيدون إلا غَيّاً وتعامياً، عما يشاهدونه من شواهد النبوة، فنزلت هذه الآية، وهذا تسلية للرسول ﷺ، لأن اليأس إحدى الراحتين. ثم وعد تعالى أن ينتقم منهم، وذلك أيضاً يوجب التسلية، وقوله تعالى: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ ؟ إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وهم قد استغرقوا في الكفر والضلال بحيث صار ما بهم من العَشَى عمى، مقروناً بالصَّمم!! ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ مدار الإنكار، هو تمكنهم في الضلال، المفرط، بحيث لا ارعواء لهم عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي ﷺ، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك، إلا الله تعالى وحده.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي العذاب الذي وعدناهم إياه ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم

﴿مُقْتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا، ولقد أراه ﷺ بعض ذلك يوم بدر، ويوم أحد.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي فتمسَّكْ بالقرآن الذي أنزل عليك، بمراعاة شرائعه وأحكامه، سواءٌ عجَّلنا لك الموعود، أو أخرناه ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريقٍ سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد، ودين الإسلام.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ أي القرآن العظيم الذي أوحي إليك، لشرف عظيم ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي لك يا محمد خاصة، ولأمتك عموماً، إذ أنزل عليهم أشرف الكتب السماوية ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عنه، وعن قيامكم بحقوقه.

﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي واسأل أممهم وعلماء دينهم، كما في قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ وفائدة هذا التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به ألسنة الرسل قال الفراء: إنما يخبرهم عن أتباع الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم السلام ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي هل أمرنا بعبادة الأوثان، وهل جاء ذلك في دين من أديانهم، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على

التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع، حتى يُكذَّب ويُعادى فبيَّن الله تعالى أن إنكار عبادة الأصنام، ليس من خواص دين الإسلام، بل كان جميع الأنبياء مطبقين على إنكاره!!.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أريد بذكر قصة موسى تسلية الرسول ﷺ، والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، أي استهزؤوا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها بل ضحكوا سخرية واستهزاء.

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ من الآيات الباهرة، من ألوان العذاب كالطوفان، والجراد ﴿ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ﴾ أي إلاَّ وهي في غاية الكبر والظهور ﴿ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي وعاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر، إلى دين التوحيد.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوهم، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لاستعظامهم علم السحر ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من النبوَّة، أو

من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[1].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ عهدهم، مرَّ في الأعراف.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه رؤساء القبط ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجمعهم، بعدما انكشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، نهر طولون، نهر دمياط، نهر تنيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي من تحت قصري في جناني وبساتيني ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام ملكه، روي عن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأولينَّها أخسَّ عبيدي!! فولاها الخصيب وكان خادمه على وضوئه، فخرج إليها فلما شارفها قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون، والله إنها أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف، حقير من المهانة وهي القلة، أي لا عزَّ له ولا سلطان ولا مال، يقصد به موسى

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٤.

عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي الكلام، قاله افتراءً عليه، وتنقيصاً له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من لُكْنة، وقد كانت ذهبت عنه كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ أي فهلاً ألقى الله إليه أسورة من ذهب، كرامة له ودلالة على نبوته، وقد كانوا إذا سوَّروا رجلاً سوَّروه وطوقوه بطوق من ذهب، وأسورة ﴿مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي يمشون معه يعينونه، ويصدقونه في دعواه.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فاستفزهم، وطلب منهم الخفة في مطاوعته، واستخف بعقول قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الكبير.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا أشد الغضب، من أَسِفَ إذا اشتد غضبه ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكناهم بالغرق في البحر.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار، يسلكون مسلكهم في استجلاب غضب الله ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أي عظةً لهم، أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال، فيقال: مثلهم كمثل قوم فرعون.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ ضربه ابن الزبعري حين جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ حيث قال: أهذا لنا ولآلهتنا، أو لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: لكم ولجميع الأمم، فقال اللعين: خصمتُك وربِّ الكعبة، أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون معهم!! ففرح قومه وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ ﴾ من أي ذلك المثل ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي يرتفع لهم جلبة وضجيج، فرحاً وجدلاً.

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓا۟ ﴾ أي كفرة قريش ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ ﴾؟ أي عيسى خير من آلهتنا، فإذا كان هو في النار، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا في النار؟ وقد روي أنه ﷺ ردَّ عليه بقوله: ما أجهلك بلغة قومك!! أما تعلم أن «ما» لما لا يعقل!! يعني أن اعتراضه في غير محله، لأن الآية الكريمة وردت بلفظ ﴿إنكم وما تعبدون﴾ و «ما» في اللغة لما لا يعقل، ولو كان النص «إنكم ومن تعبدون» لكان هناك احتمال للاعتراض، على أن الآية بعدها وردت بالاستثناء ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾ أي ما ضربوا لك ذلك المثل، إلا لأجل الجدال والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك. القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية، والآيات الكثيرة تدل أن الجدل الذي يفيد تقرير الحق ممدوح، وتصرف هذه الآية على الجدل الذي يوجب تقرير الباطل ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي شداد الخصومة، مجبولون على اللَّجاج والعناد، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ

قوم بعد هُدىً، كانوا عليه، إلاَّ أُوتوا الجَدَل، ثم تلا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ الآية[1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما عيسىٰ ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أمراً عجيباً، حقيقاً بأن يسير ذكره كالأمثال، حيث خُلق من أم بدون أب، كما خلق آدم عليه السلام، وفيه تنبيه على بطلان رأي منْ رَفعه عن رتبة العبودية، إلى رتبة الألوهية، لأنه مخلوق ومولود كسائر الأولاد.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ الخ هذه الآية لتحقيق أن مثل «عيسى» ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك، بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنكُم﴾ أي وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة ﴿مَّلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها، أو لجعلنا بدلكم ملائكة ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي يخلفونكم يسكنون في الأرض.

قال مجاهد: ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي إن عيسى عليه السلام بمنزلة شرط من أشراط

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٥٠ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٨ باب اجتناب البدع والجدل، وأحمد في المسند ٥/٢٥٢.

الساعة، لأن الله عز وجل ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فنزوله علامة على قربها، وقرأ ابن عباس «لَعَلَمٌ» للساعة، وهو العلامة ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن في وقوعها ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أي وقل لهم يا محمد اتبعوا هديي، وشرعي، وما جئتكم به من عند الله ﴿ هَٰذَا ﴾ أي الذي أدعوكم إليه ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي دين قويم موصل إلى الحق.

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ عن اتباعي ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ بيِّنُ العداوة، حيث عرّضكم للبلية.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات، وبالشرائع البينات ﴿ قَالَ ﴾ لبني إسرائيل ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ أي بالحكمة الإلهية وبالشريعة الواضحة ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو ما يتعلق بأمور الدين، لا بأمور الدنيا، لأن بيانه ليس من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1] ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في مخالفتي ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه عنه تعالى.

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي أنا وأنتم عبيد لله مأمورون بعبادته،

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٣٦٣ عن عائشة أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يُلقِّحون النخل، فقال: «لو لم تفعلوا لصَلح، فخرج شِيصاً ـ أي رديئاً ـ فقال لهم ﷺ: أنتم أعلم بأمر دنياكم» وانظر جامع الأصول ١١/ ٧٦٤.

وفيه ردٌّ على النصارى الذين اعتقدوا بألوهيته ﴿هَٰذَا﴾ أي التوحيد، والعمل بالشرائع ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي الفِرَقُ المتحزبة بعد عيسى عليه السلام، فصاروا شيعاً وأحزاباً في شأنه ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من اليهود والنصارى فقال اليهود لعنهم الله: زنت أمه فهو ولد الزنى، وقال بعض النصارى: عيسى هو الله، وبعضهم قال: هو ابن الله، وزعم أكثرهم أن الله وعيسى وأمه آلهة، وهو ثالث ثلاثة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولهذا قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي من المختلفين في عيسى عليه السلام الذين قالوا عنه ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهم مشتغلون بأمور الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ المتحابون في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم من علائق الخلة، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلتهم في الدنيا لما كانت في الله، تبقى على حالها، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب، ورفع الدرجات.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله تشريفاً لهم.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي صدَّقوا بالقرآن وآيات الرحمن ﴿ وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ أي مخلصين في إيمانهم وطاعتهم، وعن مقاتل، إذا بعث الله الناس فزع كل أحد، فينادي منادٍ يا عبادي فيرفع الخلائق رؤوسهم على الرجاء، ثم يتبعها ﴿الذينَ آمنُوا﴾ فينكّسُ أهل الأديان الباطلة رؤوسهم.

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ ﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿ تُحۡبَرُونَ ﴾ أي تُسرُّون سروراً يظهر أثره على وجوهكم.

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم ﴾ أي بعد دخولهم الجنة ﴿ بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ ﴾ جمع صحفة، والصحفةُ: إناء كالقصعة جمعها صِحَافٌ ﴿ وَأَكۡوَابٖۖ ﴾ جمع كوب وهو كوز لا عروة له وهو القدح ﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ ﴾ من فنون الملاذ ﴿ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ ﴾ أي تستلذه وتقرُّ بمشاهدته ورؤيته ﴿ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ إتماماً للنعمة، فإن كل نعيم له زوال، ونعيم الآخرة دائم، والالتفاتُ للتشريف.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، شبَّه جزاء الأعمال بالميراث، لأنه يخلِّفه للعامل عليه.

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط ﴿ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي بعضها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، وإنما ذكر تعالى التنعُّم بالمطاعم والملابس، وهو حقير بالنسبة إلى سائر نعم الجنة، لما كان بهم من الشدَّة والفاقة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ أي الراسخون في الإجرام، وهم الكفار، حسبما ينبىء عنهم إيرادهم في مقابلة المؤمنين.

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ أي في العذاب ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من النجاة.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد.

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ وهو خازن النار ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي ليمتنا حتى

نستريح، من قضى عليه إذا أماته، والمعنى سل ربك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاسهم، لأنه جؤار وتمنٍ للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه، بموتٍ ولا بغيره.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، . وهو توبيخ من جهته تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ أي أكثركم كاره لدين الله ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لا يقبلونه وينفرون عنه.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ كلام ناعٍ على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، والهمزة للإنكار، أيٍ أأبرمَ وأحكم مشركو مكة أمراً، من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا حقيقة لا هم، كقوله تعالى: ﴿أم يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ﴾ وكانوا يتناجون في أنديتهم ويتشاورون في أموره ﷺ، فنزل قوله تعالى.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي بل أيحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أي ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون ما صدر عنهم التي من جملتها سرهم ونجواهم، وعن يحيى بن معاذ «من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فهذا من أمارات النفاق».

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أي لهذا الولد، لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجبات تعظيم الوالد، تعظيم ولده[1]. والمقصود من هذا الكلام، بيان بأني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، إن قام دليل على ثبوت هذا الولد، إلا أنه لم يوجد، بل الدليل القاطع على عدمه، وفيه من الدلالة على كون رسول الله ﷺ على قوة يقين، في باب التوحيد، ما لا يخفى.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي ممَّا يصفونه به من الزوجة والولد، وفي إضافة اسم الرب إلى العرش أعظم الإجرام، تنبيه على أنها وما فيها تحت ملكوته وربوبيته، فكيف يُتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه، وفي تكريم اسم الرب تفخيم لشأن العرش.

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ حيث لم يذعنوا للحق، بعدما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿ يَخُوضُوا ﴾ في أباطيلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم، فإن ما هم فيه من الأفعال والأقوال، ليست إلا من باب الجهل واللعب ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي

---

(١) الآية الكريمة على الفرض والتقدير، أي إن كان لله ولد، فأنا لا أستنكف عن عبادته، ولكنه سبحانه منزَّه عن الولد، لأنه ليس له صاحبة، كما قال سبحانه ﴿بديع السماوات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾؟ ثم الولد ينبغي أن يشبه أباه، فالله لايأكل ولا يشرب ولا ينام، فكيف يكون عيسى ابناً لله، وهو يأكل ويشرب ويحدث الحدث؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً!!.

﴿يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا، وما يُفعل بهم، والمقصود منه التهديد.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٤﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾[1] أي معبود بالحق في السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي الحكيم بصنعه، العليم بخلقه كالدليل لما قبله.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أي تمجّد وتقدس الله مالك السماوات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، من الملائكة، والإنس والجن ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للجزاء، والالتفات للتهديد.

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾.

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد، أي المؤمن الموحّد فهو الذي تنفع شفاعته، لا القسس، والكُهّان، والأوثان ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإخلاص.

---

(١) لا يقتضي هذا تعدد الإله، لأن المراد بالإله هنا المعبود، أي هو جلَّ وعلا معبود في الأرض كما هو معبود في السماء، يعبده أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألت العابدين ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لتعذر الإنكار فيه، من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ مع كونهم يعترفون بكون الكل مخلوقاً له تعالى.

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ أي وقول الرسول، بالجر عطف على الساعة، أي عنده علم قوله ﷺ والقول والقال، والقيلُ، كلها مصادر ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بك وبالقرآن فافعل بهم ما شئت، قيل له.

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي أنا هاجر لكم وتارككم، فهو سلام متاركة، لا سلام تحية ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم البتة وإن تأخر، وهذا وعيدٌ من الله تعالى لهم، وتسليةٌ للرسول ﷺ، والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»

* * *



مكية وهي تسع وخمسون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي أُقسم لكم بالقرآن العظيم، الواضح البيِّن.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي الكتاب المبين، وهو القرآن ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ هي ليلة القدر[1] قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وأطبقوا على أن ليلة القدر في رمضان، لقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي

---

(١) أما القائلون بأن «الليلة المباركة» هي ليلة النصف من شعبان، فليس لهم دليل يعوَّل عليه، من كتاب أو سنة، فإن صحَّ شيء عن رسول الله ﷺ فلا مزيد عليه وعلى الرأس والعين، وإلاَّ فالحقُّ ما عليه الجمهور أنها ليلة القدر، كما صرَّح به الكتاب العزيز، وأنها في شهر رمضان المبارك، والله أعلم.

ابتدأ فيه إنزاله، أو أنزل جملة إلى السماء الدنيا، من اللوح المحفوظ، ثم نزل به جبريل عليه السلام في وقت الحاجة إليه ﷺ، وصفها تعالى بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده، لكفى به بركة، وكفى لها شرفاً! وأيضاً لما فيها لما من نزول الملائكة، والرحمة، وإجابة الدعوة، وفضيلة العبادة، وقسمة الأرزاق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف مبين لما أنزلناه، أي لأن من شأننا الإنذار من العقاب.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ استئناف، لبيان فضل هذه الليلة، ففيها تُفصل الأمور المحكمة، والملتبسة بالحكمة، وهذا يدل على أنها ليلة القدر، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم، من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة. وفي الآية بيان لعظم القرآن بحسب ذاته، لأن تعالى أقسم به، ووصفه بكونه مبيناً، وبحسب شرف الوقت أنزله في ليلة مباركة، وبحسب شرف منزله، وهو رب العزة والجلال، لقوله تعالى: ﴿إنا كنا مرسلين﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي أعني أمراً حاصلاً من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسل لهداية البشر.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن، لأن من عادتنا إرسال الرسل إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فالأوامر الصادرة منه تعالى، من

باب الرحمة، فإن الغاية من تكليف العباد هو تربيتهم وتعريفهم للمنافع ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ يسمع أقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي يعلم أحوالهم.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي رب الكون كله، سمائه وأرضه ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم مريدين اليقين، فاعلموا أنه الله عزَّ وجلَّ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إذ لا خالق سواه فهو المحيي المميت، خالق الخلق، ربُّ الأولين والآخرين.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ أي غيرموقنين في إقرارهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي لا يقولون ما يقولون عن جدٍّ وإذعان، بل مخلوطاً بهزء ولعب.

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي يوم شدة ومجاعة، وذلك أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم، فقال: اللهم اشْدُد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فأخذتهم سَنَةٌ حتى أكلوا الجِيف، والعظام، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض مثل الدخان، وذلك قوله تعالى:

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾.

﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ أي يحيط بهم ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي قائلين ذلك، وهذا قول ابن عباس، وابن مسعود، وهو اختيار الفراء، والزجاج، وأكثر العلماء، وعن علي: هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران.

روي أن أبا سفيان ونفراً معه، مَشَوْا إلى رسول الله ﷺ، وناشدوه الله والرحم، إنْ دعا لهم، وكشف الله عنهم العذاب، أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى حاكياً قولهم:

﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢﴾.

﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ ومن فسر الدخان من الأشراط، قالوا: تصوَّر المعذبون به من الكفار والمنافقين الدخان، فاستغاثوا وقالوا ربنا... إلخ.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣﴾.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي كيف يتذكرون ويوفون بما وعدوه من الإيمان، عند كشف العذاب عنهم؟ ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيَّن لهم مناهج الحقّ، بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ عن ذلك الرسول، ولم يقنعوا بالتولي، ﴿وَقَالُواْ﴾ في حقه ﷺ ﴿مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ قالوا تارة معلم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف،

وأخرى مجنون، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا بالعِظة؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضَفَا، ـ أي تذلل ـ وإذا شبع طغى.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ، وما بينهما اعتراض، أي إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، زماناً قليلاً، إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والفساد.

ومن فسر الدخان بأنه من أشراط الساعة قال: فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، وحيثما يكشفه عنهم يرتدون، والأول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، فإن قوله تعالى ﴿أنى لهم الذكرى﴾ وقولهم ﴿معلَّم مجنون﴾ يؤيده، واحتج القائلون بالثاني، ببعض الأحاديث الشريفة منها: ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»[1] أي قبل ظهور ست آيات وعلامات، وقوله «وخويصة أحدكم» أي ما يختص به الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله، فيشغله، ويريد بأمر العامة القيامة الكبرى، وقيل الفتنة التي تعم الناس، واستدلوا أيضاً بما روي عن حذيفة بن أَسَيد الغِفاري قال ﷺ: «إنها لن تقوم ـ أي الساعة ـ حتى تروا عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، ونار تخرج من اليمن[2]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في الفتن.
(٢) أخرجه مسلم في الفتن رقم ٢٩٠١.

مضين: اللِّزامُ، والرومُ، والبطشةُ، والقمرُ، والدخان»[1]. عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصًّاً يقصُّ، ويزعم أن آية الدخان تجيء، فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام، فقال: يا أيها الناس اتقوا الله، من عَلِم منكم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم شيئاً فليقل: الله أعلم، إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً فكذَّبوه، واستعصوا عليه، قال: اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سَنَة حَصّت[2] كلَّ شيء، حتى أكلوا الجلودَ، والميتة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان، فذلك قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين﴾[3].

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي يومئذ ننتقم منهم أشد أنواع الانتقام.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال موسى يعني عاملناهم معاملة المختبر، وأوقعناهم في الفتنة، بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي كريم على الله، وكريم في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سَرَاة قومه وكرامهم.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٥٧٤ في تفسير سورة الدخان.

(٢) أي أفنت وأكلت كل شيء.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٥٧٣.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي بأن أدوا إليَّ بني إسرائيل، أي سلموا إليَّ قومي كقوله تعالى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾[1] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنني الله تعالى على وحيه، وصدَّقني بالمعجزات.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا تتكبروا على الله تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وهي معجزة العصا واليد.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي التجأت إليه، وتوكلت عليه ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي من أن ترجموني أي تقتلوني، قيل: لما قال: ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ توعَّدوه بالقتل، والمعنى: إني عائذ بربي من كيدكم وشرككم، فهو غير مبالٍ بما كانوا يتوعدونه به من الرجم.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي فإن لم تؤمنوا لي فكفُّوا أذاكم عني، ولا تتعرضوا لي بشر وسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ بعدما أصروا على تكذيبه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي

---

(١) سورة طه، آية: ٤٧.

مصرُّون على الكفر والإجرام، فانتقم منهم، فإن قيل: الكفرُ أعظم من الجرم، فلِمَ قال ﴿مُجْرِمُونَ﴾ ولم يقل كافرون؟ فالجواب: أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وقد يكون مع كفره مجرماً، مرتكباً لأنواع الكبائر والجرائم، وهؤلاء جمعوا بين الكفر والإجرام، وسرعان ما كانت استجابة الدعاء!! قال تعالى آمراً له:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣)﴾.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ بإضمار القول، أي أجاب الله دعاءه، وأمره أن يخرج ببني إسرائيل بالليل، على غفلةٍ من العدو، لينجوا من شر فرعون وأتباعه ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وجنوده، بعدما علموا خروجكم.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي سيغرقون في البحر، ولا يستطيعون النجاة.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥)﴾.

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي كثيراً تركوا بمصر ﴿مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بساتين وحدائق غناء، وعيون جارية بالماء.

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾.

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي مزارع واسعة، فيها أنواع الخضرة والثمار، ومساكن ودور وقصور أنيقة.

﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ أي تنعم، والنَّعمة بالفتح ما يتنعّم به الإنسانُ، وبالكسر من الإنعام ﴿ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ متنعمين، تفكّه بالشي أي تمتع به.

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ قيل هم بنو إسرائيل، وقيل: غيرهم لأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر[1].

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد، ولا تأثر بموتهم مخلوق، لأنهم فجرة أشقياء، وبكاء السماء كناية عن الحزن والتفجع عليهم، وفيه تهكم بهم، وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقدُه، فيقال: بكت عليه السماء والأرض، وقيل: بكاء السماء حقيقة؛ لما رُوي عن أنس رضي الله عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن إلاَّ وله بابان: بابٌ يصمد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقُه، فإذا مات بكيا عليه، ثم تلا ﷺ ﴿فما بَكَتْ عَلَيهِمُ السَّمَاءُ والأرضُ..﴾[2] الآية، وقيل: تقديره ما بكى عليهم أهل السماء والأرض.

---

(١) القول الأول هو الصحيح، أن الذين ورثوا ديار قوم فرعون هم بنو إسرائيل، لقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ فالنص صريح في أن الوارثين كانوا بني إسرائيل، والقول بأنهم لم يعودوا إلى مصر غير صحيح، وهي أخبار إسرائيلية.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٣٥٤.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ أي من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم.

﴿ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾ أي من عذاب فرعون ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ أي متكبراً، جبَّاراً، ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مسرفاً في الشر والفساد.

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ بأنهم أحقاء بالاختيار ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي عالم زمانهم.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، وغيرها ﴿ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾ أي اختبار ظاهر، لننظر كيف يعملون؟.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على تماديهم في الإصرار على الضلالة، والتحذير من حلول مثل ما حلَّ بهم.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ما العاقبة إلا الموتة الأولى، المزيلة للحياة الدنيوية، وليست الموتة إلا هذه الموتة، دون التي تعقب حياة القبر، كما تزعمون، ثم صرَّحوا فقالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي بمبعوثين.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطاب لمن وعدهم بالبعث بعد الموت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدون به من قيام الساعة، فأحيوا لنا من مات من أجدادنا.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ردٌّ لقولهم، وتهديد لهم، والمعنى: هل كفار قريش خيرٌ في القوة والمنعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو «تُبَّع الحِمْيري» وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان قد أسلم»[1] سُمِّيَ تُبَّعاً لكثرة أتباعه، وقيل لملوك اليمن «التبابعة» لأنهم يتبع بعضهم بعضاً، كل ملك يتبع صاحبه الذي قبله، كما يسمى في الإسلام خليفة ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والمراد منهم عاد وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بيان عاقبة أمرهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة، فلأن يهلك هؤلاء أولى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي للعبث واللهو.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند.

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي هو الإيمان والطاعة، والبعث والجزاء ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الأمر كذلك.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ أي يوم القيامة لأن فيه فصل الحق عن الباطل، والفصل بين العباد ﴿ مِيقَٰتُهُمْ ﴾ أي وقت موعدهم للحساب ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي الأولين والآخرين، برهم وفاجرهم.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى ﴾ أي لا يفيد ولا يدفع ﴿ مَوْلًى ﴾ أي ناصر وولي قرابة أو غيرها ﴿ عَن مَّوْلًى ﴾ أي عن أي قريبٍ له ﴿ شَيْـًٔا ﴾ قليلاً من الإغناء ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يقدر على نصرته ولو كان قريبه، ولا ينفعه أيّ نفعٍ، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿واتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يُنصر من أراد تعذيبه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن أراد أن يرحمه من أهل الإيمان.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾ أي الشجرة اللعينة التي تنبت في قعر جهنم.

﴿ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴾ أي كثير الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده.

﴿ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ كَٱلۡمُهۡلِ ﴾ أي كالنحاس المذاب الذي انصهر واشتدت حرارته ﴿ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴾ أي يفور في بطون أهل النار، كغليان القدر بالطعام.

﴿ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ الماء إذا اشتد غليانه فهو حميم.

﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ خُذُوهُ ﴾ على إرادة القول، والخطاب للزبانية ﴿ فَٱعۡتِلُوهُ ﴾ أي جرُّوه، والعتلُ: الأخذ بمجامع الشيء وجرُّه بقهر وعنف ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ أي وسطه.

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ ﴾ أي ألقوا الماء الحار ﴿ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾ أي فوق رأس ذلك الشقي الفاجر، من هذا الماء الحميم، الذي تناهت حرارته.

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ أي ويقال له على سبيل السخرية

والاستهزاء: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم، روي أن أبا جهل قال للرسول ﷺ: علامَ تهددني؟ ما بين بطاحها لا أعز ولا أكرم مني، فوالله لا تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعلا بي شيئاً، فقتله الله يوم بدر وأذله، ويقال له في القيامة: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي العذاب ﴿ مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكُّون فيه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿ فِى مَقَامٍ ﴾ أي في مكان إقامة، وهي قصور الجنة ﴿ أَمِينٍ ﴾ يأمن صاحبه من الآفات، والانتقال عنه، والمسكن إنما يطيب بشرطين: ١ ـ أن يكون آمناً عن جميع ما يخاف.
٢ ـ وأن تكون أسباب النزهة فيه كاملة.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ ﴾.

﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، وهذا يدل على اشتماله على طيبات المآكل والمشارب.

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ ﴾.

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي من أنواع ملابس الحرير، الرقيق منه والسميك ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في المجالس، ليستأنسوا بذلك. فإن قيل الجلوس على هذا الشكل موحش، لأن كل واحد منهم يطَّلع على ما يفعله الآخر، قلنا: أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ أي قرنّاهم بزوجات من الحور العين، والحُورُ: جمع حوراء وهي البيضاء، والعِينُ جمع عيناءَ وهي عظيمة العينين.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل ما يسوؤهم، ويكدِّر صفوهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ بل يستمرون على الحياة الأبدية ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ التي ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي نجّاهم الله من عذاب جهنم الفظيع.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون، الخلاص من عذاب النار، والفوز بالجنة، إنما حصل لهم بفضل الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذْ هو خلاصٌ من المكاره، ونيلٌ لكل المطالب، وذلك النعيم تكرمة من الله عزَّ وجلَّ لهم.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنا أنزلنا الكتاب المبين بلغتك، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويعملوا بموجبه.

﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ فانتظر يا محمد ما يحل بهم ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ إنهم ينتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون العاقبة، ولمن يكون النصر والظَّفَر؟ وفيه وعد للرسول ووعيد للمشركين، والله أعلم بمراده، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

* * *



مكية وهي سبع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ .

﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن منزل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، لا كما زعم المشركون أنه من وضع محمد.

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ .

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وللكافرين، إلا أنه لما انتفع المؤمن دون الكافر، أضيف للمؤمنين، ونظيره ﴿هدى للمتقين﴾ فإنه هدى للكل، كما قال سبحانه ﴿هدى للناس﴾ نبّه تعالى على الآيات التكوينية، والأنفسية، والآفاقية، أما السماوات والأرض فإنهما منطويتان على فنون الآيات البديعة، من نجوم زاهرات، وشمس وقمر، والأرض وما فيها من جبال وبحار، وأنواع المخلوقات العجيبة، وأما الآيات في الأنفس فقد ذكرها في قوله:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ أي من نطفة، ثم من علقة، متقلبة في أطوار مختلفة، إلى تمام الخلق ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي فيما ينشره ويفرّقه وينوعه، من دابة تدب على وجه الأرض ﴿ ءَايَٰتٌ ﴾ دلائل على الصانع المختار ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ إما تعاقبهما وإما اختلافهما طولاً وقصراً ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ ﴾ أي من مطر، وهو سبب الرزق، عبّر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة، والرحمة ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع، والنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد يبسها وعرائها عن آثار الحياة، ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، ولها منافع أخر، ومن جملتها سوق السفن في البحار ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وتنكير آيات في المواقع الثلاثة، للتفخيم كماً وكيفاً.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ ﴾ من الأحاديث ﴿ بَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أي بعد كتاب الله ﴿ وَءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي بعد آيات الله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدّقون إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؟.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ أي كذاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي كثير الآثام والجرائم.

﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ صفة أخرى لأفَّاك ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي تقرأ عليه وهي في غاية البيان والوضوح ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ أي يقيم على كفره، ويصر على طغيانه ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ أي مستكبراً عن الإيمان، مستمراً على الطغيان، معجباً بما عنده من الأباطيل، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية وردت بعبارة عامة، ناعية عليه، وعلى كل من يسير سيرة، هذا العمل المشين ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كأنه لم يسمعها، فخفف فحذف ضمير الشأن ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على إصراره واستكباره، والبشارة للتهكم.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ﴾ أي إذا بلغه من آياتنا شيء، وعلم أنه من آياتنا ﴿ ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أي الآيات كلها مهزوءاً بها، من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزء، ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى كل أفاك ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي عذاب شديد مؤلم، مع الذل والإهانة.

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أُعِدَّ لهم ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم ﴾ أي ولا يدفع عنهم ﴿ مَّا كَسَبُوا۟ ﴾ من الأموال والأولاد ﴿ شَيْـًٔا ﴾ من عذاب الله ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي ما عبدوا من الأصنام، وتوسيط حرف النفي مع أنَّ عدم الإغناء من الأصنام أظهر

مبنيٌّ على زعمهم، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يُقادر قدره.

﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ أي القرآن الكريم في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أي من أشد أنواع العذاب، وتنوين العذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم.

﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص ﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ أي لتسير فيه السفن بتدبيره وإذنه وأنتم راكبوها ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ بالتجارة، والغوص، والصيد، وغيرها ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم ﴿ مِّنْهُ ﴾ أي كائناً منه تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة وكثيرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في بدائع صنع الله تعالى.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ أي يعفوا ويصفحوا ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾

أي عن الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعتقدون بحساب الله وجزائه، نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك أن مشركاً من بني غفار شتمه بمكة، فهمَّ عمر أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يصفح عنه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الآثام والإجرام، وبما كانوا يكسبون من قبيح الفعال.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من فعل خيراً في هذه الحياة فنفعه لنفسه، ومن فعل شراً فضرره عائد عليها، لا يكاد يسري إلى غيره، وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي الحكمة وفصل الخصومات بين الناس ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كَثُر فيهم الأنبياء، بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين إشارة لفضلهاعلىنعم الدنيا﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾كالمنّ والسلوى، وأنواع اللذائذ، والثمرات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالم زمانهم، فأمة محمد ﷺ أفضل الأمم بالنص القاطع ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي دلائل ظاهرة في أمر الدين ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ ﴾ في ذلك الأمر ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ بحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين، والمقصود أن يبيّن أن طريقة كفار مكة، كطريقة من تقدم في جحود النعم، والتكبر والعناد.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) ﴾.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي أمر الدين ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك، من غير إخلال بشيء منها ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم رؤساء قريش يقولون: ارجع إلى دين آبائك، وهذه آراء الجهلة النابعة من الشهوات.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩) ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ مما أراد بك إن اتبعتهم ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ لا يواليهم إلا من كان مثلهم ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أنت قدوتهم، فدُمْ على ما أنت عليه، وأعرض عما سواه بالكلية.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء، وهدى وشفاء، ورحمة لمن آمن به، واستمسك بهدايته.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ﴾ استئناف مسوق لتباين حال المسيئين، وحال المحسنين، إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و «أم» منقطعة وما فيه من معنى «بل» للانتقال من بيان الأول إلى الثاني ﴿ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ الاجتراح الاكتساب، ومنه الجوارح ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ ﴾ أي نصيِّرهم في الحكم والاعتبار، وهم على ما هم عليه من مساوىء الأحوال ﴿ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾؟ وهم فيما هم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة؟ ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي محيا الفريقين ومماتُهم؟ كلاَّ لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في الكفر والمعاصي في الدنيا، وفي لعنة الله والعذاب في الممات، شتَّان بينهما، فلا يتساوى المؤمنون الأبرار مع الكفرة الفجار!! ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وظنهم الباطل، قال الكلبي: نزلت هذه الآية، في عتبة، وشيبة، والوليد، قالوا للمؤمنين: لو كان ما تقولون حقاً، لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، لأنَّا أفضل حالاً منكم في الدنيا!! فأنكر الله عليهم، وبيَّن أنه لا يمكن أن يتساوى المجرم مع المحسن، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]؟.

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٣٥ ـ ٣٦.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالعدل والأمر الحقّ، فإن خلق الله لهما بالحق المقتضي للعدل، يقتضي تفضيل المحسن على المسيء، في المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم، وإذا لم يطّرد ذلك في المحيا، فهو بعد الممات حتماً ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ما قبله، أي لأجل إظهار الحق، ولتجزى كل نفس بما فعلت في الدنيا، وهذا لا يتم إلا إذا حصل البعث ﴿وَهُمْ﴾ أي النفوس المدلول عليها كل نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، وتسمية ذلك ظلماً، لبيان غاية تنزهه تعالى عنه.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؟ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنه عَبَده، أي أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقتضى منه العجب!! لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده، فإذا رأى أحسن منه رفضه وكسره، وعبد الآخر ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي خذله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عالماً سبحانه باختياره الضلالة، وتبديله لفطرة الله، التي فطر الناس عليها ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾؟ أي من بعد إضلاله إياه، بموجب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغي؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي ألا تلاحظون فتعتبرون وتتعظون؟.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يصيبنا الموت والحياة فيها،

وليس وراء ذلك حياة بعد موتنا، ولا بعث ولا نشور ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي إلاّ مرور الزمان، وتعاقب الأيام، وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس، مرور الزمان، وينكرون قبض الأرواح ويضيفون الحوادث إلى الدهر، وما نالهم من الشدائد إليه كذلك، ويسبون فاعلها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[1] أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي بما ذكر من إسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستند إلى عقل، أو نقل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي قصارى أمرهم الظنّ والتقليدُ، من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ آياتنا الناطقة بالحق، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ أي ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مُطلقاً.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم، فإن من قَدَر على البدء، قَدَر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجزاء لا محالة، والإتيان بآبائهم حيث كان منافياً

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٩٩.

للحكمة التشريعية، امتنع إيقاعه في الحال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا يعلمون قدرة الله على الإماتة والإحياء، ولذلك ينكرون البعث والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بيان لاختصاص الملك والتصرف فيهما بالله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون بالبعث، لأن الحياة والعقل والصحة رأس المال، والتصرف فيها لطلب السعادة الأبدية، والكفار قد اتعبوا أنفسهم في هذه الحياة، وما وجدوا منها إلا الخسران.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ أي باركة على الركب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي إلى صحيفة أعمالها ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: اليوم تنالون جزاء أعمالكم، من خير أو شر!!.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ من تمام ما يقال لهم، وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه ﴿كِتَٰبُنَا﴾ وتهويلاً لأمره، ومن حيث اشتماله على أعمال كل أمة، أضيف إليها ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابها﴾ ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي إنا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا من خير أو شر.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ أي يدخلهم في جنته التي هي مكان تنزل الرحمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخال في الرحمة ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي السعادة التي لا سعادة وراءها.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ كان همكم في الدنيا الإفسادُ والإجرام!؟.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما وعدكم من الأمور الآتية ﴿ حَقٌّ ﴾ واقع لا محالة ﴿ وَٱلسَّاعَةُ ﴾ التي هي أشهر ما وعد به ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في وقوعها ﴿ قُلْتُم ﴾ لغاية عتوكم ﴿ مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ أي أيَّ شيءٍ هي، استغراباً لها ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي ما نعتقد بها إلا ظنّاً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ لإمكانه، ولعلَّ هؤلاء غير القائلين ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾.

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أي ظهر لهم حينئذ ﴿ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ على ما هي عليه، من الصورة المنكرة الهائلة، وعاينوا وخامة عاقبتها، أو جزاءها فإن جزاء السيئة سيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي جزاءه.

﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسيّ ﴿كَمَا نَسِيتُمۡ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أي تركتم العمل له ولم تبالوا به ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ما لأحد منكم ناصر يخلصكم منها.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ﴾ أي هذا العذاب بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ مهزوءاً بها ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ من النار، والالتفات للاستهانة بهم ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي يرضوه، لفوات أوانه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ﴾ خاصة، إذِ الكلُّ منه نعمة، ودالة على كمال قدرته ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تكرير الرب للتأكيد، ولبيان أنَّ ربوبيته لكل منها بطريق الأصالة، ويوحي بالعظمة والجلال، فهو ربُّ الكائنات، وخالق الأرض السموات، الذي تفرَّد بالخلق والتدبير.

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لظهور آثارها فيهما ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم في كل ما قضى وقدَّر، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»

* * *

فهرس المجلد الرابع

بعون الله تعالى تم انتهاء المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس
ويبدأ بتفسير سورة الأحقاف